كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ ١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء الخامس عشر

ويبتدئ بتفسير : ٤٦ ـ سورة الأحقاف ، وينتهي بتفسير ٥٥ ـ سورة الرحمن

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه

محمد فؤاد عبد الباقي

obeikandl.com

عيسى البابي الحلبي وشركاه

obeikandl.com

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب «قواعد التحديث» للمؤلف، رضى الله عنه

«وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ»

جنيف. رجب الفرد ١٣٥٣هـ

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر، صفحة ٥٥٨

«هو علّامة الشام، ونادرة الأيّام، والمجدّد لعلوم الإسلام، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن»

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة، عالم الشام الأوحد

الشيخ محمد بهجة البيطار

فى مقدمته لكتاب «قواعد التحديث» للمؤلف رضى الله عنه

«إن مما يقضي بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله تعالى، هو كونه خلّف زُهاء مائة مصنّف أو أكثر، ولم يبلغ الخمسين من عمره. وندر جدًّا أن ترى كتاباً، فى خزانته الواسعة، مخطوطاً كان أو مطبوعاً، خالياً من التعليقات الكثيرة، والتصحيح على الأصول الخطيّة الصحيحة.

ولقد كان، رحمه الله، آية فى المحافظة على الوقت، والمواظبة على العمل».

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٦ – سورة الأحقاف

قال المهايميّ : سميت بها لأن مكانها من حيث قبوله سرعة تأثير ريح العذاب فيه ، كالدليل على إنذاره . ففيه إشعار على أن إنذارات القرآن كالدلائل على أنفسها . ثم في قصتهم اتساق الإنذار إلى صيرورة المرجوّ مخوفاً . ففيه إشعار بأن إنذارات القرآن مما يخاف منها صيرورة ما يرجوه الجهال مخوفاً عليهم . وذلك من أعظم مقاصد القرآن . انتهى .

وهي مكية . واستثنى بعضهم منها (وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ...)[١] الآيتين . وقوله[٢]: (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ...) الآية . (وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ...)[٣] الأربع الآيات . (فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ ...)[٤] الآية ، فهي مدنية ـ كذا قيل . وتقدم في طليعة سورة الجاثية تحقيق ذلك . وآيها خمس وثلاثون .

---

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١٠] .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ١٥] . (٤) [٤٦ / الأحقاف / ٣٥] .

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ)

[٣] (مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ)

« حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ » أى : الحكمة وإقامة العدل فى الخلق . « وَأَجَلٍ مُّسَمًّى » أى : وبتقدير أجل معين لكل منها ، يفنيه إذا هو بلغه ، وهو يوم القيامة . « وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ » أى : من هول ذلك اليوم « مُعْرِضُونَ » أى : لا يؤمنون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ، ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

« قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى : من الأوثان التى تعبدونها . « أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ » أى أرونى ما تأثير ما تعبدونه فى شىء أرضىّ بالاستقلال ، أو شىء سماوىّ بالشركة ، حتى تستحق العبادة . « ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ » تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلىّ ، بعد تبكيتهم بالتعجيز

عن الإتيان بسند عقليّ . أى : ائتونى بكتاب إلٰهيّ من قبل هذا القرآن الناطق بالتوحيد ، وإبطال الشرك ، دالّ على صحة دينكم . « أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ » أى : أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين ، شاهدة باستحقاقهم للعبادة . « إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى : فى دعواكم ، فإنها لا تكاد تصح ، ما لم يقم عليها برهان عقليّ ، أو سلطان نقليّ . وحيث لم يقم عليها شيء منهما ، وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل ، تبين بطلانها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ)

« وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ » أى : دعاءه لعجزه عنها « إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ » أى : لأنهم إما جمادات ، وإما مسخّرون مشغولون بأحوالهم . و (الغفلة) مجاز عن عدم الفائدة فيها . أو هو تغليب لمن يتصور منه الغفلة على غيره .

لطيفة :

قال الناصر : فى قوله (إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ) نكتة حسنة . وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة . ومن شأن الغاية انتهاء المغيّا عندها ، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم فى القيامة أيضا لا يستجيبون لهم . فالوجه ـ والله أعلم ـ أنها من الغايات المشعرة بأن مابعدها ، وإن وافق ماقبلها ، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثانى ، حتى كأن الحالتين ، وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت مابينهما، كالشيء وضده . وذلك أن الحالة الأولى التى جعلت غايتها القيامة ، لا تزيد على عدم الاستجابة . والحالة الثانية التى فى القيامة ، زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم . فهو من وادى ما تقدم آنفاً

فى سورة الزخرف فى قوله(١) (بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ) انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ)

« وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ » أى : جمعوا يوم القيامة لموقف الحساب « كَانُواْ » أى : آلهتهم « لَهُمْ أَعْدَآءً » أى : لتبرّئهم منهم. قال الشهاب: أعداء استعارة ، أو مجاز مرسل للضارّ . «وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ» قال ابن جرير(٢) :أى وكانت آلهتهم التى يعبدونها فى الدنيا، بعبادتهم جاحدين ، لأنهم يقولون يوم القيامة : ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرّأنا إليك منهم ، يا ربنا ! أى : فالتكذيب بلسان المقال ، قصدًا إلى بيان أن معبودهم فى الحقيقة الشياطين وأهواؤهم .

وقال القاشانىّ : كانوا أعداء ، لأن عبادة أهل الدنيا لسادتهم وخدمتهم إياهم ، لا تكون إلا لغرض نفسانىّ . وكذا استعباد الموالى لخدمهم . فإذا ارتفعت الأغراض ، وزالت العلل والأسباب ، كانوا لهم أعداء ، وأنكروا عبادتهم . يقولون : ما خدمتمونا ، ولكن خدمتم أنفسكم . كما قيل فى تفسير قوله(٣) (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) . انتهى .

وقيل : الضمير فى (كَانُواْ) فى الموضعين ، للعابدين ، لئلا يلزم التفكيك . وفيه نظر: لأنه خلاف المتبادر من السياق ، إذ هو لبيان حال الآلهة معهم ، لا عكسه ، ولأن كفرهم

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٩ و ٣٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

حينئذ إنكار لعبادتهم . وتسميته كفراً ، خلاف الظاهر أيضاً . وقد أوضح ذلك آية[١] (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

«وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ» أى : بادهوه بالجحود أول ما سمعوه ، من غير إجالة فكر ، ولا إعمال روية . واللام فى (لِلْحَقِّ) لام الأجل ، متعلقة بـ (قَالَ) . وقيل : بمعنى الباء ، متعلقة بـ (كَفَرُوا) ، وعدّى الكفر باللام ، حملاً على نقيضه، وهو الإيمان ، فإنه يعدى بها نحو[٢] (أَنُؤْمِنُ لَكَ)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أى: لا تقدرون أن تدفعوا عنى سوءاً ، إن أصابنى به. و (أم) ـ على ما قالوا ـ منقطعة مقدرة بـ(بل) الإضرابية وهمزة الاستفهام ، المتجوز به عن الإنكار والتعجيب. ووجه كون الافتراء أشنع من السحر، حتى أضرب عنه ، أن الكذب خصوصاً على الله متفق على قبحه ، حتى ترى كل أحد يشمئز من نسبته إليه بخلاف السحر ، فإنه ، وإن قبح ، فليس بهذه المرتبة ، حتى تكاد تعد معرفته من السمات المرغوبة .

---

(١) [١٩ / مريم / ٨١ و ٨٢] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١١١] .

وقال الناصر : هذا الإضراب فى بابه مثل الغاية التى قدمتها آنفاً فى بابها ، فإنه انتقال إلى موافق ، لكنه أزيد من الأول ، فنزل لزيادته عليه ، مع ما تقدمه مما ينقص عنه ، منزلة المتنافيين ، كالنفى والإثبات اللذين يضرب عن أحدها للآخر . وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات ، أشدّ وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر . فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه . انتهى .

« هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ » أى : تخوضون فى حقه من أنه سحر أو إفك « كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ » أى : يشهد لى بالصدق بما يؤيدنى به من آياته وصدق مواعيده « وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ » أى : لمن راجع منكم الكفر وتاب وآمن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ » أى : ما كنت أول رسل الله التى أرسلها إلى خلقه. قد كان من قبلى له رسل كثيرة أرسلت إلى أمم قبلكم، فلِمَ تستنكرون بعثتى، وتستبعدون رسالتى ، كقوله (١) (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ) و (البدع) كالبديع ، بمعنى الجديد المبتدأ . قال ابن جرير (٢) : ومن البدع قول عدىّ بن زيد (٣) :

فَلَا أَنَا بِدْعٌ من حَوَادِثَ تَعْتَرِى رجالًا عَرَتْ من بَعْدِ بُؤْسَىٰ وَأَسْعُدِ

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٤٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) هذا هو البيت السابع عشر من المجمهرة ومطلعها :

أتعرفُ رسمَ الدارِ من أم مَعْبَدٍ نَعَمْ . وَرَمَاكَ الشوقُ قبل التجلُّدِ

تعترى : أى تتعلق . عرت : أى علقت . بؤسى جمع بؤس . أسعد جمع سعد .

ومن البديع قول الأحوص [١] :

فَخَرَتْ فَانْتَمَتْ فقلتُ : ذَرِينى ۔۔۔ لَيْسَ جهلٌ أُتيتِهِ ببـديعِ

« وَمَآ أَدْرِى مَا يُفعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ » قال أبو السعود : أى : أىّ شىء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان ، من أفعاله تعالى ، وماذا يقدّر لنا من قضاياه . وعن الحسن رضى الله عنه : ما أدرى ما يصير إليه أمرى ، وأمركم فى الدنيا . وقيل : يجوز أن يكون المنفى هو الدراية المفصلة . والأظهر أن (ما) عبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات الدنيوية ، دون ما سيقع فى الآخرة ، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة ، وقد ورد به الوحى الناطق بتفاصيل ما يفعل بالجانبين . انتهى .

وهذا الأظهر يقرب من قول الحسن . وهو ماعول عليه ابن جرير . قال ابن كثير : بل لا يجوز غيره . كيف ؟ وهو ﷺ جازم بأنه صائر إلى الجنة ، هو ومن اتبعه بإحسان . وأما فى الدنيا ، فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره ، وأمر مشركى قريش ، أيؤمنون ، أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم . فأما الحديث الذى رواه الإمام [٢] أحمد عن أم العلاء ، وكانت بايعت

---

(١) كان الأحوص يوما عند سُكينة . فأذّن مؤذّن . فلما قال (أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله) فخرت سكينة بما سمعت . فقال الأحوص :

فخرت فانتمتْ . . . .

فأنا ابن الذى حمت لحمَهُ الدَّبْـ ۔۔۔ رُ ، قتيلِ اللِّحْيَانِ يوم الرجيعِ

غسَّلت خالىَ الملائـكة الأبْـ ۔۔۔ رار ميتا طُوبَى له من صريعِ

قال أبو زيد : وقد ، لعمرى فخر بفخر ، لو على غير سكينة ، فخر به ! وبأبى سكينة ﷺ ، حمتْ أباهُ الدَّبْرُ ، وغسلت خالَه الملائـكة .

(الأغانى ج ٤ ص ٢٣٤ ، طبعة الدار) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٣٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

النبيّ ﷺ ، قالت : (طار لنا فى السكنى، حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين ، عثمان ابن مظعون رضى الله عنه ، فاشتكى عثمان عندنا ، فمرضناه . حتى إذا توفى أدرجناه فى أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ. فقلت: رحمة الله عليك،أبا السائب! شهادتى عليك لقد أكرمك الله عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : أماهو فقد جاءه اليقين من ربه، وإنى لأرجو له الخير. والله! ما أدرى ـ وأنا رسول الله ـ ما يفعل بى! قالت: فقلت : والله ! لاأزكى أحداً بعده أبداً وأحزننى ذلك. فنمت ، فرأيت لعثمان رضى الله عنه عيناً تجرى، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : ذاك عمله) فقد انفرد بإخراجه البخارى[1] دون مسلم ، وفى لفظ له : ما أدرى ـ وأنا رسول الله ﷺ ـ ما يفعل به . وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ ، بدليل قولها : فأحزننى ذلك . وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعيّن بالجنة ، إلا الذى نص الشارع على تعيينهم ، كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسراقة وعبد الله بن عمرو بن حرام (والدجابر) والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة وزيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة ، وما أشبه هؤلاء رضى الله عنهم . انتهى كلام ابن كثير .

وقال المهايمىّ : (وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ) أى : فيما لم يوح إلىّ . والوحى ببعض الأمور لا يستلزم العلم بالباقى . ولم يكن لى أن أضمّ إلى الوحى كذباً من عندى .

« إِنْ أَتَّبِعُ » أى: فى تقرير الأمور الغيبية « إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى منذر عقاب الله على كفركم به، أبان لكم إنذاره وأبان لكم دعاءه إلى مافيه صلاحكم وسعادتكم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ)

(١) أخرجه فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٣ ـ باب الدخول على الميّت بعد الموت إذا أدرج فى كفنه ، حديث رقم ٦٦٦ .

«قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ »أي :القرآن منزلاً من لدنه،على .لاسحراًولامفترى كما تزعمون «وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ» أى :من الواقفين على أسرار الوحى بما أوتوا من التوراة «عَلَىٰ مِثْلِهِۦ »أى مثل القرآن، وهو مافى التوراة من الأحكام المصدقة للقرآن من الإيمان بالله وحده ، وهو ما يتبعه ، كقوله تعالى[١] (وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ) وقوله[٢] (إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ *صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ) أو على مثل ماذكرمن كونه من عندالله تعالى.أوعلى مثل شهادة القرآن، فجعل شهادته على أنه من عندالله، شهادة على مثل شهادة القرآن، لأنه بإعجازه كأنه يشهد لنفسه بأنه من عند الله، أو (المثل) صلة و (الفاء) فى قوله تعالى « فَـَٔامَنَ » للدلالة على أنه سارع إلى الإيمان بالقرآن، لما علم أنه من جنس الوحى الناطق بالحق « وَٱسْتَكْبَرْتُمْ » أى : عن الإيمان به بعد هذه الشهادة .

وقوله : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » استئناف مشعر بأن كفرهم، لضلالهم المسبب عن ظلمهم . ودليل على الجواب المحذوف . مثل : (ألستم ظالمين) أو (فمن أضل منكم) وذلك عدم الهداية مما ينبئ عن الضلال قطعاً ، فيكون كقوله فى الآية الأخرى[٣] (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ) .

قال أبو السعود : ووصفهم بالظلم للإشعار بعلة الحكم، فإن تركه تعالى لهدايتهم، لظلمهم.

تنبيه :

روى أن الشاهد هو عبد الله بن سلام ، فتكون الآية مدنية مستثناة من السورة ، كما ذكره الكواشىّ ، لأن إسلامه كان بالمدينة . وأجيب : بأن لا حاجة للاستثناء ، وأن الآية من باب الإخبار قبل الوقوع ، كقوله[٤] (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ) . ويرشحه أن (شَهِدَ) معطوف على الشرط الذى يصير به الماضى مستقبلاً ، فلا ضير فى شهادة الشاهد

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٩٦] . (٢) [٨٧ / الأعلى / ١٨ و ١٩] .
(٣) [٤١ / فصلت / ٥٢] . (٤) [٧ / الأعراف / ٤٨] .

بعد نزولها ، ويكون تفسيره به بياناً للواقع ، لا على أنه مراد بخصوصه منها. هذا ما حققوه. ويقرب مما نذكره كثيرًا من المرادمن سبب النزول فى مثل هذا، وأنه استشهادعلى مايتناوله اللفظ الكريم .

ثم أشار إلى حكاية نوع من أباطيلهم فى التنزيل والمؤمنين به ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ)

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ » أى : الإيمان، أو ما أتى به الرسول «خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ » أى: لوكان من عندالله لكنا أولى به، كسائرالخيرات من المال والجاه.

قال ابن كثير: يعنون بلالًا وعمارًا وصهيباً وخباباً رضى الله عنهم، وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء . وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة ، وله بهم عناية . وقد غلطوا فى ذلك غلطاً فاحشاً ، وأخطأوا خطأً بيّناً ، كما قال تعالى[١] (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ) أى : يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا، ولهذا قالوا[٢] (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ) وأما أهل السنة والجماعة فيقولون فى كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم : هو بدعة . لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. انتهى. «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ »أى: بالقرآن«فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ» أى : كذب قديم، كما قالوا (أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) . قال ابن كثير: فيتنقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذى قال[٣] رسول الله ﷺ : بطر الحق وغمط الناس .

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .

(٣) أخرجه الترمذىّ فى : ٢٥ ـ كتاب البرّ والصلة ، ٦١ ـ باب ماجاء فى الكبر =

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾

«وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً» أى: قدوة يؤتم به فى دين الله وشرائعه، ورحمة لمن آمن به ، وعمل بما فيه . «وَهَٰذَا» أى الذى يقولون فيه ما يقولون «كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ» أى : لكتاب موسى من غير تعلم من أنزل عليه إياه «لِّسَانًا عَرَبِيًّا» أى : بيّناً واضحاً . وفى تقييد الكتاب بذلك ، مع أن عربيته أمر معلوم الدلالة ، على أن تصديقه لها باتحاد معناه معها ، وهى غير عربية . ومثله لا يكون ممن يعرف ذلك اللسان بغير وحى من الله تعالى . «لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[١٤] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

«إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ» أى : لا غيره. «ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟» أى: على العمل الصالح. قال القاضى : أى جمعوا بين التوحيد الذى هو خلاصة العلم ، والاستقامة فى الأمور ، التى هى منتهى العمل . و (ثُمَّ) للدلالة على تأخير رتبة العمل ، وتوقف اعتباره على التوحيد «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» أى : من هول يوم القيامة «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» أى : لا يحزنهم الفزع الأكبر. «أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ».

= ونصه : عن عبد الله، عن النبىّ ﷺ قال: لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر. ولا يدخل النار (يعنى من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان) .

قال ، فقال له رجل : إنه يعجبنى أن يكون ثوبى حسنا ونعلى حسنة .

قال : إن الله يحب الجمال . ولكن الكبر مَنْ بَطَرَ الحقَّ وغمص الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا » وقرئ (حُسْنًا) وهــذا تمهيد لمن عقهما وعصاهما فى الإيمان المذكور ، فى قوله(١) تعالى (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ...) الآية .

« حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » أى : ذات كُرْه ، أو حملًا ذا كُرْهٍ ، وهو المشقة . « وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ » أى : حمله جنيناً فى بطنها ، وفطامه من الرضاع « ثَلَاثُونَ شَهْرًا » أى : تمضى عليها بمعاناة المشاق ، ومقاساة الشدائد لأجله ، مما يوجب للأم مزيد العناية ، وأكيد الرعاية . لا يقال : بقى ثلاثة أشهر ، لأن أمد الرضاع حولان ، لأنا نقول : إن الحولين أمَدُ من أراد تمام الأجل ، وإلا فأصله أقل منهما ، كما ينبىء عنــه قوله(٢) تعالى (حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) ولئن سلم أنهما أمدها ، فيكون فى الآية اكتفاء بالعقود ، وحذف الـكسور ، جرياً على عرفهم فى ذلك ، كما ذكروه فى حديث أنس فى وفاته ﷺ على رأس ستين سنة ، مع أن الصحيح أنه توفى عن ثلاث وستين ، كما بين فى شرح الشمائل . قالوا : إن الراوى للأولى اقتصر فيها على العقود وترك الـكسور ، وسرّ ذلك هو القصد إلى ذكر المهم ، وما يكتفى به فيما سيق له الـكلام ، لا ضبط الحساب ، وتدقيق الأعداد .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ١٧] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

قال ابن كثير : وقد استدل عليّ رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان[١] (وَفِصَالُهُۥ فِى عَامَيْنِ) وقوله تبارك وتعالى[٢] (وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ) على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قويّ صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم .

«حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ» أي : استحكم قوته وعقله «وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ» أي : ألهمني «أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ» أي : بالهداية للتوحيد ، والعمل بطاعتك ، وغير ذلك . «وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ» أي : واجعل الصلاح سارياً في ذريتي ، راسخاً فيهم «إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ» أي : من ذنوبي التي سلفت مني «وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ» أي: المستسلمين لأمرك ونهيك، المنقادين لحكمك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ)

«أُو۟لَٰٓئِكَ» أي الموصوفون بالتوبة والاستقامة «ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟» أي : من الصالحات فنجازيهم عليها «وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ» أي : فلا نعاقبهم عليها لتوبتهم «فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ» أي : معدودين في زمرتهم ثواباً ومقاماً .

قال الشهاب : والظاهر أنه من قبيل[٣] (وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ) ليدل على المبالغة بعلوّ منزلتهم فيها ، إذ قولك (فلان من العلماء) أبلغ من قولك (عالم) . ولم يبيّنوه هٰهنا ، ومن لم يتنبه لهذا قال (فِىٓ) بمعنى (مع) . انتهى .

(١) [٣١/ لقمان / ١٤] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٣٣] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٢٠] .

« وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ » أى : وعدهم تعالى هذا الوعد ، وعدَ الحق فى الدنيا ، وهو موفيه لهم فى الآخرة ، كما قال[1] (وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ) .

ثم بيّن تعالى نعت من عصى ما وصَّى به من الإحسان لوالديه ، من كل ولد عاقّ كافر ، وما له فى مآله ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ)

« وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ » أى حين دعَواه إلى الإيمان والاستقامة « أُفٍّ لَّكُمَآ » أى : من هذه الدعوة « أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ » أى : أبعث من قبرى بعد فنائى « وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى » أى : هلكت ولم يرجع أحد منهم « وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ » أى : يطلبان الغياث بالله منه . والمراد إنكار قوله ، واستعظامه ، كأنهما لجآ إلى الله فى دفعه ، كما يقال (العياذ بالله) ! أو المعنى : يطلبان أن يغيثه الله بالتوفيق ، حتى يرجع عما هو عليه « وَيْلَكَ ءَامِنْ » أى : صدّق بوعد الله ، وأقرّ أنك مبعوث بعد موتك . و (وَيْلَكَ) فى الأصل معناه الدعاء بالهلاك ، فأقيم مقام الحث على فعلٍ أو تركٍ ، للإيماء إلى أن مرتكبه حقيق بأن يطلب له الهلاك ، فإذا سمع ذلك ترك ماهو فيه ، وأخذ ما ينجيه « إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ » أى : إن وعده تعالى لخلقه ، بأنه يبعثهم من قبورهم إلى موقف الحساب ، لمجازاتهم بأعمالهم ، حق لا شك فيه « فَيَقُولُ » أى : مجيباً لوالديه ، ورادًّا عليهما نصيحتهما ، وتكذيباً بوعد الله « مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى : أباطيلهم التى كتبوها .

---

(١) [٥٢ / الطور / ٢١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ)

« أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ » أى : الإلهىّ ، وهو العذاب « فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ » أى : الذين كذبوا رسل الله ، وعتوا عن أمره « إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ » أى : ببيعهم الهدى بالضلال ، والباقى بالفانى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] (وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ)

« وَلِكُلّٖ » أى من الفريقين « دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ » أى : مراتب من جزاء ما عملوا من صالح وسيىء « وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ » أى جزاءها « وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ » أى بنقص ثواب ، ولا زيادة عقاب .

تنبيه :

روى ابن جرير عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى ابنٍ لأبى بكر الصديق . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّىّ قال : نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، قال لأبويه ـ وهما أبو بكر وأم رومان ، وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم ، فكانا يأمرانه بالإسلام ، فكان يرد عليهما ويكذبهما ويقول : فأين فلان ، وأين فلان ؟ يعنى مشايخ قريش ممن قد مات . فأسلم بعدُ ، فحسن إسلامه ـ فنزلت توبته فى هذه الآية (وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ) .

قال الحافظ ابن حجر: لكن نفىُ عائشة أن تكون نزلت فى عبدالرحمن وآل بيته ، أصح إسناداً وأولى بالقبول. وذلك مارواه البخارىّ[١] والإسماعيلىّ والنسائىّ وأبويعلى؛ أن مروان

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٤٦ ـ سورة الأحقاف ، ١ ـ باب والذى قال لوالديه ، حديث رقم ٢٠٤٣ ، عن عائشة .

كان عاملًا على المدينة ، فأراد معاوية أن يستخلف يزيد ، فكتب إلى مروان بذلك ، فجمع مروان الناس فخطبهم ، فذكر يزيدَ ، ودعا إلى بيعته وقال: إن الله أرى أمير المؤمنين فى يزيد رأياً حسناً ، وإن يستخلفه، فقد استخلف أبو بكر وعمر. فقال عبد الرحمن: ماهى إلا هرقلية! فقال مروان : سنة أبى بكر وعمر . فقال عبد الرحمن: هرقلية! إن أبا بكر، والله ! ماجعلها فى أحد من ولده، ولا فى أهل بيته ، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده ! فقال مروان : خذوه. فدخل بيت عائشة ، فلم يقدروا عليه . فقال مروان : إن هذا الذى أنزل الله فيه (وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ) فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذرى . ولو شئت أن أسمى من نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله لعن أبا مروان ، ومروانُ فى صلبه .

ومما يؤيده أن (ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ) هم المخلدون فى النار فى علم الله تعالى ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم. وحاول بعضهم عدم التنافى بأن يقع منه ذلك قبل إسلامه، ثم يسلم بعد ذلك. ومعلوم أن الإسلام يجبّ ما قبله، وأن معنى الوعيد فى الآية إنما هو للمصرّين عليه الذين لم يقلعوا ، لكثرة ما ورد فى العفو عن التائبين . وقد نزل من الوعيد الشديد فى أول البعثة آيات لاتحصى ، وكلها تنعى على من كان مشركاً آنئذ ، ولم يقل أحد بشمولها لهم بعد إيمانهم ، أو أنَّ فيها ما يحط من أقدارهم، ويجعلها مغمزًا لهم، إلا أن مروان لم يجد لمقاومة ما ألقمه إلا الشغب ، وشغل الناس عن باطله بنغمة يطرب لها الجهلة ، وقالةٍ يلوكها الرعاع ، وهم الذين يهمه أمرهم . ويرحم الله عبد الرحمن! فقد شفى الغلة، وصدع بالحق ، فى حين أن لاظهير له ولا نصير ـ والله أعلم ـ .

قال ابن قتيبة فى (المعارف) : أربعة رأوا رسول الله ﷺ فى نسق : أبو قحافة، وابنه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وابنه عبد الرحمن بن أبى بكر ، وابنه محمد بن عبد الرحمن .

وقال أيضاً: قيل : كان عبد الرحمن من أفضل قريش، ويكنى أبا محمد، وله عقب بالمدينة،

وليسوا بالكثير ، مات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبل يقرب من مكة ، فأدخلته عائشة الحرم ودفنته وأعتقت عنه . انتهى .

وفي دمشق في مقبرة باب الفراديس ، المسماة بالدحداح ، مزار يقال إنه عبد الرحمن بن أبي بكر ، نسب إليه زورًا . وما أكثر المزوّرات في المزارات ، كما يعلمه من دقّق في الوفيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ » أي يقال لهم أذهبتم « طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا » عطف تفسير لقوله (أَذْهَبْتُمْ) أي فما بقي لكم من اللذائذ شيء لاستيفائكم إياها « فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ » أي الهوان « بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » أي بغير ما أباح لكم وأذن « وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ » أي عن طاعته ، فأبعدكم عن كرامته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

« وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ » يعني هودًا « إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ » جمع حقف ، وهو الرمل المستطيل المرتفع . قال قتادة : ذكر لنا أن عادًا كانوا حيًّا باليمن ، أهل رمل ، مشرفين على البحر . « وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ » أي : وقد مضت الرسل بإنذار أممها قبله وبعده ، متفقين على « أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ » أي لا تشركوا مع الله شيئًا

فى عبادتكم إياه. وقال كل واحد منهم عليه السلام « إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى من عبادة غير الله « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » أى بمقدار هتكهم ، عذاب الله بالشرك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ)

[٢٣] (قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

«قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا» أى لتصرفنا «عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ » أى من العذاب على عبادتنا إياها « إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ » أى فى وعدك أنه آت لا محالة . « قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ » أى إنى وإن علمت إتيانه قطعاً، فلا أعلم وقت مجيئه، لأن العلم بوقته عنده تعالى، فيأتيكم به فى وقته الذى قدره له «وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » . قال الطبرىّ(١) : أى مواضع حظوظ أنفسكم، فلا تعرفون ما عليها من المضرّة بعبادتكم غير الله ، وفى استعجال عذابه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ، بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[٢٥] (تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ » أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ،

(١) انظر الصفحة رقم ٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية)

فرأوه عارضاً فى ناحية من نواحى السماء، متجهاً نحو مزارعهم « قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ » أى سحاب عارض « مُّمْطِرُنَا » أى بغيث نحيا به « بَلْ هُوَ » أى قال هود بل هو « مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ » أى من العذاب « رِيحٌ » أى هى ريح . أو بدل من (ما) ، « فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ » أى تهلك « كُلَّ شَىْءٍ » أى من أموالهم وأنفسهم « بِأَمْرِ رَبِّهَا » أى إذنه الذى لا يعارض، فلم تدفع عنهم آلهتهم ، بل دمّرتهم « فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ » أى بيوتهم .

ثم أشار إلى أن هذا لا يقتصر على عاد ، بل ينتظر لمن كان على شاكلتهم من أهل مكة وغيرها ، بقوله « كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى الكافرين إذا تمادوا فى غيهم ، وطغوا على ربهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

(وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ) أى مكنا عاداً ، وآتيناهم من كثرة الأموال ، وقوة الأجسام ، فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا . على أنّ (إن) نافية ، أوثرت على (ما) لئلا توجب شبه التكرير الثقيل. وقيل (إن) شرطية محذوفة الجواب. والتقدير: ولقد مكناهم فى الذى ، أو فى شىء ، إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر . وقيل : هى صلة كما فى قوله(١) .

يرجّى المرء ما إنْ لا يَرَاهُ ويَعرِضُ دونَ أَدْنَاهُ الخطوبُ

---

(١) البيت من شواهد الكشاف ، قاله إياس بن الأرتّ . وقبله .

فإنْ أُمْسِكْ فإن العيشَ حُلْوٌ إلىّ كأنه عَسَلٌ مَشُوبُ =

قال الزمخشريّ : والوجه هو الأول. ولقد جاء عليه فى غير آية فى القرآن(١) (هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا)(٢) (كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا) وهو أبلغ فى التوبيخ ، وأدخل فى الحث على الاعتبار .

قال الناصر : واختص بهذه الطائفة قوله تعالى(٣) (وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)وقوله(٤) (مَكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ) أى: والأصل توافق المعانى فى الآى الواردة فى نبأ واحد، على ما فيه أيضاً من سلامة الحذف والزيادة .

« وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً » قال الطبرىّ(٥) : أى جعلنا لهم سمعاً يسمعون به مواعظ ربهم ، وأبصاراً يبصرون بها حجج الله ، وأفئدة يعقلون بها ما يضرهم وينفعهم ، «فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ» أى لأنهم لم يستعملوها فيما خلقت له ، بل فى خلافه « إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » أى من العذاب .

قال الطبرى(٦) : وهذا وعيد من الله عز وجل ثناؤه ، لقريش . يقول لهم : فاحذروا أن

= وبعده :

وما يدرى الحريصُ علامَ يلقى شَراشِرَهُ ، أيخطىء أم يصيبُ

ومعنى البيت : أن الإنسان تمتد أطماعه إلى الأمور المغيبة التى لا يراها ، ويعترض الموت عندها ، أو يعترض دون أقربها عنده حصولا ، الأمورُ الشديدة التى تقطع رجاءه ، فما ظنك بأبعد الأشياء ؟! .

(١) [١٩ / مريم / ٧٤] . (٢) [٤٠ / غافر / ٨٢] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٥] . (٤) [٦ الأنعام / ٦] .

(٥) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء الساس والعشرين(طبعة الحلبىّ الثانية).

(٦) انظر الصفحة رقم ٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

يحل بكم من العذاب على كفركم بالله، وتكذيبكم رسله ، ماحلَّ بعاد ، وبادروا بالتوبة قبل النقمة.

لطيفة :

قال الشهاب : أفرد السمع فى النظم ، وجمع غيره ، لاتحاد المدرك به ، وهو الأصوات ، وتعددت مدركات غيره ، ولأنه فى الأصل مصدر ، وأيضاً مسموعهم من الرسل متحد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم » أى ما حول قريتكم يا أهل مكة « مِّنَ الْقُرَىٰ » أى كحجر ثمود ، وأرض سدوم ومأرب ونحوها ، فأنذرنا أهلها بالمثلات ، وخربنا ديارها ، فجعلناها خاوية على عروشها « وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ » أى وعظناهم بأنواع العظات ، وبيّنا لهم ضروباً من الحجج « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن الكفر بالله ورسله . قال الطبرىّ : وفى الكلام متروك ، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه ، وهو : فأبوا إلا الإقامة على كفرهم ، والتمادى على غيهم ، فأهلكناهم ، فلم ينصرهم منا ناصر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ، بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً » أى : فهلا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم ، أوثانهم التى اتخذوا عبادتها قرباناً يتقربون بها ، فيما زعموا ، إلى ربهم إذ جاءهم بأسنا ، فتنقذهم من عذابنا ، إن كانت تشفع لهم عند ربهم ، كما قالوا[١] (هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ) .

(١) [١٠ / يونس / ١٨] .

« بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ » أى غابوا عن نصرهم، وامتنع أن يستمدوا بهم، امتناع الاستمداد بالضالّ ففى (ضَلُّواْ) استعارة تبعية « وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ » أى ضياع آلهتهم عنهم ، وامتناع نصرهم إثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة . « وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ » أى وإثر افترائهم فى أنها شفعاؤهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ)

[٣٠] (قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)

[٣١] (يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٣٢] (وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ » أى أملناهم إليك ، وأقبلنا بهم نحوك « يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ » أى ليتم التدبر والتفكر « فَلَمَّا قُضِىَ » أى فرغ من قراءته ، كمل تأثرهم به ، فأرادوا التأثير به ، لذلك « وَلَّوْاْ » أى رجعوا « إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ » أى عما هم فيه من الضلال . « قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ » أى المتفق على تعظيم كتابه . أى وقد علمنا صدقه لكونه « مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » أى من هذه الكتب كلها ، وقد فُضّل عليها إذ « يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ » أى معرفة الحقائق « وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ » أى لا عوج فيه ، وهو الإسلام .

قال ابن كثير : أى يهدى إلى الحق فى الاعتقاد والأخبار ، وإلى طريق مستقيم فى الأعمال . فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب . فخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى(١) (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) وقال تعالى(٢) (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ) فالهدى هو العلم النافع ، ودين الحق هو العمل الصالح . وهكذا قالت الجن : يهدى إلى الحق فى الاعتقادات ، وإلى طريق مستقيم ، أى فى العمليات .

« يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ » أى رسول الله محمدًا إلى مايدعوكم إليه من طاعة الله ، « وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بمعجزٍ ربه ، بهربه إذا أراد تعالى عقوبته ، لأنه فى قبضته وسلطانه ، أنّى اتجه . « وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ » أى نصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه . « أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » أى أخذ على غير استقامة .

تنبيهات :

الأول ـ روى الإمام مسلم(٣) عن علقمة قال : سألت ابن مسعود رضى الله عنه : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه ، فالتمسناه فى الأودية والشعاب ، فقيل : استطير ، اغتيل ! قال : فبتنا بشرِّ ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حِراءَ . قال : فقلنا : يارسول الله ! فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم . فقال : أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن . قال ، فانطَلَقَ بنا ، فأرانا آثارهم .

وروى الإمام أحمد(٤) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان الجن يستمعون الوحى ،

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ٣٣] .

(٣) أخرجه فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٥٠ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٤ فى الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٢٤٨٢ (طبعة المعارف) .

فيسمعون الـكلمة ، فيزيدون فيها عشراً . فيكون ما سمعوا حقًّا ، وما زادوا باطلًا . وكانت النجوم لا يُرمى بها قبل ذلك . فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رُمى بشهاب يحرق ما أصاب ، فشكوا ذلك إلى إبليس ، فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدث . فبثّ جنوده ، فإذا بالنبيّ ﷺ يصلّى بين جبلى نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هـذا الحدث الذى حدث فى الأرض . ورواه الترمذىّ (١) والنسائىّ فى كتابى التفسير من سننهما . وهكذا قال الحسن البصرىّ : إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم .

وذكر محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظّى قصة خروج النبيّ ﷺ إلى الطائف، ودعائه إياهم إلى الله عز وجل ، وإبائهم عليه ، فذكر القصة بطولها ، ثم قال : فلما انصرف عنهم ، بات بنخلة ، فقرأ تلك الليلة من القرآن ، فاستمعته الجن من أهل نصيبين . قال ابن كثير : وهذا صحيح ، ولـكن قوله (إن الجن كان استماعهم تلك الليلة) فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء ، كما دلّ عليه حديث ابن عباس رضى الله عنهما المذكور . وخروجُه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أوسنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره .

وروى ابن أبى شيبة عن ابن مسعود قال : هبطوا على النبيّ ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا ، فأنزل الله عز وجل عليه(٢) (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ . . .) الآية . قال ابن كثير: فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضى الله عنهما ، يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ، ثم رجعوا إلى قومهم ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالًا : قوماً بعد قوم ، وفوجاً بعد فوج .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٧٢ ، سورة الجن .

(٢) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

فأما ما رواه البخاريّ ومسلم (١) جميعاً عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبي يقول: سألت مسروقاً : من آذن النبيّ ﷺ ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدّثني أبوك ـ يعني ابن مسعود رضي الله عنه ـ أنه آذنته بهم شجرة ، فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة ، أي أعلمته باجتماعهم ، ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات والله أعلم .

قال الحافظ البيهقيّ : وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ماسمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ ، وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ، ولم يرهم . ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن ، فقرأ ، عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل ـ كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه ـ .

ثم قال ابن كثير : وأما ابن مسعود رضي الله عنه ، فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ، ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبيّ ﷺ أحد سواه ، ومع هذا ، لم يشهد حال المخاطبة . هذه طريقة البيهقيّ . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم ، لم يكن معه ﷺ ابن مسعود ولا غيره ، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام مسلم . ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى ـ والله أعلم ـ كما روى ابن أبي حاتم في تفسير (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ) من حديث ابن جريج قال : قال عبد العزيز بن عمر : أما الجن الذين لقوه بنخلة فجنّ نينوى ، وأما الجن الذين لقوه بمكة ، فجن نصيبين . وتأوّل البيهقي قوله (فبتنا بشرّ ليلة) على غير ابن مسعود ، ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن ، وهو محتمل ، على بُعْدٍ

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٣٢ ـ باب ذكر الجن وقول الله تعالى: قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن ، الحديث رقم ١٨١٠ .

وأخرجه مسلم في : ٤ ـ كتاب الصلاة حديث رقم ١٥٣ (طبعتنا) .

وبالجملة ، فقد روى مايدل على تكرار ذلك . وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولًا من وجه جيّد عند ابن جرير[1] فى هذه الآية ، قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلًا إلى قومهم ، فهذا يدلّ على أنه قد روى القصتين . وذكر أبو حمزة الثمالىّ أن هذا الحىّ من الجن كانوا أكثر الجن عددًا ، وأشرفهم نسبًا . وعن ابن مسعود أنهم كانوا تسعة . ويروى أنهم كانوا خمسة عشر ، وروى ستين ، وروى ثلاثمائة . وعن عكرمة أنهم كانوا اثنى عشر ألفاً . قال ابن كثير : فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه ﷺ . ومما يدلّ على ذلك مارواه البخارىّ[2] فى صحيحه أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : ما سمعت عمر رضى الله عنه لشىء قط يقول : إنى لأظنه هكذا ، إلا كان كما يظن . بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مرّ به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظنى ، أو إن هذا على دينه فى الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم . علىّ الرجلَ . فدعى له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم . قال : فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى ! قال كنت كاهنَهم فى الجاهلية . قال : فما أعجب ما جاءتك به جنيتك ؟ قال : بينما أنا يوماً فى السوق ، جاءتنى أعرف فيها الفزع ، فقالت : ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها ؟ قال عمر : صدق ! بينما أنا نائم عند آلهتهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ به صارخ ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : ياجليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . قال ، فوثب القوم . فقلت : لا أبرح حتى أعلم ماوراء هذا . ثم نادى : ياجليح ! أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . فقمت ، فما نشبنا أن قيل : هذا نبيّ ـ هذا سياق البخاريّ ـ وقد رواه البيهقىّ من حديث ابن وهب بنحوه . ثم قال : وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر رضى الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل

(١) انظر الصفحة رقم ٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) أخرجه فى ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٣٥ ـ باب إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حديث ١٨١٣ .

الذى ذبح . وكذلك هو صريح فى رواية ضعيفة عن عمر رضى الله عنه . وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه ـ والله أعلم ـ .

وهذا الرجل هو سواد بن قارب . قال البيهقى : وسواد بن قارب يشبه أن يكون هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه فى الحديث الصحيح . ثم روى بسنده عن البراء قال : بينما عمر ابن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال : أيها الناس ! أفيكم سواد بن قارب ؟ قال ، فلم يجبه أحد تلك السنة . فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس ! أفيكم سواد بن قارب ؟ قال ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! وما سواد بن قارب ؟ قال ، فقال له عمر : إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً ! قال : فبينا نحن كذلك ، إذ طلع سواد بن قارب. قال ، فقال له عمر : يا سواد ! حدثنا ببدء إسلامك كيف كان . قال سواد : فإنى كنت نازلا بالهند ، وكان لى رَئِىٌّ من الجن . قال ، فبينا أنا ذات ليلة نائم إذا جاءنى فى منامى ذلك ، قال : قم فافهم ، واعقل إن كنت تعقل ! قد بعث رسول من لؤىّ بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبتُ للجنّ وتَحْسَاسِهَا ... وشـدِّها العيسَ بأحْلَاسِهَا
تهوى إلى مكة تبغى الهُدَى ... ما خيِّرُ الجنّ كأَنْجَاسِهَا
فانهَضْ إلى الصَّفْوَةِ من هاشمٍ ... واسمُ بِعَيْنَيْكَ إلى رَاسِهَا

قال : ثم أنبهنى فأفزعنى وقال : ياسواد بن قارب ! إن الله عز وجل بعث نبيًّا، فانهض إليه تهتدِ وترشد . فلما كان من الليلة الثانية ، أتانى فأنبهنى ، ثم أنشأ يقول :

عِجبتُ للجن وتَطـلَابِهَا ... وشـدِّها العيسَ بأَقْتَابِهَا
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... وليسَ قُدْمَاهَا كَأَذْنَابِهَا
فانهض إلى الصَّفْوَةِ من هاشم ... واسمُ بعينيـك إلى قَابِهَا

فلما كان فى الليلة الثالثة ، أتانى فأنبهنى ، ثم قال :

عجبتُ للجن وتَخبارِهَـا ... وشدِّها العيسَ بِأَكْوَارِهَا
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ليس ذَوُو الشرِّ كأَخْيَارِهَا
فانهَضْ إلى الصَّفوةِ من هاشم ... ما مُؤْمِنُو الجنّ ككُفَّارِهَا

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة ، وقع فى قلبى حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ماشاء الله . قال : فانطلقت إلى رحلى ، فشددته على راحلتى ، فما حللت نسعة ، ولا عقدت أخرى ، حتى أتيت رسول الله ﷺ ، فإذا هو بالمدينة ـ يعنى مكة ـ والناس عليه كعرف الفرس ، فلما رآنى النبيّ ﷺ قال : مرحباً بك ياسواد بن قارب ، قد علمنا ما جاء بك . قال : قلت : يارسول الله ! قد قلت شعراً ، فاسمعه منى ! قال صلى الله عليه وسلم : قل ياسواد ، فقلت :

أَتَانِى رَئِيِّي بعد لَيْلٍ وَهَجْعَةٍ ... ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذِبِ
ثلاثَ ليالٍ ، قولُه كلَّ ليلة : ... أتاكَ رسول من لُؤَىّ بْنِ غالب
فشمَّرْتُ عن ساقى الإزار وَوَسَّطَتْ ... بى الدِّعْلِبُ الوجناء بين السباسب
فأشهد أن الله لا ربَّ غيرُهُ ... وأنك مأمونٌ على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلةً ... إلى الله ، ياابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك ياخير مُرْسَلٍ ... وإن كان فيما جاء شَيْبُ الذَّوَائِبِ
وكن لى شفيعاً يوم لاذو شفاعة ... سواكَ بمُغْنٍ عن سَوَادِ بْنِ قَارِبِ

قال : فضحك النبيّ ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال لى : أفلحت ياسواد ! فقال له عمر رضى الله عنه : هل يأتيك رئيّك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتنى ، ونعم العوض كتاب الله عز وجل من الجن. ثم أسنده البيهقىّ من وجهين آخرين. انتهى (١) كلام ابن كثير.

وقد ساقه الإمام الماوردىّ فى (أعلام النبوة) مع نظائر له ، فى الباب السادس عشر ، فى هتوف الجن ، ثم قال : ولئن كانت هذه الهتوف أخبارَ آحاد ، عمن لا يرى شخصه ، ولا يحج قوله ، فخروجه عن العادة نذير ، وتأثيره فى النفوس بشير ، وقد قبلها السامعون. وقبولُ الأخبار يؤكد صحتها ، ويؤيد حجتها . فإن قيل : إن كانت هتوف الجن من دلائل النبوة ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٧ من الجزء الرابع (طبعة ١٩٣٧) .

جاز أن تكون دليلاً على صحة الكهانة ، فعنه جوابان :

أحدهما : أن دلائل النبوة غيرها ، وإنما هى من البشائر بها ، وفرق بين الدلالة والبشارة إخباراً .

والثانى : أن الكهانة عن مغيّب ، والبشارة عن معين ، فالعيان معلوم ، والغائب موهوم . انتهى .

التنبيه الثانى :

قال الماوردىّ : فى صرف الجن المذكور فى قوله تعالى(١) (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ) وجهان :

أحدهما ـ أنهم صرفوا عن استراق سمع السماء ، برجوم الشهب ، ولم يصرفوا عنه بعد عيسى إلا بعد بعث رسول الله ﷺ فقالوا : ما هذا الحادث فى السماء ، إلا لحادث فى الأرض ، وتخيلوا يه تجديد النبوة ، فجابوا الأرض ، حتى وقفوا على رسول الله ﷺ ببطن مكة عامداً إلى عكاظ ، وهو يصلى الفجر ، فاستمعوا القرآن ، ورأوه كيف يصلى ويقتدى به أصحابه ، فعلموا أنه لهذا الحادث ، صرفوا عن استراق السمع برجوم الشهب . وهذا قول ابن عباس رضى الله تعالى عنه .

أقول : وعليه فتكون (إلى) فى (إليك) بمعنى لام التعليل . وذُكر فى (المغنى) أنها تأتى مرادفة اللام، نحو(٢) (والأمر إليكِ) . وفيه تكاف وبُعدٌ ، لنبوّه عما يقتضيه سياق بقية الآية .

ثم قال الماوردىّ : وحكى عكرمة أن السورة التى كان يقرؤها(٣) (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ) .

أقول : سيأتى مرفوعاً عن جابر أنها سورة الرحمن .

ثم قال الماوردىّ :

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] . (٢) [٢٧ / النمل / ٣٣] . (٣) [٩٦ / العلق / ١] .

والوجه الثاني ـ أنهم صرفوا عن بلادهم بالتوفيق ، هداية من الله تعالى ، حتى أتوا نبيّ الله ببطن نخلة ، فنزل عليه جبريل بهذه الآية ، وأخبره بوفود الجن ، وأمره بالخروج إليهم ، فخرج ومعه ابن مسعود ، حتى جاء الحجون . قال ابن مسعود : فخط عليّ خطًّا وقال : لا تجاوزه .

فعلى الوجه الأول ، لم يعلم بهم حتى أتوه . وعلى الوجه الثاني ، أعلمه جبريل قبل إتيانهم. واختلف أهل العلم في رؤيته لهم ، وقراءته عليهم . فحكى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لم يرهم ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما سمعوا قراءته حين مروا به مصلياً . وحكى ابن مسعود أنه رآهم ، وقرأ عليهم القرآن .

مكتبة الحرم النبوي الشريف
المدينة المنورة

أقول : تقدم لابن كثير مافيه كفاية ـ .

ثم قال الماورديّ : وفي قوله(١) (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ) وجهان :

أحدهما ـ فلما حضروا قراءته القرآن قالوا : أنصتوا لسماعه .

والوجه الثاني : فلما حضروا رسول الله ﷺ قالوا : أنصتوا لسماع قوله . انتهى .

قال ابن كثير : وهذا ـ أي قولهم أنصتوا ـ أدب منهم . وقد روى البيهقيّ عن جابر قال : قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ، ثم قال : مالي أراكم سكوتاً ؟ لَلجنُّ كانوا أحسن منكم ردا . ماقرأت عليهم هذه الآية من مرة (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد. ورواه الترمذيّ(٢) وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير .

الثالث ـ دل قوله تعالى(٣) (يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ) على أن رسول الله ﷺ كان عامّ الرسالة إلى الإنس والجن .

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٩] .

(٢) أخرجه الترمذيّ في: ٤٤ ـ كتاب التفسير، ٥٥ ـ سورة الرحمن، باب حدثنا عبد الرحمن ابن واقد . (٣) [٤٦ / الأحقاف / ٣١] .

قال ابن كثير : لأنه دعا الجن إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين ، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهى سورة الرحمن ، ولهذا قال (أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ).

قال الماوردىّ: لم يختلف أهل العلم أنه يجوز أن يبعث إليهم رسولًا من الإنس، واختلفوا فى جواز بعثة رسول منهم، فجوّزه قوم لقول الله تعالى[1] (يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) ومنع آخرون منه. وهذا قول من جعلهم من ولد إبليس، وحملوا قوله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) على الذين لما سمعوا القرآن ، ولّوْا إلى قومهم منذرين . انتهى .

أقول : ونظيره تسمية رسل عيسى عليه السلام رسلًا فى آية[2] (إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ) .

الرابع ـ استدل بقوله (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة . إذ لو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا ، لأوشك أن يذكروه .

قال الماوردىّ : فأما كفارهم فيدخلون النار ، وأما مؤمنوهم ، فقد اختلفوا فى دخولهم الجنة ثواباً على إيمانهم. فقال الضحاك : ومن جوز أن يكون رسلهم منهم، يدخلون الجنة. وحكى سفيان عن ليث أنهم يثابون على الإيمان بأن يجازوا على النار خلاصاً منها ، ثم يقال لهم : كونوا تراباً كالبهائم . انتهى .

والحق ـ كما قال ابن كثير ـ أن مؤمنهم كمؤمن الإنس ، يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف . وقد استدل بعضهم لهذا بقوله عز وجل[3] (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ) وفى هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا[4] (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . (٢) [٣٦ / يس / ١٤] .

(٣) [٥٥ / الرحمن / ٥٦و٧٤] . (٤) [٥٥ / ٤٦و٤٧] .

رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فقد امتنّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة . وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القوليّ أبلغ من الإنس، فقالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد . فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم. وأيضاً ، فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار ، وهو مقام عدل ، فَلأَن يجازى مؤمنهم بالجنة ، وهو مقام فضل ، بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضا على عموم ذلك قوله تعالى[1] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » وما أشبه ذلك من الآيات . وما ذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان ، من تكفير الذنوب ، والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ، لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار. فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة ، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع ، أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة ، وإن أجيروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم . وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه[2] (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى)ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكى فيهم أقوال غريبة. فعن عمر بن العزيز أنهم لا يدخلون بحبوحة الجنة، وإنما يكونون فى ربضها وحولها وفى أرجائها . ومن الناس من زعم أنهم فى الجنة يراهم بنو آدم ، ولا يرون بنى آدم بعكس ما كانوا عليه فى الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون فى الجنة ولا يشربون ، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس ، عوضاً عن الطعام والشراب ، كالملائكة ، لأنهم من جنسهم . وكل هذه الأقوال فيها نظر ، ولا دليل عليها . انتهى .

الخامس ـ قيل : سر التبعيض فى قوله (مِّن ذُنُوبِكُمْ) أن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان ، كذنوب المظالم ، أى : حقوق العباد . وفيه نظر ، لأن الحربيّ لو نهب الأموال المصونة، وسفك الدماء المحقونة، ثم حسن إسلامه، جبّ الإسلام عنه إثم ما تقدم ، بلا إشكال.

---

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٧] . (٢) [٧١ / نوح / ٤] .

ويقال : إنه ماوعدُ المغفرة للكافر على تقدير الإيمان فى كتاب الله تعالى إلا مبعضة ، والسر فيه أن مقام الكافر قبض لا بسط ، فلذلك لم يبسط رجاؤه كما فى حق المؤمن ـ أفاده الناصر ـ .

السادس ـ قال ابن كثير: جمعوا فى دعواهم قومهم بين الترغيب والترهيب ، ولهذا نجع فى كثير منهم ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً ، كما تقدم بيانه .

السابع ـ قال الماوردىّ : الجن من العالم الناطق المميز، يأكلون ويتنا كحون ويتناسلون ويموتون ، وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار ، وإن تميزوا بأفعال وآثار ، إلا أن الله يخص برؤيتهم من يشاء . وإنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية ، وما تخيلوه من آثارهم الخفية .

وقال القاشانىّ :الجن نفوس أرضية تجسدت فى أبدان لطيفة مركبة من لطائف العناصر ، سماها حكماء الفرس (الصور المعلقة) . ولكونها أرضية متجسدة فى أبدان عنصرية ، ومشاركتها الإنس فى ذلك ، سميا (ثقلين) . وكما أمكن الناسَ التهدّى بالقرآن أمكنهم . وحكاياتهم من المحققين وغيرهم أكثر من أن يمكن رد الجميع ، وأوضح من أن يقبل التأويل . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ » أى بإعادة الروح إلى الجسد ، بعد مفارقتها إياه ، وإخراجهم من قبورهم كهيأتهم قبل وفاتهم .

وفى ابن جرير[١] بحث نحوىّ فى دخول الباء فى (بِقَادِرٍ) بديعٌ . ويذكر فى مباحث زيادة الباء ، فى مطولات العربية .

« بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى من إعادة المعدوم ، ولو فنى الجسد وغيره .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

obeikandl.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ، قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)

[٣٥] (فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ، بَلَـٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ)

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا » أى الإحياء إحياء « بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَٱصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة وتكذيبهم وإيذائهم « كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ » أى : أولو الثبات والجد منهم ، فإنك منهم . والعزم ـ فى اللغة ـ كالعزيمة ، ما عقدت قلبك عليه من أمر . والعزم أيضاً القوة على الشيء والصبر عليه . فالمراد به هنا المجتهدون ، المجدّون ، أو الصابرون على أمر الله فيما عهده إليهم ، وقدره وقضاه عليهم . ومطلق الجد والجهد والصبر موجود فى جميع الرسل ، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكثير من الأولياء . فلذا ذهب جمهور المفسرين فى هذه الآية إلى أنهم جميع الرسل ، وأن (من) بيانية لا تبعيضية ، فكل رسول من أولى العزم . فإن أريد به معنى مخصوص ببعضهم ، فلابد من بيانه ليظهر وجه التخصيص . ومنشأ الاختلاف فى عددهم إلى أقوال : أحدها ـ أنهم جميع الرسل . والثانى ـ أنهم أربعة : نوح وإبراهيم وموسى ومحمد . والثالث ـ أنهم خمسة بزيادة عيسى ، كما قيل :

أولى العزمِ نوحٌ والخليلُ المجَّدُ ... وموسَى وعيسَى والنبيُّ محمــدُ

والرابع ـ أنهم ستة ، بزيادة هرون أو داود . والخامس ـ أنهم سبعة بزيادة آدم . والسادس ـ أنهم تسعة ، بزيادة إسحاق ويعقوب ويوسف . وقد يزاد وينقص .

وتوجيه التخصيص أن المراد بهم من له جد وجهد تام فى دعوته إلى الحق ، وذبه عن حريم التوحيد ، وحمى الشريعة ، بحيث يصبر على ما لا يطيقه سواه من عوارضه النفسية والبدنية ، وأموره الخارجية ، كمبارزة كل أهل عصره ، كما كان لنوح . أو لملك جبار فى عصره ، وانتصاره عليه من غير عدة دنيوية ، كنمروذ إبراهيم ، وجالوت داود ، وفرعون موسى . ولكل موسى فرعون ، ولكل محمد أبو جهل . وكالابتلاء بأمور لا يصبر عليها البشر بدون قوة قدسية ، ونفس ربانية ، كما وقع لأيوب عليه الصلاة والسلام . ومن هنا كشف برقع الخفاء عن وجه التخصيص ، وهذا مما كشفت بركاتهم سره ـ أفاده الشهاب ـ « وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ » أى ولا تستعجل بمساءلتك ربك العذاب لهم ، فإن ذلك نازل بهم لا محالة ، وإن اشتد عليك الأمر من جهتهم . « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ » أى من عذاب الله ونكاله وخزيه الذى ينزل بهم فى الدنيا أوفى الآخرة « لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ » أى لأنه ينسيهم شدة ما ينزل بهم من عذابه ، قدر ما كانوا فى الدنيا لبثوا ، ومبلغ ما فيها مكثوا .

وقوله تعالى « بَلَٰغٌ » قال ابن جرير[1] : فيه وجهان :

أحدهما ـ أن يكون معناه : لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، ذلك لبث بلاغ ، بمعنى : ذلك بلاغ لهم فى الدنيا إلى أجلهم ، ثم حذف (ذلك لبث) ، وهى مرادة فى الكلام اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليها .

والآخر ـ أن يكون معناه : هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية ، إن فكروا واعتبروا ، فتذكروا . انتهى .

وأشار المهايمىّ إلى معنى آخر فقال : ليس من حق الرسل الاستعجال ، بل حقهم بلاغ . « فَهَلْ يُهْلَكُ » أن بعذاب الله إذا أنزله بمقتضى العدل والحكمة « إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ » أى الذين خالفوا أمره ، وخرجوا من طاعته . نعوذ بالله من غضبه ، وأليم عقابه .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٧ - سورة محمد ﷺ

سميت به ، لما فيها من أن الإيمان بما نزل على محمد متفرقاً ، أعظم من الإيمان بما نزل مجموعاً على سائر الأنبياء عليهم السلام . وهو من أعظم مقاصد القرآن . وتسمى سورة (القتال) ، لدلالتها على ارتفاع حرمة نفوس الكفار المانعة من قتالهم ، وما يترتب على القتال وكثرة فوائده ـ قاله المهايميّ ـ .

وهي مدنية . وحكى النسفيّ قولًا غريباً ، أنها مكية . وآيها ثمان وثلاثون .

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١] (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ)

« ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى: جحدوا توحيد الله ، وعبدوا غيره « وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى : أعرضوا وامتنعوا عن الإقرار لله بالوحدانية، ولنبيه بالرسالة. أو صدوا غيرهم عن ذلك. « أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ » أى جعلها على غير هدى ورشاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ » أى الطاعات فيما بينهم وبين ربهم .

وقوله « وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ » أى بما أنزل الله به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم. وإنما خصه بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، تعظيماً لشأنه وتعليماً ، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به ، إذ يفيد بعطفه أنه أعظم أركانه ، لإفراده بالذكر . وقد تأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التى هى قوله « وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ » أى الثابت بالواقع ونفس الأمر . « كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ » أى ستر بإيمانهم وعملهم الصالح، ما كان منهم من الكفر والمعاصى، لرجوعهم عنها وتوبتهم « وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ » أى حالهم وشأنهم، وعملهم فى الدنيا بالتأييد والتوفيق.

قال الشهاب : (البال) يكون بمعنى الحال والشأن . وقد يخص بالشأن العظيم، كقوله ﷺ[(١)] (كل أمر ذى بال) . ويكون بمعنى الخاطر القلبىّ ، ويتجوز به عن القلب . ولو فسر به

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ٩ ـ كتاب النكاح ، ١٩ ـ باب خطبة النكاح ، حديث ١٨٩٤ (طبعتنا) .

هنا كان حسناً أيضاً . وقد فسره السفاقسيّ بالفكر ، لأنه إذا صلح قلبه وفكره ، صلحت عقيدته وأعماله .

وقال ابن جرير[(١)] : البال كالمصدر ، مثل الشأن ، لايعرف منه فعل، ولا تكاد العرب تجمعه إلا فى ضرورة شعر ، فإذا جمعوه قالوا : (بالات) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ)

« ذَٰلِكَ » أى المذكور من فعله تعالى بالفريقين مافعله كائن « بِأَنَّ ٱلَّذِينَ » أى بسبب أن الذين « كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ » أى يشبه لهم الأشباه، فيلحق بكل قوم من الأمثال أشكالا .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : فى أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار. واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين. أوفى أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين. انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ، وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ)

« فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ » لما كان طليعة هذه السورة تمهيداً لجهاد المشركين الساعين فى الأرض بالفساد ، الصادّين عن منهج الرشاد، وبعثاً على الصدق

(١) انظر الصفحة رقم ٣٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

فى قتالهم ، كسحاً لعقبة باطلهم ، عملًا بما يوجبه الإيمان ويفرضه الإيقان ، وتمييزاً لأولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، تأثر تلك الطليعة بهذه الجملة. ولذا قال أبو السعود: الفاء لترتيب مافى حيزها من الأمر على ماقبلها. فإن ضلال أعمال الكفرة وخبثهم، وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم ، مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين مايليق به من الأحكام. أى : فإذا كان الأمر كما ذكر ، فإذا لقيتموهم فى المحاربة ، فضرب الرقاب. وأصله: فاضربوا الرقاب ضرباً. فحذف الفعل، وقدم المصدر ، وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول . وفيه اختصار وتأكيد بليغ . والتعبير به عن القتل ، تصوير له بأشنع صورة ، وتهويل لأمره ، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه « حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ » أى غلبتموهم ، وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم ، فصاروا فى أيديكم أسرى « فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ » بفتح الواو ، وقرىء بكسرها . وهو ما يوثق به ، أى يربط ويشد ، كالقيد والحبل . أى فأمسكوهم به كيلا يقتلوكم فيهربوا منكم « فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً » أى فإما تمنون بعد ذلك عليهم ، فتطلقونهم بغير عوض ، لزوال سبعيتهم ، وإما تفدون فداء ، فتطلقونهم بعوض مال، أو مسلم أسروه فيتقوى به المسلمون، أو يتخلص أسيرهم .

قال المهايمى : ولم يذكر القتل اكتفاء بما مر من قوله[1] (مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ) وذلك فيمن يرى فيه الإمام بقاء السبعية بالكمال. ولم يذكر الاسترقاق، لأنه فى معنى استدامة الأسر، وذلك فيمن يرى فيه نوع سبعية. ولا تزالوا كذلك «حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا» أى: إلى انقضاء الحرب و(الأوزار) كالأحمال وزناً ومعنى. استعير لآلات الحرب التى لاتقوم إلا بها، استعارة تصريحية أو مكنية، بتشبيهها بإنسان يحمل حملًا على رأسه أو ظهره ، وأثبت له ذلك تخييلًا . وقد جاء ذكرها فى قول الأعشى[2] :

وأعددتَ للحرب أوزارَها : رماحاً طِوالًا وخيلًا ذُكوراً

---

(١) [٨ / الأنفال / ٦٧] . (٢) البيت الرابع والأربعون من قصيدته التى مطلعها:

غَشيتَ لِليْلَى بِلَيْلٍ خُدُورَا وَطَالَبْتَهَا ونذرتَ النُّذُورَا

يمدح بها هوذة بن علىّ الحنفىّ .

وقيل : أوزارها آثامها . يعنى : حتى يترك أهل الحرب ـ وهم المشركون ـ شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا .

تنبيهات :

الأول ـ قال فى (الإكليل) : فى الآية بيان كيفية الجهاد .

الثانى ـ للسلف قولان فى أن الآية : منسوخة أو محكمة .

فروى عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسدّىّ أنها منسوخة بقوله تعالى [1] (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ) قالوا : فلم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة بعد براءة ، وانسلاخ الأشهر الحرم .

وروى عن ابن عمر وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز ، أن الآية محكمة ليست بمنسوخة ، وأنه لا يجوز قتل الأسير ، وإنما له المن أو الفداء .

ووجه من ذهب إلى الأول تعارض الآيتين عنده بادىء بدء ، فلم يبق إلا القول بإحداها وهى المطلقة .

ومدرك الثانى أن الأمر بقتلهم المجمل فى آيات ، محمول على المفصل فى مثل هذه الآية . أى إن القتل عند اللقاء ، ثم بعد انقضاء الحرب المن أو الفداء لا غير ، إلا أن تبدو مصلحة فى القتل ، فتلك من باب آخر .

وثم قول ثالث : وهو كون الآية محكمة مع تفويض الأمر إلى الإمام ، وأن ذكر المن والفداء لا ينافى جواز القتل ، لعلمه من آيات آخر ، لاسيما ومرجع الأمر إلى المصلحة . وهذا القول هو الذى أختاره . وإذا دار الأمر فى الآى بين الإحكام والنسخ ، فالأول هو المرجح . وقد لا يتعارض قول من قال بالنسخ مع الذاهب إلى الإحكام ، لما قدمناه فى مقدمة التفسير ، من تغاير اصطلاح السلف والأصوليين فى النسخ .

(١) [٩ / التوبة / ٥] .

ثم رأيت ابن جرير (١) سبقنى فى ترجيح ذلك ، وعبارته :

والصواب من القول عندنا فى ذلك ، أن هذه الآية محكمة غير منسوخة . وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ، أنه مالم يجز اجتماع حكميهما فى حال واحدة ، أو ما قامت الحجة بأن أحدهما ناسخ الآخر . وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار فى المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ ، وإلى القائمين بعده بأمر الأمة ، وإن لم يكن القتل مذكوراً فى هذه الآية ، لأنه قد أذن بقتلهم فى آية أخرى ، وذلك قوله تعالى (٢) (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) الآية . بل ذلك كذلك ، لأن رسول الله ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيراً فى يده من أهل الحرب، فيقتل بعضاً ، ويفادى ببعض ، ويمن على بعض ، مثل يوم بدر : قتل عقبة بن أبى معيط ، وقد أتى به أسيراً . وقتل بنى قريظة وقد نزلوا على حكم سعد ، وصاروا فى يده سلماً ، وهو على فدائهم والمنّ عليهم قادر . وفادى بجماعة ، أسارى المشركين الذين أسروا ببدر . ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفىّ ، وهو أسير فى يده . ولم يزل ذلك ثابتاً من سيره فى أهل الحرب ، من لدن أذن الله له بحربهم ، إلى أن قبضه إليه ﷺ دائماً ذلك فيهم . وإنما ذكر جل ثناؤه فى هذه الآية المنّ والفداء فى الأسارى ، فخص ذكرهما فيها ، لأن الأمر بقتلهم والإذن منه بذلك ، قد كان تقدم فى سائر آى تنزيله مكرراً ، فأعلَمَ نبيه صلى الله عليه وسلم بما ذكر فى هذه الآية من المن والفداء ، ماله فيهم مع القتل . انتهى كلام ابن جرير .

الثالث ـ من فوائد الآية أيضاً جواز تخلية سبيل المشركين ، إذا ضعفت شوكتهم ، وأمنت مفسدتهم ، لأن ذلك من لوازم المن وقبول الفداء . والقول بإبادة خضرائهم من غير تفصيل ، ينافيه نص هذه الآية ، وقبول النبىّ صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر وهم مشركون ، فتفهم .

(١) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٩ / التوبة / ٥] .

وبالجملة، فالذى عول عليه الأئمة المحققون رضى الله عنهم، أن الأمير يخيّر ، بعد الظفر تخيير مصلحة لا شهوة فى الأسراء المقاتلين ، بين قتل واسترقاق، ومنّ وفداء. ويجب عليه اختيار الأصلح للمسلمين ، لأنه يتصرف لهم على سبيل النظر ، فلم يجز له ترك ما فيه الحظ ، كولىّ اليتيم ، لأن كل خصلة من هذه الخصال قد تكون أصلح فى بعض الأسرى . فإن منهم من له قوة ونكاية فى المسلمين ، فقتله أصلح . ومنهم الضعيف ذو المال الكثير ، ففداؤه أصلح. ومنهم حسن الرأى فى المسلمين ، يرجى إسلامه ، فالمنّ عليه أولى . ومن ينتفع بخدمته ، ويؤمن شرّه ، استرقاقه أصلح ـ كما فى (شرح الإقناع) ـ .

الرابع ـ تُسَنُّ دعوة الكفار إلى الإسلام قبل القتال لمن بلغته الدعوة ، قطعاً لحجته . ويحرم القتال قبلها لمن لم تبلغه الدعوة ، لحديث (١) بُرَيْدَة بن الحُصَيْب قال : كان النبىّ ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أوجيش، أمره بتقوى الله تعالى فى خاصة نفسه، وبمن معه من المسلمين . وقال : إذا لقيت عدوّك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث ، فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم . فإن هم أبوا فادعهم إعطاء الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ـ رواه مسلم ـ .

وقيد الإمام ابن القيّم وجوب الدعوة واستحبابها، بما إذا قصدهم المسلمون . أما إذا كان الكفار قاصدين المسلمين بالقتال، فللمسلمين قتالهم من غير دعوة ، دفعاً عن نفوسهم وحريمهم وأمرُ الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، لأنه أعرف بحال الناس، وبحال العدوّ، ونكايتهم وقربهم وبعدهم ـ كما فى (شرح الإقناع) ـ .

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ » خبر لمحذوف . أى الأمر ذلك . أو مفعول لمقدّر «وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ » أى : لانتقم منهم بعقوبة عاجلة ، وكفاكم ذلك كله. « وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .

بَعْضَكُم بِبَعْضٍ » أى ليختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين فيثيبهم، ويبلوهم بكم، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم ، حتى ينيب إلى الحق . « وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ » أى استشهدوا . وقرئ (قاتلوا) « فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

[٦] (وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

« سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ » أى بيّنها لهم فى كثير من آياته ، تعريفاً يشوق كل مؤمن أن يسعى لها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » أى الظفر والتمكين فى الأرض ، وإرث ديار العدوّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ)

[٩] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ)

« وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ » أى خزياً وشقاء . وأصله من السقوط على الوجه ، كالكبّ . « وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ » أى جعلها على غير هدى واستقامة . « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ » أى من الحق ، وشايعوا ما ألفوه من الباطل . « فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ » كعبادتهم لأوثانهم ، حيث لم تنفعهم ، بل أوبقهم بها فأصلاهم سعيراً .

---

obeikandl.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » أى من الأمم المكذّبة رسلها ، الرادة نصائحها . « دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى ما اختص بهم ، وكان لهم . يقال : دمّره بمعنى أهلكه . ودمّر عليه : أهلك ما يختص به من المال والنفس . فالثانى أبلغ ، لما فيه من العموم ، لجعل مفعوله نسياً منسيًّا ، فيتناول نفسه وكل مايختص به . والإتيان بـ (على) لتضمنه معنى (أطبق عليه) أى أوقعه عليهم محيطاً بهم ، أو هجم الهلاك عليهم . « وَلِلْكَافِرِينَ » يعنى المكذبين رسول الله ﷺ « أَمْثَالُهَا » أى أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ)

[١٢] (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ)

« ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ » أى لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب ، إذا حاق بهم . « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ » أى غير مفكّرين فى المعاد ، ولا معتبرين بسنة الله ، كغفلة الأنعام عن النحر والذبح ، فلا همّ لهم إلا الاعتلاف دون غيره . « وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ » أى مأواهم بعد مماتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ)

[١٤] (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم)

« وَكَأَيِّن » أى : وكم « مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ » يعنى مكة ، على حذف مضاف « أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ * أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ » أى على برهان وحجة وبيان من أمر ربه ، والعلم بوحدانيته ، فهو يعبده على بصيرة منه. « كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ » أى فأراه إياه الشيطان حسنا ، فهو مقيم عليه. « وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ، فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ)

« مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ » أى متغيّر الريح « وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى » أى من القذى ، وما يوجد فى عسل الدنيا « وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ » أى من فرط حرارته .

لطيفة :

(مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ) مبتدأ خبره (كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ) بتقدير حرف إنكار ومضاف . أى : أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد . أو أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد . فلفظ الآية ، وإن كان فى صورة الإثبات ، هو فى معنى الإنكار والنفى ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار وانسحاب حكمه عليه ، وهو قوله : (أَفَمَن كَانَ ...) الخ، وليس فى اللفظ قرينة على هذا ، وإنما هو من السياق ، وإن فيه جزالة المعنى . وثم أعاريب أخر، هذا أمتنها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ، أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ)

« وَمِنْهُم » أى ومن هؤلاء الكفار « مَّن » أى كافر منافق « يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ » أى من الصحابة ، استهزاء بما سمعوه من المتلوّ، وتهاونا به « مَاذَا قَالَ ءَانِفًا » أى الساعة. هل فيه هدى؟ فإن بينوه لم يستفيدوا منه شيئاً . « أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » أى فلا يدخلها الهدى لإبائهم عنه « وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ » أى آراءهم ، لا مايدعو إليه البرهان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ)

« وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ » أى باتباع الحق ، والمشى مع الحجة « زَادَهُمْ هُدًى » أى بيانا لحقيقة ماجاءهم « وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ » أى أعانهم عليها . أو آتاهم جزاء تقواهم . أو بيّن لهم ما يتقون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ، فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ، فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ)

« فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا » قال ابن كثير : أى أمارات اقترابها ، كقوله تبارك وتعالى(١) (هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ * أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ) وكقوله جلت عظمته(٢) (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ) وقوله سبحانه وتعالى(٣) (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقوله جل وعلا(٤) (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) . فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل ، الذى أكمل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين . وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه ، بما لم يؤته نبىّ قبله ، كما هو مبسوط فى موضعه .

وقال الحسن البصرىّ : بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة ، وهو كما قال . ولهذا جاء فى أسمائه ﷺ أنه نبىّ التوبة ، ونبىّ الملحمة ، والحاشر الذى تحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذى ليس بعده نبى .

روى البخارىّ(٥) عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا ـ بالوسطى والتى تليها ـ : بعثت أنا والساعة كهاتين .

« فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ » أى ذكرى ماقد ضيعوا وفرّطوا فيه من طاعة الله إذا جاءتهم الساعة . يعنى : أن ليس ذلك بوقت ينفعهم فيه التذكر والندم ، لأنه وقت مجازاة ، لا وقت استعتاب واستعمال .

(١) [٥٣ / النجم / ٥٦ و ٥٧] . (٢) [٥٤ / القمر / ١] .

(٣) [١٦ / النحل / ١] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ١] .

(٥) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٣٩ ـ باب قول النبىّ ﷺ (بعثت أنا والساعة كهاتين) حديث رقم ٢٠٦٨

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾

«فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ» قال ابن جرير(١): أى فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغى أو تصلح له الألوهة ويجوز لك وللخلق عبادته ، إلا الله الذى هو خالق الخلق ، ومالك كل شىء . يدين له بالربوبية كل ما دونه . والفاء فصيحة فى جواب شرط معلوم ، مما مر من أول السورة إلى هنا ، من حال الفريقين .

قال السيوطىّ : وقد استدل بالآية من قال بوجوب النظر ، وإبطال التقليد فى العقائد ، ومن قال بأن أول الواجبات ، المعرفةُ قبل الإقرار .

«وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» قال ابن جرير(٢) : أى وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها ، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء .

قال الشهاب: وإنما أعيد الجار ، لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنب النبىّ ﷺ، فإن ذنوبهم معاص كبائر وصغائر ، وذنبه ترك الأَوْلى .

وقال السيوطىّ : استدل بالآية من أجاز الصغائر على الأنبياء . انتهى .

والمسألة مبسوطة بأقوالها ، وما لها وما عليها فى (الفِصَل) لابن حزم . فارجع إليه .

وفى الصحيح(٣) أن رسول الله ﷺ كان يقول: اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى

(١) انظر الصفحة رقم ٥٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٥٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى: ٨٠ـ كتاب الدعوات ، ٦٠ ـ باب قول النبىّ ﷺ (اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت) حديث رقم ٢٤٠٤ ، عن أبى موسى الأشعرىّ .

فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى هزلى وجدى ، وخطاياى وعمدى ، وكل ذلك عندى .

وفى الصحيح(١) أنه كان يقول فى آخر الصلاة : اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى . أنت إلهى لا إله إلا أنت .

وفى الصحيح(٢) أنه قال : يا أيها الناس ! توبوا إلى ربكم ، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة .

« وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ » أى متصرفكم فيما تتصرفون فيه ، وإقامتكم على ما تقيمون عليه من الأقوال والأعمال ، فيجازيكم عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ، فَأَوْلَىٰ لَهُمْ)

« وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ » أى تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار . « فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ » أى مبيّنة لا تقبل نسخاً ولا تأويلاً ، « وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ » أى الأمر بقتال المشركين « رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى : شك فى الدين وضعف فى اليقين « يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ » أى من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . شبه نظرهم بنظر المحتضر الذى لا يطرف بصره

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ١ ـ باب التهجد بالليل ، حديث رقم ٦١٣ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٣ ـ باب استغفار النبىّ ﷺ فى اليوم والليلة ، حديث ٢٣٩٠ ، عن أبى هريرة .

« فَأَوْلَىٰ لَهُمْ » قال الشهاب : اختلف فيه ، بعد الاتفاق على أن المراد به التهديد والوعيد ، على أقوال :

فذهب الأصمعىّ إلى أنه فعل ماض بمعنى قارب . وقيل : قرّب بالتشديد ، ففاعله ضمير يرجع لما علم منه ، أى : قارب هلاكهم . والأكثر أنه اسم تفضيل من الولى ، بمعنى القرب. وقال أبو علىّ : إنه اسم تفضيل من الويل . والأصل (أويل) فقلب ، فوزنه أفلع . وردّ بأن الويل غير متصرف ، وأن القلب خلاف الأصل ، وفيه نظر . وقد قيل : إنه فَعلى ، من آل يؤول . وقال الرضى : إنه علم للوعيد ، وهو مبتدأ و (لهم) خبره . وقد سمع فيه (أولاة) بتاء تأنيث . وهو كما قيل ، يدل على أنه ليس بأفعل تفضيل ، ولا أفعل فُعلى ، وأنه علم وليس بفعل ، بل مثل أرمل وأرملة ، إذا سمى بهما ، فلذا لم ينصرف . ولا اسم فعل ، لأنه سمع فيه (أولاةُ) معربا مرفوعا ، ولو كان اسم فعل بنى . وفيه أنه لا مانع من كون (أولاة) لفظا آخر بمعناه ، فلا يرد شىء منـــه عليهم أصلا ، كما جاء (أوّل) أفعل تفضيل ، واسم ظرف كـ (قبل) وسمع فيه (أوّلة) ـ كما نقله أبو حيان ـ فلا يرد النقض به كما لا يخفى . انتهى .

قال السمين : إذا قلنا باسميته . ففيه أوجه :

أحدها ـ أنه مبتدأ ، و (لهم) خبره ، تقديره : فالهلاك لهم .

والثانى ـ أنه خبر مبتدأ مضمر ، تقديره : العقاب أو الهلاك أولى لهم ، أى أقرب وأدنى، ويجوز أن تكون اللام بمعنى الباء . أى أولى وأحق بهم .

الثالث ـ أنه مبتدأ ، و (لهم) متعلق به ، واللام بمعنى الباء ، و (طاعة) خبره ، والتقدير : فأولى بهم طاعة دون غيرها ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى

[٢١] (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ)

« طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ » فيه أوجه :

أحدها ـ أنه خبر (أولى) على ما تقدم .

الثانى ـ أنها صفة السورة . أى : فإذا أنزلت سورة محكمة طاعة ، أى : ذات طاعة ، أو مطاعة . ذكره مكىّ وأبو البقاء . وفيه بعد ، لكثرة الفواصل .

الثالث ـ أنها مبتدأ ، و (قول) عطف عليها ، والخبر محذوف . تقديره : أمثل بكم من غيرها . وقدره مكىّ : منا طاعة ، فقدّره مقدماً .

الرابع ـ أن يكون خبر مبتدأ محذوف . أى أمرنا طاعة .

الخامس ـ أن (لهم) خبر مقدم و (طاعة) مبتدأ مؤخر . والوقف والابتداء يعرفان مما قدمته ، فتأمل ـ أفاده السمين ـ .

« فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ » أى : جدّ الحال ، وحضر القتال : قال أبو السعود : أسند العزم ، وهو الجد ، إلى الأمر ، وهو لأصحابه ، مجازاً . كما فى قوله (1) تعالى (إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ) وعامل الظرف محذوف . أى خالفوا وتخلفوا . وقيل ناقضوا . وقيل : كرهوا . وقيل : هو قوله تعالى « فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ » على طريقة قولك : إذا حضرنى طعام ، فلوجئتنى لأطعمتك . أى : فلو صدقوه تعالى فيما قالوه من الكلام المنبىء عن الحرص على الجهاد ، بالجرى على موجبه « لَكَانَ » أى الصدق « خَيْرًا لَّهُمْ » أى فى عاجل دنياهم ، وآجل معادهم . وقيل : فلو صدقوه فى الإيمان ، وواطأت قلوبهم فى ذلك ألسنتهم . وأيًّا ما كان ، فالمراد بهم الذين فى قلوبهم مرض ، وهم المخاطبون بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ)

« فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ » أى أعرضتم عن تنزيل الله تعالى ، وفارقتم أحكام كتابه ، وماجاءبه رسوله « أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ » أى بالتغاور والتناهب « وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ »

(1) [٣١ / لقمان / ١٧] .

أى تعودوا لما كنتم عليه فى جاهليتكم من التشتت والتفرق ، بعد ما جمعكم الله بالإسلام ، وألف به بين قلوبكم ، وأمركم بالإصلاح فى الأرض ، وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والأفعال ، وبذل الأموال . وقد ساق ابن كثير هنا من الأحاديث فى صلة الرحم لباب اللباب .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٣] ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾

« أُوْلَـٰٓئِكَ » إشارة إلى المذكورين « ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ » أى عن استماع الحق لتصامّهم عنه بسوء اختيارهم « وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ » أى لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ » قال ابن جرير(١) : أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التى يعظهم بها فى آى القرآن الذى أنزله على نبيه عليه السلام ، ويتفكرون فى حججه التى بينها لهم فى تنزيله ، فيعلموا بها خطأ ماهم عليه مقيمون . « أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ » أى فلا يصل إليها ذكر ، ولا ينكشف لها أمر . وتنكير (القلوب) للإشعار بفرط جهالتها ونُكرها ، كأنها مبهمة منكورة . و (الأقفال) مجاز عما يمنع الوصول . وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميز لها عما عداها ؛ وللإشارة إلى أنها لا تشبه الأقفال المعروفة، إذ لا يمكن فتحها أبداً .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

obeikandi.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم » أى عادوا لما كانوا عليه من الكفر « مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى » أى الحق بواضح الحجة .

« ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ » أى زين لهم ارتدادهم وحملهم عليه « وَأَمْلَىٰ لَهُمْ » أى ومدّ لهم فى الآمال والأمانىّ ، أو أمهلهم الله تعالى ، فمد فى آجالهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة . والمعنى: الشيطان سول لهم ، والله أملى لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم ، « بِأَنَّهُمْ » أى بسبب أنهم «قَالُوا۟» أى المنافقون « لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ » أى لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ « سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ » أى بعض أموركم ، أو ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد ، والتظاهر على الرسول ، أو الخروج معهم إن أخرجوا ، كما أوضح ذلك قوله تعالى[(١)] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ) وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادّونهم .

« وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ » أى : إخفاءهم لما يقولونه لليهود .

---

(١) [٥٩ / الحشر / ١١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ)

[٢٨] (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ)

« فَكَيْفَ » أى : يفعلون ويدفعون ضرر الردة عليهم « إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ » أى : التى ولوها عن الله إلى أعدائه « وَأَدْبَٰرَهُمْ » أى التى ولوها عن الأعداء إلى الله .

« ذَٰلِكَ » أى التوفى الهائل « بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ » أى من إطاعة أعدائه، « وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ » أى فى معاداتهم ، فأدى بهم إلى الردة « فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ » أى التى كانت تفيدهم النجاة من ذلك الضرب ، ومن الفضائح الدنيوية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ)

« أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى نفاق تفرع منه أضغان على رسول الله ﷺ والمؤمنين « أَن لَّن يُخْرِجَ » أى يظهر « ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ » أى أحقادهم لرسوله والمؤمنين ، فتبقى أمورهم مستورة . والمعنى : أن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ)

[٣١] (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ)

« وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ » أى لعرّفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية

« فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ » أى بعلاماتهم التى نسمهم بها « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ » أى أسلوبه وما يرومون من غير إيضاح به .

قال فى (الإكليل) : استدل بالآية من جعل التعريض بالقذف موجباً للحد .

« وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ » أى فيجازيكم بحسب قصدكم .

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ » أى أهل المجاهدة فى سبيل الله ، والصبر على المشاق « وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ » أى أفانين أقوالكم ، وضروب بياناتكم ، وأعمال قوة ألسنتكم فى نشر الحق والصدع به والدأب عليه ، هل هو متمحض لذلك ، أم فيه ما فيه من المحاباة خيفة لوم اللائم .

قال القاشانىّ : علمُ الله تعالى قسمان : سابقٌ على معلوماته إجمالًا فى لوح القضاء ، وتفصيلًا فى لوح القدر ، وتابع إياها فى المظاهر التفصيلية من النفوس البشرية ، والنفوس السماوية الجزئية . فمعنى (حَتَّىٰ نَعْلَمَ) حتى يظهر علمنا التفصيلىّ فى المظاهر الملكوتية والإنسية ، التى يثبت بها الجزاء ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ » أى فتذهب سدى ، لا تثمر لهم نفعاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ)

[٣٤] (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ » أى لكن يعذبهم ويعاقبهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ)

« فَلَا تَهِنُواْ » أى فلا تضعفوا أيها المؤمنون بالله عن جهاد الذين اعتدوا عليكم، وصدوا عن سبيل الله ، « وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ » أى الصلح والمسالمة « وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ » أى الأغلبون ، فإن كسح الضلال من طريق الحق لامنتدح عنه ، ماتيسرت أسبابه ، وقهرت أربابه « وَٱللَّهُ مَعَكُمْ » أى بنصره ماتمسكتم بحبله « وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ » أى لن ينقصكم ثوابها ويضيعها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ)

« إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ » أى فلا تدعكم الرغبة فى الحياة إلى ترك الجهاد « وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ » أى ثواب إيمانكم وتقواكم « وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ » أى لأنه غنى عنكم ، وإنما يريد منكم التوحيد ، ونبذ الأوثان ، والطاعة لما أمر به ، ونهى عنه .

obeikandi.com

قال بعض المفسرين : أى لايسألكم جميع أموالكم ، بل يقتصر منكم على جزء يسير ، كربع العشر وعشره . إشارة إلى إفادة الجمع المضاف للعموم ، وهو معطوف على الجزاء . والمعنى : إن تؤمنوا لايسألكم الجميع ، أى : لايأخذه منكم ، كما يأخذ من الكفار جميع أموالهم . ولا يخفى حسن مقابلته لقوله (يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ) أى يعطكم كل الأجور ، ويسألكم بعض المال ـ هذا ماقاله الشهاب ـ .

والظاهر أن المراد بيان غناه تعالى عن عباده، وأن طلب إنفاق الأموال منهم، لعود نفعه إليهم لا إليه ، لاستغنائه المطلق ، فإن فى الصدقات دفع أحقاد صدور الفقراء عنهم، وفى بذله للجهاد دفع غائلة الشرور والفساد ، وكله مما يعود ثمرته عليهم .

ثم أشار تعالى إلى حكمته ورحمته فى عدم سؤاله إنفاق أموالهم كلها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ)

« إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا » أى فيجهدكم بالمسألة ، ويلح عليكم بطلبها منكم ، تبخلوا بها وتمنعوها ، ضناً منكم بها ، ولكنه علم ذلك منكم، ومن ضيق أنفسكم ، فلم يسألكموها .

قال الزمخشرى : الإحفاء المبالغة ، وبلوغ الغاية فى كل شىء . يقال (أحفاه فى المسألة) إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح . و (أحفى شاربه) إذا استأصله .

« وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ » أى أحقادكم ، وكراهتكم لدين يذهب بأموالكم . وضمير (يخرج) لله تعالى ، ويعضده القراءة بنون العظمة . أو للبخل لأنه سبب الأضغان . وقرئ (يخرج) من الخروج ، بالياء والتاء ، مسنداً إلى الأضغان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ، وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ، وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ ، وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ، وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم)

« هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى فى جهاد أعدائه، ونصرة دينه « فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ » أى بالنفقة فيه . « وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ » أى يمسكه عنها ، لأنه يحرمها الأجر ، ويكسبها الوزر « وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ » أى : عن كل ما سواه ، وكلُّ شيء فقير إليه . ولهذا قال سبحانه « وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ » أى بالذات إليه . فوصفُه بالغنى وصف لازم له ، ووصفُ الخلق بالفقر وصف لازم لهم ، لاينفكون عنه ، أى وإذا كان كذلك ، فإنما حضكم فى النفقة فى سبيله ليكسبكم بذلك ، الجزيلَ من ثوابه . وليعلم أن سبيل الله يشمل كل مافيه نفع وخير، وفائدة وقربة ومثوبة. وإنما اقتصر المفسرون على الجهاد لأنه فرده الأشهر ، وجزئيّه الأهم ، وقت نزول الآيات ، وإلا فلا ينحصر فيه .

« وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ » أى عما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم « يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » أى يهلككم ثم يأتى بقوم آخرين غيركم ، بدلًا منكم ، يؤمنون به ، ويعملون بشرائعه .

« ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُمْ » أى لايبخلوا بما أُمروا به من النفقة فى سبيل الله ، ولا يضيعون شيئًا من حدود دينهم ، ولكنهم يقومون بذلك كله ، على مايؤمرون به .

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٨ - سورة الفتح

سميت به لدلالتها على فتح البلاد والحجج والمعجزات والحقائق ، وقد ترتب على كل واحد منها المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر العزيز . وكل هـذه أمور جليلة ـ أفاده المهايمىّ ـ .

وآيها تسع وعشرون ، وهى مدنية . نزلت مرجعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية سنة ست من الهجرة ، عِدَةً له بالفتح . قال أنس: لما رجعنا من الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نسكنا ، فنحن بين الحزن والكآبة، فنزلت. واختلف فى المكان الذى نزلت فيه، فوقع عند محمد بن سعد (بضَجْنان) وهى بفتح المعجمة وسكون الجيم ونون خفيفة . وعند الحاكم فى ـ الإكليل ـ بكراع الغميم . وعن أبى معشر (بالجحفة) .

قال الحافظ ابن حجر : والأماكن الثلاثة متقاربة . وروى البخارىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال ـ وهو فى بعض أسفاره ـ لعمر : لقد أنزلت علىّ الليلةَ سورة، لهى أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن مغفّل قال : قرأ النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة سورة الفتح ، فرجّع فيها .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا)

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا » قال الرازىّ : فى الفتح وجوه :

أحدها ـ فتح مكة ، وهو ظاهر .

وثانيها ـ فتح الروم وغيرها .

وثالثها ـ المراد من الفتح ، صلح الحديبية .

ورابعها ـ فتح الإسلام بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان .

وخامسها ـ المراد منه الحكم ، كقوله (١) (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ) ، وقوله (٢) (ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ) . انتهى .

ولا يخفى أن الوجوه المذكورة كلها ، مما يصدق عليها الفتح الربانىّ ، وجميعها مما تحقق مصداقه . إلا أن سبب نزول الآية ، الذى حفظ الثقات زمنه ، يبين المراد من الفتح بياناً لاخلاف معه ، وهو أنه الوجه الثالث المذكور .

قال الإمام ابن كثير : نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية ، فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ، ليقضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ، ثم يأتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك ، على تكرّهٍ من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهم ، كما سيأتى تفصيله فى موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى . فلما نحر ﷺ هديه حيث أُحْصِرَ ورجع، أنزل الله عز وجل

(١) [٧ / الأعراف / ٨٩] . (٢) [٣٤ / سبأ / ٢٦] .

هذه السورة ، فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً ، باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه ، كما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية . وعن جابر رضى الله عنه قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية . روى البخارىّ (١) عن البراء رضى الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان ، يوم الحديبية .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : نزلت على النبىّ ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) مرجعه من الحديبية . قال النبى صلى الله عليه وسلم : لقد أنزلت علىّ آية أحب إلىّ مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ أخرجاه فى الصحيحين (٢) من رواية قتادة به ـ .

وروى الإمام أحمد (٣) عن مجمّع بن جارية الأنصارىّ رضى الله عنه ـ وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن ـ قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها ، إذا الناس ينفرون الأباعر. فقال الناس بعضهم لبعض : ماللناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نرجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) .

قال ، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى رسولَ الله ! أو فتح هو؟ قال صلى الله عليه وسلم : إى والذى نفس محمد بيده ! إنه لفتح . ورواه أبو داود فى الجهاد.

ثم قال ابن كثير : فالمراد بقوله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) ـ أى بينا ظاهراً ـ هو صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان . انتهى .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٦

(٢) أخرجه مسلم فى : ٣٢ ـ كتاب الجهاد ، حديث ٩٧ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

وقال الإمام ابن القيّم في (زاد المعاد) في الكلام على ما في غزوة الحديبية من الفقه واللطائف ، ما مثاله :

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ، أَمِنَ الناس به ، وكلّم بعضهم بعضاً ، وناظره في الإسلام ، وتمكّن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه ، والدعوة إليه ، والمناظرة عليه ، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام . ولهذا سماه الله فتحاً في قوله (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً) نزلت في الحديبية ، فقال عمر : يارسول الله! أو فتح هو؟ قال : نعم . وأعاد سبحانه ذكر كون ذلك فتحاً قريباً . وهذا شأنه سبحانه أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها ، المنبئة لها وعليها ، كما قدم بين يدي قصة المسيح وخلقه من غير أب ، قصة زكريا ، وخلق الولد له ، مع كونه كبيرًا ، لا يولد لمثله . وكما قدم بين يدي نسخ القبلة ، قصة البيت وبنائه وتعظيمه والتنويه به ، وذكر بانيه، وتعظيمه ومدحه. ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ وحكمته المقتضية له ، وقدرته الشاملة له. وهكذا ما قدم بين يدي مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من قصة الفيل ، وبشارات الكهان به ، وغير ذلك. وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مقدمة بين يدي الوحي في اليقظة. وكذلك الهجرة، كانت مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد. ومن تأمّل أسرار الشرع والقدر ، رأى من ذلك ما تبهر حكمته أولي الألباب . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا)

« لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ » قال أبو السعود : غاية للفتح ، من حيث أنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام في إعلاء كلمة الله تعالى، بمكابدة مشاقّ الحروب، واقتحام موارد الخطوب.

« مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » أى جميع مافرط منك ، من ترك الأَوْلى . وتسميته ذنباً ، بالنظر إلى منصبه الجليل .

قال ابن كثير : هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم التى لايشاركه فيها غيره . وليس فى حديث صحيح فى ثواب الأعمال كغيره ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع أموره على الطاعة والبرّ والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه ، لامن الأولين ، ولا من الآخرين . وهو صلى الله عليه وسلم أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم فى الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله تعالى لله، وأشدهم تعظيما لأوامره ونواهيه ، قال حين بركت به الناقة : حبسها حابس الفيل . ثم قال صلى الله عليه وسلم: والذى نفسى بيده ! لايسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها، فلما أطاع الله فى ذلك ، وأجاب إلى الصلح ، قال الله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ...) الآيات .

وقوله تعالى « وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ » أى بإظهاره إياك على عدوّك ، ورفعه ذكرك . « وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا » أى ويرشدك طريقاً من الدين لا عوج فيه. قال أبو السعود: أصل الاستقامة، وإن كانت حاصلة قبل الفتح، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه ، ما لم يكن حاصلًا قبلُ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)

« وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا » أى قويًّا منيعاً ، لا يغلبه غالب ، ولا يدفعه دافع ، للبأس الذى يؤيدك الله به ، والظفر الذى يمدك به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى السكون والطمأنينة إلى الإيمان والحق . « لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ » أى يقينا منضما إلى يقينهم .

قال القاشانىّ : السكينة نور فى القلب يسكن به إلى شاهده ويطمئن . وهو من مبادئ عين اليقين ، بعد علم اليقين ، كأنه وجدانٌ يقينىّ معه لذة وسرور .

« وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى أنصار ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه .

« وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » أى فى تقديره وتدبيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا)

واللام فى قوله تعالى « لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا » متعلق بمحذوف ، نحو : أمر بالجهاد ليُدخل . . . الخ . أو دبّر ما دبّر مما ذكر لذلك ، أو متعلق بـ (فَتَحْنَا) على تعلق الأول به مطلقاً ، وهذا مقيداً ، أو بقوله (لِيَزْدَادُوٓا۟) . «وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيماً».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ، وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَآءَتْ مَصِيرًا)

« وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ » أى ظن الأمر السوء ، وهو أن لا ينصر تعالى رسوله والمؤمنين . « عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ » أى بالتعذيب فى الدنيا بأنواع الوقائع، كالقتل والإهانة والإذلال . وقرئ (دَآئِرَةُ ٱلسُّوءِ) بالضم ، وهما لغتان من (ساء) كالكُرْه والكَرْه . « وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ » أى بالقهر والحجب . « وَلَعَنَهُمْ » أى بالطرد والإبعاد فى الآخرة . « وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » قيل فى سر التكرير: إنه ذكر سابقاً على أن المراد به أنه المدبر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته ، فلذلك ذيله بقوله (عَلِيمًا حَكِيمًا) ، وهنا أريد به التهديد بأنهم فى قبضة قدرة المنتقم ، فلذا ذيله بقوله (عَزِيزًا حَكِيمًا) فلا تكرار . وقيل : إن الجنود جنود رحمة ، وجنود عذاب ، وأن المراد هنا الثانى ، ولذا تعرّض لوصف العزة . وقال القاشانىّ : كررها ليفيد تغليب الجنود الأرضية على السماوية فى المنافقين والمشركين ، بعكس ما فعل بالمؤمنين . وبدّل (عَلِيمًا) بقوله (عَزِيزًا) ليفيد معنى القهر والقمع ، لأن العلم من باب اللطف ، والعزة من باب القهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

« إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا » أى على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه « وَمُبَشِّرًا » أى لمن استجاب لك بالجنة « وَنَذِيرًا » أى لمن خالفك بالنار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (لِّتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

« لِّتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ » أى تؤيدوا دينه وتقرّوه «وَتُوَقِّرُوهُ »أى تعظّموه « وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » أى غدوة وعشيا ـ على ظاهره ـ أودائما ، بجعل طرفى النهار كناية عن الجميع ، كما يقال (شرقا وغربا) لجميع الدنيا . والضمائر كلها ـ على ما ذكرنا ـ لله ، وجوّز إعادة الأولين للرسول ، والأخير لله إلا أن فيه تفكيكا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ » أى على قتال قريش تحت الشجرة ، وأن لا يفرّوا عند لقاء العدوّ ، ولا يولوهم الأدبار . « إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ » أى لأن عقد الميثاق مع رسول الله ، كعقده مع الله ، من غير تفاوت ، لأن المقصود من توثيق العهد مراعاة أوامره تعالى ونواهيه. « يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » تأكيد لما قبله . أى أن يد الله عند البيعة فوق أيديهم، كأنهم يبايعون الله ببيعتهم نبيه ﷺ . وقال القاشانىّ : أى قدرته البارزة فى يد الرسول، فوق قدرتهم البارزة فى صور أيديهم ، فيضرهم عند النكث ، وينفعهم عند الوفاء .

« فَمَن نَّكَثَ » أى نقض عهده « فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ » أى لعود ضرر ذلك عليه خاصة . « وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » وهو الجنة .

تنبيه :

هذه البيعة هى بيعة الرضوان . وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية . وكان الصحابة الذين

بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ ألفاً وأربعمائة ، وقيل : وثلاثمائة ، وقيل : خمسمائة . والأول أصح ـ على ما قاله ابن كثير ـ وقد اقتص سيرتها غير واحد من الأئمة . ولما كانت هذه السورة الجليلة كلها فى شأنها ، لزم إيرادها مفصلة .

قال ابن إسحاق : خرج النبيّ ﷺ فى ذى القعدة معتمرًا ، لا يريد حرباً . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدُّوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ، ومعظماً له .

وقال الإمام ابن القيّم : قصة الحديبية كانت سنة ست فى ذى القعدة . وكان معه ألف وخمسمائة . هكذا فى الصحيحين [1] عن جابر . وفيهما [2] عن عبد الله بن أبى أوفى : كنا ألفاً وثلاثمائة . وعن جابر فيهما [3] : كانوا ألفاً وأربعمائة ـ والقلب إلى هذا أميل ـ وهو قول البراء بن عازب ، ومعقل بن يسار ، وسلمة بن الأكوع . ثم لما كانوا بذى الحليفة قلّد رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدى وأشعر وأحرم بالعمرة ، وبعث عيناً له بين يديه من خزاعة ، يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان ، أتاه عينه فقال : إنى تركت كعب بن لؤىّ ، قد جمعوا لك الأحابيش [4] ، وجمعوا لك جموعا ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت . واستشار النبيّ ﷺ أصحابه وقال : أترون أن نميل إلى ذرارىّ هؤلاء

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية ، حديث ١٨٩٤

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٣٥ ـ باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥

(٤) الأحابيش : أحياء من العرب حالفوا قريشاً ، وتجمعوا معهم .

الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين[١] محزونين ، وإن نجوا يكن عُنُق[٢] قطعها الله ؟ أم ترون أن نؤم البيت ، فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ قال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ! إنما جئنا معتمرين ، ولم نجيء لقتال أحد . ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: فروحوا إذن . فراحوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: إن خالد بن الوليد بالغميم[٣]، في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين، فوالله! ماشعر بهم خالد حتى إذا هو بغترة الجيش. فانطلق يركض نذيرا لقريش. وسار النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالثنيَّة التي يهبط عليهم، بركت راحلته. فقال الناس: حَلْ حَلْ[٤]، فألحّت[٥] : فقالوا : خلأت[٦] القصواء! خلأت القصواء ! فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: ما خلأت القصواء ، وماذاك لها بخُلُق ، ولكن حبسها حابس الفيل ! ثم قال : والذى نفسي بيده ! لايسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتموها. ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد[٧] قليل الماء إنما يتبرضه[٨] الناس تبرضا ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش ، فانتزع سهما من كنانته[٩]، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه . قال ، فوالله ! ما زال يجيش لهم بالريّ[١٠] ، حتى صدروا عنه . وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم ، فقال : يارسول الله! ليس لي بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوذيت ، فأرسلْ عثمان بن عفان فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت . فدعا

(١) الموتور : من قتل له قتيل ، فلم يدرك بدمه . (٢) العُنُق : الجماعة من الناس .

(٣) وادٍ بمرحلتين من مكة . (٤) كلمة زجر لبعث البعير على السير .

(٥) أي لزقت مكانها . (٦) أي حرَنت .

(٧) الثمد : بالتحريك الماء القليل . ولعل المراد به هنا محله ، ليحسن وصفه بقلة الماء .

(٨) أي يأخذونه قليلًا قليلًا. (٩) وعاء من جلد يكون فيه النشاب .

(١٠) أي يفور ماؤه ويرتفع .

رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمّارا ، وادعهم إلى الإسلام . وأَمَرَه أن يأتي رجالا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهرٌ دينَه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان . فانطلق عثمان ، فمر على قريش ببلدح[1] ، فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، ونخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمّاراً . فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك . وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحب به ، وأسرج فرسه . فحمل عثمانَ على الفرس وأجاره ، وأردفه أبان حتى جاء مكة . وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ! فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله ، وقد خلص قال : ذاك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معاً . واختلط المسلمون بالمشركين فى أمر الصلح ، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الآخر ، وكانت معركة ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم . وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قد قتل . فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه وقال : هذه عن عثمان . ولما تمت البيعة رجع عثمان . فقال له المسلمون : اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ؟ فقال : بئس ما ظننتم بى ! والذى نفسى بيده ! لو مكثت بها سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية ، ما طفت بها ، حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد دعتنى قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت ! فقال المسلمون : رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظناً . وكان عمر أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم للبيعة تحت الشجرة ، فبايعه المسلمون كلهم ، إلا الحرّ بن قيس ،

(١) موضع قرب مكة .

وكان معقل بن يسار آخذا بغصنها يرفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدىّ ، وبايعه سَلَمة بن الأكوع ثلاث مرات ، فى أول الناس وأوسطهم وآخرهم . فبينا هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعيّ فى نفر من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح(١) رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إنى تركت كعب بن لؤىّ وعامر بن لؤىّ نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل(٢) ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نجىء لقتال أحد . ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم : فإن شاؤوا أماددهم ويخلّوا بينى وبين الناس . وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جمّوا . وإن أبوا إلا القتال ، فوالذى نفسى بيده ! لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره قال بديل : سأبلغهم ما تقول . فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إنى قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قولًا ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشىء . وقال ذوو الرأى منهم : هات ما سمعته . قال سمعته يقول كذا وكذا . فقال عروة بن مسعود الثقفىّ : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعونى آته . فقالوا : ائته . فأتاه ، فجعل يكلمه . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبديل . فقال له عروة عند ذلك : أى محمد ! أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن أخرى ، فوالله إنى لأرى وجوهاً ، وأرى أوشابا من الناس ، خليقاً أن يفروا ويدعوك ! فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه ! قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذى نفسى بيده ! لولا يد كانت لك عندى لم أجْزِك بها ، لأجبتك ! وجعل يكلم

---

(١) يعنى : خاصته وموضع نصحه . كنى بها عن القلوب والصدور التى هى مواضع النصح ، تشبيها لها بالعياب التى يستودع فيها الثياب .

(٢) أى الإبل مع أولادها . والمطفل : الناقة القريبة العهد بالنتاج مع طفلها .

النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكلما كلمه أخذ بلحيته . والمغيرة بن شعبة على رأس النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه السيف ، وعليه المغفر . فكلما أهوى عروة إلى لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال : أخّر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . فقال : أى غُدَر ! أو لست أسعى فى غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً فى الجاهلية . فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شىء .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ . فو الله ! ما تنخم النبيّ ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها جلده ووجهه ، وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيماً له . فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم ! لقد وفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشىّ ، والله ما رأيت ملكاً يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمدًا . والله ! إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له . وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . فقال رجل من بنى كنانة : دعونى آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا فلان ، وهو من قوم يعظّمون البُدْن ، فابعثوها له ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبّون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ! ما ينبغى لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت ، فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البُدْن قد قُلّدت وأُشعرت ، وما أرى أن يصدوا عن البيت . فقام مكرز بن حفص ، فقال : دعونى آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف عليهم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : هذا مكرز بن حفص ، وهو رجل فاجر فجعل يكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا هو يكلّمه ، إذ جاء سهيل بن عمرو ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم :

قد سهل لكم من أمركم، فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا. فدعا الكاتب، فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : أما الرحمن ، فوالله ماندرى ما هو ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبيّ ﷺ : اكتب : باسمك اللهم . ثم قال : اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : فوالله ! لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبيّ ﷺ : إنى رسول الله وإن كذبتمونى ! اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبيّ ﷺ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل : والله ! لا تتحدث العرب أننا أُخِذْنا ضغطةً ، ولكن لك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا . فقال المسلمون سبحان الله ! كيف يرد إلى المشركين ، وقد جاء مسلماً ؟ ! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل ابن سهيل يرسف فى قيوده ، قد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين . فقال سهيل : هذا يا محمد أول من قاضيتك عليه أن ترده ، فقال النبيّ ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد ، فقال : فوالله ! إذن لا أصالحك على شيء أبداً . فقال النبيّ ﷺ : فأجره لى قال : ما أنا بمجيره لك ، قال : بلى ، فافعل . قال ما أنا بفاعل . قال مكرز : قد أجزناه لك. فقال أبو جندل : يامعشر المسلمين ! أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ، ألا ترون مالقيت ـ وكان قد عذب عذاباً شديداً فى الله ـ قال عمر بن الخطاب : والله ! ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ ، فأتيت النبيّ ﷺ فقلت : يارسول الله ! ألست نبيّ الله ؟ قال : بلى ! قلت : ألسنا على الحق ، وعدوّنا على الباطل؟ قال : بلى ! فقلت : على مَ نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟ فقال : إنى رسول الله، وهو ناصرى، ولست أعصيه. قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ! أفأخبرتك أنك تأتيه العامَ ؟ قلت : لا ! قال : فإنك آتيه ، وتطوف به ! قال فأتيت أبا بكر ، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ ، وردّ عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد : فاستمسك بغرزه حتى تموت

فوالله ! إنه لعلى الحق . قال عمر : فعملت لذلك أعمالا . فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ : قوموا وانحروا ثم احلقوا ، فوالله ! ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سَلَمة ، فذكر لها ما لقى من الناس، فقالت أم سلمة : يارسول الله ! أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بُدنك ، وتدعو حالقك فيحلق لك . فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم ، حتى فعل ذلك : نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا . ثم جاءت نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عزوجل:[1] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ) حتى بلغ (بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك . فتزوج إحداهما معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية .

ثم رجع إلى المدينة ، وفى مرجعه أنزل الله عليه : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . .) الآيات . فقال عمر : أفتحٌ هو يارسول الله ؟ قال : نعم ! فقال الصحابة : هنيئاً لك يارسول الله ! فمالنا ! فأنزلنا الله عزوجل[2] (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...) الآية . ولما رجع إلى المدينة جاءه أبو بصير ـ رجل من قريش ـ مسلماً ، فأرسلوا فى طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذى جعلت لنا ! فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به، حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنى لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الآخر، فقال : أجل ! والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه، فضربه حتى برد ، وفرّ الآخر يعدو، حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : لقد رأى هذا ذعراً . فلما انتهى إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : قُتِل ، والله ! صاحبى ، وإنى لمقتول . وجاء أبو بصير فقال : يانبىّ الله ! قد أوفى الله ذمتك ، وقد رددتنى إليهم ، فأنجانى الله منهم . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم :

(١) [٦٠ / الممتحنة / ١٠] . (٢) [٤٨ / الفتح / ٤] .

ويل أمّهِ ! مِسْعَرَ حرب لو كان له أحد . فلما سمع ذلك علم أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وتفلّت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة . فو الله ! لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم. وأرسلت قريش إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم تناشده الله والرحم لمَّا أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن، فأنزل الله عزوجل[1] (وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ . .) الآية . وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض، وأن يرجع عنهم عامهم ذلك، حتى إذا كان العام المقبل ، قدمها ، وخلّوا بينه وبين مكة ، فأقام بها ثلاثا ، وأنه لا يدخلها إلا سلاح الراكب ، والسيوف فى القرب ، وأن من أتانا من أصحابكم لم نردّه عليك ، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا ، وأن بيننا وبينك عَيْبَةً مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال. فقالوا : يا رسول الله ! نعطيهم هذا ؟ فقال : من أتاهم منا ، فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم ، جعل الله له فرجا ومخرجا .

هذا ولينظر تتمة ما فى فوائد هذه الغزوة ولطائفها فى (زاد المعاد) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ، بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)

« سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا » قال مجاهد : هم أعراب المدينة ، كجهينة ومزينة، استتبعهم رسول الله ﷺ لخروجه إلى مكة ، فقالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاؤوه، فقتلوا أصحابه، فنقاتلهم. فاعتلوا بالشغل. أى سيقولون لك

(١) [٤٨ / الفتح / ٢٤] .

إذا عاتبتهم على التخلف عنك : شغلنا عن الخروج معك معالجة أموالنا ، وإصلاح معايشنا ، والخوف على أهلنا من الضيعة ، فاستغفر لنا ربنا .

وقوله تعالى : « يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » تكذيب لهم فى اعتذارهم ، وأن الذى خلفهم ليس بما يقولون، وإنما هو الشك فى الله، والنفاق . وكذا طلبهم للاستغفار أيضاً ، ليس بصادر عن حقيقة ، لأنه بغير توبة منهم . ولا ندم على ما سلف منهم من معصية التخلف . وفيه إيذان بأن اللسان لا عبرة به ، ما لم يكن مترجماً عن الاعتقاد الحق .

« قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا » أى لا أحد يمنعه تعالى من ذلك ، لأنه لا يغالبه غالب . إشارة إلى عدم فائدة استغفاره لهم ، مع بقائهم على كذبهم ونفاقهم، ولذا هددهم بقوله سبحانه « بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

لطيفة :

قال الناصر : لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف . وكان الأصل ـ والله أعلم ـ : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً ، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً . لأن مثل هذه النظم يستعمل فى الضر . وكذلك ورد فى الكتاب العزيز مطرداً ، كقوله(١) (فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ)(٢) (وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا)(٣)(فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ) . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى بعض الحديث(٤) : إنى لا أملك لكم شيئاً ـ يخاطب عشيرته ـ وأمثاله كثيرة . وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف فى هذه المواضع باللام، ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه، وليس كذلك حرمان

(١) [٥ / المائدة / ١٧] . (٢) [٥ / المائدة / ٤١] . (٣) [٤٦ / الأحقاف / ٨]

(٤) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٥٠ (طبعتنا) .

المنفعة ، فإنه ضرر عائد عليه ، لا له . فإذا ظهر ذلك ، فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه ، لأن القسمين يشتركان فى أن كل واحد منهما نفى لدفع المقدر من خير وشر ، فلما تقاربا أدرجهما فى عبارة واحدة . وخص عبارة دفع الضر ، لأنه هو المتوقع لهؤلاء ، إذ الآية فى سياق التهديد ، أو الوعيد الشديد . وهى نظير قوله[1] (قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً) فإن العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة . فهاتان الآيتان يرامان فى التقرير الذى ذكرته ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا)

[١٣] (وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا)

« بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ » أى اعتقدتم أنه لن يرجع « ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » أى بل تستأصلهم قريش . «وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ» أى حسّن الشيطان ذلك وصححه ، حتى حبب لكم التخلف . « وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ » وهو عدم نصر الرسول، وعدم رجوعهم من سفرهم هذا . « وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا » هالكين ، مستوجبين لسخط الله ، أو فاسدين فى أعمالكم ونياتكم .

«وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا» أى: من النار تستعر عليهم .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ١٧] .

obeikandi.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا » قال ابن جرير(١) : هذا من الله جل ثناؤه حثٌّ لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على التوبة والمراجعة إلى أمر الله ، فى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم . يقول لهم : بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله يغفر للتائبين ، لأنه لم يزل ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومعاصيهم من عباده ، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥] (سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ، قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا)

« سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ » أى بعذر الاشتغال بأموالهم وأهليهم بعد طلبهم الاستغفار لهم « إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ » أى قصدتم السير « إِلَىٰ مَغَانِمَ » أى أماكنها . قال ابن جرير(١) : وذلك ما كان وعد الله أهل الحديبية من غنائم خيبر « ذَرُونَا » أى اتركونا فى الانطلاق إليها « نَتَّبِعْكُمْ » أى نشهد معكم قتال أهلها « يُرِيدُونَ » أى بعد ظهور كذبهم فى الاعتذار ، وطلب الاستغفار « أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ » قال ابن جرير(٢) : أى وعد الله الذى وعد

(١) انظر الصفحة رقم ٧٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

obeikandi.com

أهل الحديبية ، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم ، ووعدهم ذلك عوضاً من غنائم أهل مكة، إذ انصرفوا عنها على صلح ، ولم يصيبوا منهم شيئاً .

وقال آخرون : بل عنى بقوله (يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ) إرادتهم الخروج مع نبيّ الله صلى الله عليه وسلم في غزوة. وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة التوبة[1]: (فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا) والأكثرون على الأول . وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست ، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ، ففتحها وغنم أموالاً كثيرة ، فخصها بهم .

قال الشراح : وكان ذلك بوحي . ثم كانت غزوة تبوك بعد فتح خيبر ، وبعد فتح مكة أيضاً . وفي منصرفه من تبوك نزل قوله تعالى[1] (فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ . . .) الآية . فكيف يحمل على ما كان في غزوة الحديبية ، وقد نزل بعدها بكثير ؟ ـ والله أعلم ـ .

« قُل لَّن تَتَّبِعُونَا » أي إلى خيبر إذا أردنا السير إليهم . وهو نفي في معنى النهي . قال الشهاب : فالخبر مجاز عن النهي الإنشائيّ ، وهو أبلغ .

« كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ » قال ابن جرير[2]: أي من قبل مرجعنا إليكم . إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهدها ، فليس لكم أن تتبعونا إلى خيبر ، لأن غنيمتها لغيركم « فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا » أي أن نصيب معكم مغنماً إن نحن شهدنا معكم ، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم. قال الشهاب : وهو إضراب عن كونه بحكم الله. أي بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسداً .

« بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ » أي عن الله تعالى مالهم وعليهم من أمر الدين « إِلَّا قَلِيلًا »

---

(١) [٩ / التوبة / ٨٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

أى فهماً قليلاً ، وهو ما كان فى أمور الدنيا ، كقوله تعالى(١) (يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ، فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ، وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

«قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ» أى عن المسير معك «سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ» أى يفوق قتال من أقاتلهم ، بحيث لا دخل للصلح والأمن فيه ، بل «تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ» أى يدخلون فى الدين من غير حرب ولا قتال . وقرئ شاذا (أو يسلموا) بمعنى إلا أن يسلموا ، أو حتى يسلموا . «فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا» يعنى الغنيمة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة «وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ» أى عن الحديبية «يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» أى لتضاعف جرمكم .

ثم خص من هذا الوعيد أصحاب الأعذار ، وإن حدثت بعد التخلف الأول ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ، وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ، وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا)

«لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ» قال المهايمىّ : وإن أمكنه القتال بإحساس صوت مشى

(١) [٣٠ / الروم / ٧] .

العدوّ ، ومشى فرسه ، لـكن يصعب عليه حفظ نفسه عنه . « وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ » أى وإن أمكنه القتال قاعداً، لـكن لا يمكنه الـكرّ والفرّ، ولا يقوى قوة القائم « وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ » أى فإنه وإن أمكنه الإبصار والقيام ، فلا قوة له فى دفع العدوّ ، فضلًا عن الغلبة عليه .

ثم أشار تعالى إلى أن هؤلاء، وإن فاتهم الجهاد، لا ينقص ثوابهم إذا أطاعوا الله ورسوله، بقوله سبحانه «وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ » أى عن إطاعتهما ، وإن كان أعمى أو أعرج أو مريضا « يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا » أى بالمذلة دنيا ، والنار أخرى .

تنبيه :

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين هم (أُولو بأْس شديد) ـ على أقوال :

أحدها ـ أنهم هوازن .

الثانى ـ ثقيف، وكلاهما غزاه النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الثالث ـ بنو حنيفة الذين تابعوا مسيلمة الـكذاب ، وغزاهم أبو بكر رضى الله عنه .

الرابع ـ أهل فارس والروم ، الذين غزاهم عمر رضى الله عنه .

ومثار الخلاف هو عموم ظاهر الآية ، وشمول مصداقها لـكل الغزوات المذكورة. ولو عدّ من الأوجه كفار مكة ، لم يبعد ، بل عندى هو الأقرب ، لأن السين للاستقبال القريب ، فإن هذه السورة نزلت عِدَةً بفتح مكة ، منصرفه ﷺ من الحديبية ، وعلى أثرها كانت غزوة الفتح الأعظم ، التى لم يتخلف عنها من القبائل الشهيرة أحد ، إذ دعاهم النبىّ ﷺ إلى قتال قريش أو يسلموا ، فـكان ما كان من إسلامهم طوعاً أو كرهاً ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

« لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ » يعنى بيعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب ، وعلى أن لايفرّوا ، ولا يولوهم الدبر ، تحت شجرة هناك .

وقد أجمع الرواة فى الصحاح على أن الشجرة لم تُعْلَمْ بعدُ. فى الصحيحين[١] من حديث أبى عوانة عن طارق ، عن سعيد بن المسيّب قال: كان أبى ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة . قال : فانطلقنا من قابل حاجّين، نخفى علينا مكانها، وإن كان بينت لكم، فأنتم أعلم .

وفيهما أيضا عن سفيان قال : إنهم اختلفوا فى موضعها .

وروى ابن جرير[٢] عن قتادة ، عن سعيد بن المسيّب قال: كان جدى يقال له (حزن) ، وكان ممن بايع تحت الشجرة ، فأتيناها من قابل ، فَعُمِّيَتْ علينا .

ثم قال ابن جرير[٣] : وزعموا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال : أين كانت ؟ فجعل بعضهم يقول : هنا ، وبعضهم يقول : ها هنا ! فلما كثر اختلافهم قال : سيروا ، هذا التكلّف ، فذهبت الشجرة ، وكانت سمرة ، إما ذهب بها سيل ، وإما شىء سوى ذلك . انتهى .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٤ـ كتاب المغازى، ٣٥ـ باب غزوة الحديبية، حديث ١٨٩٨

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع ؛ أن عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة ، فيصلّون عندها ، فتوعّدهم ، ثم أمر بقطعها ، فقطعت !

ولا ينافى ما تقدم ، لاحتمال أن هؤلاء علموا مكانها ، أو توهّموها ، فاتخذوها مسجدًا ، ومكاناً مقدسًا ، فقطعها عمر حالتئذ ، صوناً لعقيدتهم من الشرك ، لأن الاجتماع على العبادة حولها يفضى إلى عبادتها بعدُ ، كما أفضى نصب الأوثان إلى عبادتها ، وكان أول أمرها لتعظيم مسمياتها ، وإجلال مثال أصحابها .

وقال فى (الفتح) أيضا فى شرح حديث ابن عمر ، وقوله : رجعنا من العام المقبل ، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التى بايعنا تحتها . كانت رحمة من الله ، ما مثاله :

وقد وافق المسيّب بن حزن ، والد سعيد ، ما قاله ابن عمر من خفاء الشجرة . والحكمة فى ذلك أن لا يحصل بها افتتان ، لما وقع تحتها من الخير ، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهّال لها ، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضر ، كما نراه الآن مشاهدًا فيما هو دونها . وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله (كانت رحمة من الله) أى كان خفاؤها عليهم، بعد ذلك ، رحمة من الله تعالى . انتهى .

وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان ، سميت لهذه الآية ، وتقدمت قصتها مفصلة .

« فَعَلِمَ مَافِى قُلُوبِهِمْ » أى من الصدق والعزيمة على الوفاء بالعهد « فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ » أى الصبر والطمأنينة والوقار . « وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » قال ابن جرير[1] : أى وعوّضهم فى العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة ، بقتالهم أهلها ، فَتْحًا قريباً ، وذلك ـ فيما قيل ـ فتح خيبر .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

« وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا » وهى مغانم خيبر ، وكانت أرضًا ذات عقار وأموال ، فقسمها رسول الله ﷺ على أهل بيعة الرضوان خاصة . « وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » أى ذا عزة فى انتقامه من أعدائه ، وحكمة فى تدبير خلقه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا)

« وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا » يعنى ما يفىء عليهم من غنائم الكفار فى سبيل الجهاد . « فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ » يعنى غنائم خيبر . وأما الغنائم المؤخرة فسائر فتوح المسلمين بعد ذلك الوقت ، إلى قيام الساعة . وقيل : المعجلة هى صلح الحديبية . والصواب هو الأول ، كما قاله ابن جرير ، لأن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة ، ولم يفتحوا فتحاً أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها ، من فتح خيبر وغنائمها .

« وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ » أى أيدى أهل خيبر ، فانتصرتم عليهم ، أو أيدى المشركين من قريش عنكم فى الحديبية . واختار ابن جرير الأول . قال : لأن الثانى سيذكر فى قوله تعالى (وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ . . .) الآية . أى والتأسيس خير من التأكيد . ولك أن تقول : لا مانع من التأكيد ، لاسيما فى مقام التذكير بالنعم ، والتنويه بشأنها . وتكون الآية الثانية بمثابة التفسير للأولى ، والتبيين لمطلقها ـ والله أعلم ـ .

« وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » أى ولتكون تلك الكفة أو الغنيمة عبرة للمؤمنين ،

يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان ، وأنه ضامن نصرهم ، والفتح لهم . « وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً » أى ويزيدكم بصيرة ويقيناً وثقة بفضل الله . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا)

«وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا» معطوف على (هَٰذِهِۦ) أى فعجّل لكم هذه المغانم ، ومغانم أخرى ، وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين ، لأنه قال (لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) وهذا يدل على تقدم محاولة لها. وقال الحسن: هى فارس والروم. قال القرطبيّ: وكونها معجلة ، وإن كانت لم تحصل إلا فى عهد عمر ، بالنسبة لما بعدها من الغنائم الإسلامية .

وعن قتادة : هى مكة . قال ابن جرير[1] : وهذا القول الذى قاله قتادة ، أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل . وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها . ومعقول أنه لا يقال لقوم ، لم يقدروا على هذه المدينة ، إلا أن يكونوا قد راموها فتعذرت عليهم. فأما وهم لم يروموها فتتعذر عليهم، فلا يقال إنهم لم يقدروا عليها . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان معلوماً أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه، خيبرَ لحرب، ولاوجّه إليها لقتال أهلها جيشاً ولاسرية ، عُلم أن المعنى بقوله (وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا) غيرها ، وأنها هى التى عالجها ورامها فتعذرت ، فكانت مكة وأهلها كذلك . وأخبر الله تعالى نبيّه والمؤمنين ، أنه أحاط بها وبأهلها . وأنه فاتحها عليهم . انتهى .

وقال القرطبيّ :معنى (قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا) أى أعدها لكم، فهى كالشيء الذى أحيط به من جميع جوانبه ، فهو محصور لايفوت . فأنتم ، وإن لم تقدروا عليها فى الحال، فهى محبوسة

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

عليكم لا تفوتكم . وقيل : (أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا) علم أنها ستكون لكم ، كما قال (وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) . وقيل : حفظها الله عليكم ، ليكون فتحها لكم . انتهى .

وقد جوّز فى (أُخْرَىٰ) أن تكون معطوفة على (مَغَانِمَ) المنصوب بـ (وَعَدَكُمْ) وأن تكون مرفوعة بالابتداء و (لَمْ يَقْدِرُواْ عَلَيْهَا) صفتها و (قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا) خبر . وأوجه أخر .

« وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » أى : لا يبعد عليه إذا شاءه .

ثم أشار تعالى إلى تبشير أهل بيعة الرضوان بالظفر والنصر المستمر ، لصدق إيمانهم ، وإخلاصهم فى ثباتهم ، وإيثارهم مرضاة الله ورسوله على كل محبوب ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

[٢٣] (سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا)

« وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ » أى بعد هذا الفتح والنصر المعجل « ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ » أى ولوكم أعجازهم فى الحرب ، فعل المنهزم من قرنه فى الحرب . « ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » أى من يواليهم على حربكم ، وينصرهم عليكم .

« سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ » أى مضت فى كفار الأمم السالفة مع مؤمنيها .

« وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا » أى تغييراً .

قال ابن جرير(١) : بل ذلك دائم . للإحسان جزاؤه من الإحسان ، وللإساءة والكفر العقاب والنكال .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)

« وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ » أى قضى بينهم وبينكم المكافَّة والمحاجزة ، بعد ماخولكم الظفر عليهم والغلبة . إشارة إلى منة الصلح ونعمته فى الحديبية ، وأن ذلك عناية منه تعالى بما حفظ من أنفسهم وأموالهم ، ولطف بهم يومئذ لما ادخر لهم بعده .

وقد ذهب بعضهم إلى أنه عنى بهذا الكف ، ما كان يوم الفتح . ونظر فيه بأن السورة نزلت قبله .

وقال ابن إسحاق : حدثنى من لا أتهم عن عكرمة مولى ابن عباس ؛ أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلًا منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أخذاً ، فأُخذوا أخذاً . فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعفا عنهم ، وخلى سبيلهم . وقد كانوا رموا فى عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل . قال ابن إسحاق : ففى ذلك قال (وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ...) الآية .

وروى ابن جرير[1] عن مجاهد قال : أقبل معتمراً نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم . فأخذ أصحابه ناساً من أهل الحرم غافلين ، فأرسلهم النبيّ صلى الله عليه وسلم . فذلك الإظفار ببطن مكة .

قال قتادة : بطن مكة ، الحديبية .

« وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » أى فيجازيكم عليه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٩٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ، لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

« هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ » أى هؤلاء المشركون من قريش ، هم الذين جحدوا توحيد الله « وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ » أى وصدوا الهدى أيضاً ، وهو مايهدى إلى مكة من النعم « مَعْكُوفًا » أى محبوساً . قال السمين: يقال : عكفت الرجل عن حاجته، إذا حبسته عنها. وأنكر الفارسىّ تعدية (عكف) بنفسه، وأثبتها ابن سيدة والأزهرىّ وغيرهما، وهو ظاهر القرآن ، لبناء اسم المفعول منه . انتهى .

وقوله تعالى « أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ » قال ابن جرير[١] : أى محل نحره . وذلك دخول الحرم ، والموضع الذى إذا صار إليه حلّ نحره، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ساق معه حين خرج إلى مكة فى سفرته تلك ، سبعين بدنة .

وفى الآية دليل على أن محل ذبح الهدى ، الحرم .

« وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ » أى موجودون بمكة مع الكفار « لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ » أى بصفة الإيمان وهم بمكة ، حبسهم المشركون بها عنكم ، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم . « أَن تَطَـُٔوهُمْ » أى تقتلوهم مع الكفار ، لو أذن لكم فى الفتح بدل الصلح . قال السمين: (أَن تَطَـُٔوهُمْ) يجوز أن يكون بدلاً من (رِجَالٌ وَنساء) غلب الذكور ، وأن يكون بدلاً من مفعول (تَعْلَمُوهُمْ) . فالتقدير على الأول (ولولا وطء

(١) انظر الصفحة رقم ٩٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

رجال ونساءً غير معلومين) . وتقدير الثانى (لم تعلموا وطأهم) والخبر محذوف تقديره (ولولا رجال ونساء موجودون ، أو بالحضرة) . انتهى .

« فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ » أى إثم وغرامة . من (عرّه) إذا عراه مايكرهه . وقوله « بِغَيْرِ عِلْمٍ » حال من الضمير المرفوع فى (تَطَـُٔوهُمْ) أى تطؤوهم غير عالمين بهم . وفى جواب (لَوْلَا) أقوال :

أحدها ـ أنه محذوف لدلالة الكلام عليه . والمعنى ولولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهرانى المشركين ، وأنتم غير عارفين بهم ، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة ، لما كف أيديكم عنهم ، ولأذن لكم فى دخول مكة مقاتليهم .

والثانى ـ أنه مذكور ، وهو (لَعَذَّبْنَا) وجواب (لو) هو المحذوف . فحذف من الأول لدلالة الثانى ، ومن الثانى لدلالة الأول .

والثالث ـ أن قوله (لَعَذَّبْنَا) جوابهما معاً ، وهو بعيد إن أريد حقيقة ذلك .

وذكر الزمخشرىّ قريباً من هذا فإنه قال : ويجوز أن يكون (لَوْ تَزَيَّلُوا) كالتكرير لـ (لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ) لمرجعهما لمعنى واحد ، ويكون (لَعَذَّبْنَا) هو الجواب . ومنع الشيخ رجوعهما لمعنى واحد ، قال : لأن ماتعلق به الأول غير ما تعلق به الثانى ـ أفاده السمين ـ .

وأجاب الناصر بقوله : وإنما كان مرجعهما هٰهنا واحداً ، وإن كانت (لولا) تدل على امتناع لوجود ، و (لو) تدل على امتناع لامتناع . وبين هذين تناف ظاهر ، لأن (لولا) هٰهنا دخلت على وجود ، و (لو) دخلت على قوله (تَزَيَّلُوا) وهو راجع إلى عدم وجودهم . وامتناع عدم الوجود وجود . فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه . قال : وكان جدّى رحمه الله يختار هذا الوجه الثانى ، ويسميه تطرية . وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام ، وبعد عهد أوله ، واحتيج إلى ردّ الآخر على الأول ، فمرة يطرى بلفظه ، ومرة بلفظ آخر يؤدى مؤداه ، وقد تقدمت لها أمثال .

تنبيه :

فسر ابن إسحاق (المعرة) بالدية ، ذهاباً إلى أن دار الحرب لا تمنع من ذلك. وهو مذهب الشافعيّ . وذهب غيرهما إلى أنها تمنع من ذلك ، ومنهم ابن جرير [1] حيث قال : (المعرة) هي كفارة قتل الخطأ ، وذلك عتق رقبة مؤمنة لمن أطاق ذلك ، ومن لم يطق فصيام شهرين. قال : وإنما اخترت هذا القول ، دون القول الذي قاله ابن إسحاق ، لأن الله إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب ـ إذا لم يكن هاجر منها، ولم يكن قاتله علم إيمانه ـ الكفارةَ دون الدية فقال (فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ) لم يوجب على قاتله خطأ ديته ، فلذلك قلنا : عنى بالمعرة في هذا الموضع الكفارة . انتهى .

« لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ » متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف ، كأنه قيل عقيبه : لكن كفها عنهم ، ولم يأذن لكم في مقاتلتهم ، ليدخلكم في رحمته الكاملة ، بحفظكم من المعرة . وقد جوز أن يكون (مَن يَشَآءُ) عبارة عمن رغب في الإسلام من المشركين ، وعليه اقتصر ابن جرير [1] ، قال : أي ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء ، قبل أن تدخلوها . وناقش فيه أبو السعود بأن ما بعده من فرض التزيل وترتيب التعذيب عليه ، يأباه .

« لَوْ تَزَيَّلُوا۟ » أي لو تميز مشركو مكة من الرجال المؤمنين ، والنساء المؤمنات ، الذين لم تعلموهم منهم « لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » أي بالقتل أو الأسر أو نوع آخر من العذاب الآجل .

تنبيه :

قال إلكيا الهرّاسي : في الآية دليل على أنه لا يجوز حرق سفينة الكفار ، إذا كان فيها أسرى من المسلمين ، وكذلك رمي الحصون إذا كانو بها ، والكفار إذا تترسوا بهم .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)

« إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ » قال ابن جرير[١] : وذلك حين جعل سهيل بن عمرو فى قلبه الحمية ، فامتنع أن يكتب فى كتاب المقاضاة الذى كتب بين رسول الله ﷺ والمشركين (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) ، وأن يكتب فيه (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ) وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله ﷺ عامه ذلك. والعامل فى الظرف إما (لعذبنا) أو (صدوكم) أو (اذكر) مقدراً ، فيكون مفعولاً به . و (الحمية) الأنفة ، وهى الاستكبار والاستنكاف ، مصدر من (حمى من كذا) حمية .

وقوله تعالى « فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ » عطف على منوىّ. أى : فهمّ المسلمون أن يأبوا ذلك، ويقاتلوا عليه، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين. يعنى : الوقار والتثبت ، حتى صالحوهم على أن يعودوا من قابل ، وعلى ما تقدم .

« وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ » أى اختارها لهم ، فالإلزام مجاز عما ذكر من اختيارها لهم ، وأمرهم بها .

« وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا » قال أبو السعود : أى متصفين بمزيد استحقاق لها . على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقا. وقيل : أحق بها من الكفار . « وَأَهْلَهَا » أى المستأهل لها. « وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » . قال أبو السعود : أى فيعلم حق كل شىء ، فيسوقه إلى مستحقه .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)

« لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ » .

قال ابن جرير(١) : أى لقد صدق الله رسوله محمدًا رؤياه التى أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت الله الحرام آمنين، لا يخافون أهل الشرك، مقصرًا بعضهم رأسه، ومحلقًا بعضهم. ثم روى عن مجاهد أنه قال : أُرِىَ بالحديبية أنه يدخل مكة وأصحابه محلقين ، فقال أصحابه حين نحر بالحديبية : أين رؤيا محمد صلى الله عليه وسلم ؟

وعن ابن زيد قال : قال لهم النبىّ ﷺ : إنى قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رؤوسكم مقصرين ، فلما نزل بالحديبية ، ولم يدخل ذلك العام، طعن المنافقون فى ذلك فقالوا : أين رؤياه؟ فقال الله (لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ...) الآية ، إنى لم أُرِه يدخلها هذا العام ، وليكونن ذلك . و (ٱلرُّءْيَا) منصوب بنزع الخافض ، أى صدقه فى رؤياه. أى حقق صدقها عنده ، كما هو عادة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يجعلها أضغاث أحلام . أو منصوب على أنه مفعول ثان ، وهو ما قاله الكرمانىّ ، وعبارته : (كذب) يتعدى إلى مفعولين ، يقال : كذبنى الحديث ، وكذا (صدق) كما فى الآية . وهو غريب لتعدى المثقل لواحد ، والمخفف لمفعولين .

وقوله (بِٱلْحَقِّ) حال من الرؤيا. أى متلبسة بالحق، ليست من قبيل أضغاث الأحلام. وقوله (لَتَدْخُلُنَّ) جواب قسم محذوف . أى : والله ! لتدخلن .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقوله (إِن شَآءَ ٱللَّهُ) تعليق للعدة بالمشيئة ، لتعليم العبـــاد . أو للإشعار بأن بعضهم لا يدخل ، فهو فى معنى : ليدخلنّه من شاء الله دخوله منكم . أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا ، أو النبىّ ﷺ لأصحابه .

وقوله (مُحَلِّقِينَ) حال مقدرة ، لأن الدخول فى حال الإحرام ، لا فى حال الحلق والتقصير . وفى الكلام تقدير ، أوهو من نسبة ما للجزء إلى الكل . والمعنى : محلقاً بعضكم ، ومقصرًا آخرون . والقرينة عليه : أنه لا يجتمع الحلق والتقصير ، فلابد من نسبة كل منهما لبعض منهم .

وثبت فى الصحيح(١) أن رسول الله ﷺ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين ! قالوا : والمقصرين يا رسول الله ! قال : والمقصرين !

وقوله تعالى (لَا تَخَافُونَ) حال مؤكدة لقوله (ءَامِنِينَ) أو مؤسسة ، لأن اسم الفاعل للحال والمضارع للاستقبال ، فيكون أثبت لهم الأمن حال الدخول . ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد ، لا يخافون من أحد .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا كان فى عمرة القضاء ، فى ذى القعدة سنة سبع ، فإن النبىّ ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة، رجع إلى المدينة، فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج فى صفر إلى خيبر ، ففتحها الله عليه . بعضها عنوة ، وبعضها صلحاً ، وهى إقليم عظيم ، كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها ، على الشطر ، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحد غيرهم ، إلا الذين قدموا من الحبشة : جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعرىّ وأصحابه رضى الله عنهم ، ولم يغب منهم أحد . قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر فى موضعه . ثم رجع المدينة ،

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١٥ كتاب الحج ، حديث رقم ٣١٨ (طبعتنا) .

فلما كان فى ذى القعدة من سنة سبع ، خرج ﷺ إلى مكة معتمرًا ، هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذى الحليفة ، وساق معه الهدى . قيل : كان ستين بدنة . فلبى ، وسار وأصحابه يلبون ، قريباً من مرّ الظهران ، بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذى بينهم وبينه ، من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة . فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران ، حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسىّ والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار بالسيوف إلى مكة مغمدة فى قربها ، كما شارطهم عليه . فلما كان فى أثناء الطريق ، بعثت قريش مكرز بن حفص فقال : يا محمد ! ما عرفناك تنقض العهد ! فقال ﷺ : وما ذاك ؟ قال : دخلت علينا بالسلاح ، القسىّ والرماح ! فقال ﷺ : لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج ؟ فقال : بهذا عرفناك ، بالبرّ والوفاء . وخرجت رؤوس الكفار من مكة ، لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضى الله عنه ، غيظاً وحنقاً . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ، ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام ، وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى ، وهو راكب ناقة القصواء ، التى كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله ابن رواحة الأنصارىّ آخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول :

باسمِ الذى لا دينَ إلا دينُهْ ... باسمِ الذى محمد رسولُهْ
خلوا بنى الكفار عن سبيلِهْ ... اليومَ نضربكم على تأويلِهْ
كما ضربناكم على تنزيلِهْ ... ضرباً يُزيل الهامَ عن مقيلِهْ
ويُذهل الخليلَ عن خليلِهْ ... قد أنزل الرحمنُ فى تنزيلِهْ
فى صحف تُتْلَى على رسولِهْ ... بأن خير القتل فى سبيلِهْ

يا رب ! إنى مؤمن بقيلِهْ

وروى الإمام أحمد (١) من طريق أبى الطفيل عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران فى عمرته ، بلغ أصحابَ رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول: مايتباعثون من العَجَف! فقال أصحابه : لو انتحرنا ، من ظهرنا ، فأكلنا من لحمه ، وحَسَوْنا من مرقه ، أصبحنا غداً حين ندخل على القوم ، وبنا جَمَامَةٌ . قال صلى الله عليه وسلم : لاتفعلوا، ولكن اجمعولى من أزوادكم ، فجمعوا له ، وبسطوا الأنطاع ، فأكلوا حتى تولوا ، وحثا كل واحد منهم فى جرابه . ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحِجْر فاضطبع صلى الله عليه وسلم بردائه ، ثم قال : لا يرى القوم فيكم غميزَة ، فاستلم الركنَ ، ثم دخل حتى إذا تغيب بالركن اليمانى مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش : مايرضون بالمشى إنهم لَيَنْقِزُونَ نقْز الظباء ! ففعل ذلك ثلاثة أطواف ، فكانت سنّة .

قال أبو الطفيل : فأخبرنى ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك فى حجة الوداع .

وروى أحمد (٢) من طريق سعيد بن جبير عن بن عباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة ، وقد وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يثرب ، ولقوا منها سوءاً ، فقال المشركون : إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ، ولقوا منها شراً ، وجلس المشركون من الناحية التى تلى الحجر ، فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرمُلوا الأشواط الثلاثة ، ليرى المشركون جَلَدَهُم . قال ، فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين ، حيث لايراهم المشركون . وفى رواية : ولم يمنع النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٠٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٧٨٣ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٩٥ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٦٨٦ (طبعة المعارف) .

وفى ابن كثير زيادة من الأحاديث فى هذا الباب ، فليراجعها من أحب الزيادة .

وقوله تعالى « فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا » أى من الخيرة والمصلحة فى صرفكم عن مكة ، ودخولكم إليها ، عامكم ذلك .

قال ابن جرير (١) : وذلك علمه تعالى ذكره بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين لم يعلمهم المؤمنون ، ولو دخلوها فى ذلك العام لوطئوهم بالخيل والرّجل ، فأصابتهم منهم معرة بغير علم ، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك . وليدخل فى رحمته من يشاء ممن يريد أن يهديه .

« فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ » أى قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبىّ صلى الله عليه وسلم « فَتْحًا قَرِيبًا » يعنى الصلح الذى جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مشركى قريش ، أو فتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين ، إلى أن يتيسر الفتح الموعود. وإلى الأول ذهب الزهرىّ ، قال : يعنى صلح الحديبية . وما فتح فى الإسلام فتح كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، وضعت الحرب وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً ، فالتقوا ، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلَّم أحد بالإسلام ، يعقل شيئاً ، إلا دخل فيه . فلقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر . ووافقه مجاهد وإلى الثانى ذهب ابن زيد .

قال ابن جرير : والصواب أن يعم فيقال : جعل الله من دون ذلك كليهما .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا)

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ » أى البيان الواضح « وَدِينِ ٱلْحَقِّ » أى الإسلام .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقال المهايمي : (بِالْهُدَىٰ) أى الدلائل القطعية (وَدِينِ الْحَقِّ) أى الاعتقادات الصائبة المطابقة لما هو الواقع أشد مطابقة .

وقال ابن كثير : أى بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل. فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق،وإنشاءاتها عدل.

« لِيُظْهِرَهُۥ » أى ليعليه «عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ » قال ابن جرير(١) : أى ليبطل به الملل كلها ، حتى لايكون دين سواه . وذلك حين ينزل عيسى ابن مريم ، فيقتل الدجال ، فحينئذ تبطل الأديان كلها ، غير دين الله الذى بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها . انتهى .

وقال ابن تيمية : قد أظهره الله علماً وحجة وبياناً على كل دين ، كما أظهره قوة ونصراً وتأييداً ، وقد امتلأت الأرض منه ومن أمته فى مشارق الأرض ومغاربها ، وسلطانهم دائم لايقدر أحد أن يزيله ، كما زال ملك اليهود ، وزال ملك من بعدهم عن خيار الأرض وأوسطها . انتهى .

« وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا » أى على أن ماوعده من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح أو المغانم كائن . قال الحسن : شهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الدين كله .

قال ابن جرير(١) : وهــذا إعلام من الله تعالى نبيّه ﷺ ، والذين كرهوا الصلح يوم الحديبية من أصحابه ؛ أن الله فاتح عليهم مكة وغيرها من البلدان ، مسلّيهم بذلك عما نالهم من الكآبة والحزن ، بانصرافهم عن مكة قبل دخولها ، وقبل طوافهم بالبيت .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ، وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ، ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ، وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا)

« مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ » أى أصحابه « أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ » أى لهم شدة وغلظة على الكفار المحاربين لهم ، الصادّين عن سبيل الله ، وعندهم تراحُم فيما بينهم ، كقوله تعالى[1] (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ) .

لطائف

الأولى ـ جوز فى (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ) أن يكونا مبتدأ وخبراً ، وأن يكون (رَّسُولُ ٱللَّهِ) صفة ، أو عطف بيان، أو بدلًا ، (وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ) عطف عليه . وخبرها (أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ) .

الثانية ـ قال الشهاب : قوله تعالى (رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) تكميل ، لو لم يذكر لربما توهم أنهم لاعتيادهم الشدة على الكفار قد صار ذلك لهم سجية فى كل حال ، وعلى كل أحد . فلما قيل (رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ) اندفع ذلك التوهم ، فهو تكميل واحتراس ، كما فى الآية المتقدمة، فإنه لما قيل (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ) ربما توهم أن مفهوم القيد غير معتبر ، وأنهم موصوفون

(١) [٥ / المائدة / ٥٤] .

بالذل دائماً ، وعند كل أحد ، فدفع بقوله (أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ) فهو كقوله :

حليمٌ إذا ما الحلمُ زَيَّنَ أهلَهُ   على أنه عنـد العدوِّ مَهيبُ

الثالثة ـ قال المهايميّ : تفيد الآية أن دين الحق قد ظهر في أصحابه صلوات الله عليه ، إذ اعتدلت قوتهم الغضبية ! بتبعية اعتدال المفكرة والشهوية ، إذ هم أشداء على الكفار ، لرسوخهم في صحة الاعتقاد ، بحيث يغارون على من لم يصح اعتقاده ، رحماء بينهم ، لعدم ميلهم إلى الشهوات . هذا باعتبار الأخلاق ، وأما باعتبار الأعمال ، فأنت « تَرَىٰهُمْ رُكَّعاً سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا » قال ابن كثير : وصفهم بكثرة العمل ، وكثرة الصلاة ، وهي خير الأعمال . ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل ، وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم ! وهو أكبر من الأولى ، كما قال جل وعلا[1] (وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ) انتهى .

« سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم » مبتدأ وخبر ، أي علامتهم كائنة فيها . وقوله تعالى « مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ » بيان للسيما ، كأنه قيل : سيماهم التي هي أثر السجود . أو حال من المستكنّ في (وجوههم) .

قال الشهاب : وهي على ما قبله خبر مبتدأ تقديره : هي من أثر السجود . انتهى .

وهل الوجوه مجاز عن الذوات ، أو حقيقة ؟ في معناها تأويلان للسلف ، فعن ابن عباس (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم) يعني السمت الحسن . وقال مجاهد وغير واحد ، يعني الخشوع والتواضع . وقال منصور لمجاهد : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه ، فقال مجاهد ، ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون . وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل ، حسن وجهه بالنهار . وقد رفعه ابن ماجه . والصحيح أنه موقوف . وقال بعضهم : إن للحسنة لنوراً في القلب ،

(١) [٩ / التوبة / ٧٢] .

وضياء فى الوجه ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الناس . وقال أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه : ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه . وروى الطبرانىّ مرفوعاً : ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ـ وإسناده واهٍ ، لأن فيه العزرمىّ وهو متروك ـ .

وروى الإمام أحمد(١) عن أبى سعيد الخدرىّ عن رسول الله ﷺ قال : لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان .

وأخرج أيضا(٢) عن ابن عباس عن النبىّ ﷺ قال: إن الهدى الصالح، والسمت الصالح والاقتصاد ، جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة . ورواه أبو داود أيضاً .

والتأويل الثانى فى الآية ، أن ذلك آثار ترى فى الوجه من ثرى الأرض ، أو ندى الطهور . روى ذلك عن ابن جبير وعكرمة . وقد كان ذلك فى العهد النبوىّ، حيث لافراش للمسجد إلا ترابه وحصباؤه .

وكل من المعنيين من (سِيمَاهُمْ) رضى الله عنهم وأرضاهم .

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ » أى الوصف « مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ » أى صفتهم العجيبة فيها «وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ» أى فراخه أو سنبله أو نباته « فَـَٔازَرَهُۥ» أى قوّاه « فَٱسْتَغْلَظَ » أى فغلظ الزرع واشتد. فالسين للمبالغة فى الغلظ، أو صار من الدقة إلى الغلظ « فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ » أى استقام على قصبه. و (السوق) جمع ساق «يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ » أى يعجب هذا الزرعُ الذى استغلظ فاستوى على سوقه فى تمامه ، وحسن نباته ، وبلوغه وانتهائه ، الذين زرعوه . وقوله تعالى « لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ » تعليل لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وقوتهم ، كأنه قيل : إنما قوّاهم وكثّرهم ليغيظ بهم الكفار .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٩٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٦٩٨ (طبعة المعارف) .

لطائف :

الأولى : يجوز فى قوله تعالى (وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ) وجهان :

أحدهما ـ أنه مبتدأ ، وخبره (كَزَرْعٍ) فيوقف على قوله (فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ) فهما مثلان، وإليه ذهب ابن عباس .

والثانى ـ أنه معطوف على (مَثَلُهُمْ) الأول ، فيكون مثلًا واحدًا فى الكتابين ، ويوقف حينئذ على (فِى ٱلْإِنجِيلِ) ، وإليه نحا مجاهد والفرّاء ، ويكون قوله (كَزَرْعٍ) على هذا فيه أوجه :

أحدها ـ أنه خبر مبتدأ مضمر . أى مثلهم كزرع ، فسر به المثل المذكور فى الإنجيل.

الثانى ـ أنه حال من الضمير فى (مَثَلُهُمْ) أى مماثلين زرعاً هذه صفته .

الثالث ـ أنه نعت مصدر محذوف ، أى تمثيلًا كزرع ـ ذكره أبو البقاء ـ .

قال الزمخشرىّ : ويجوز أن يكون (ذَٰلِكَ) إشارة مبهمة أوضحت بقوله (كَزَرْعٍ) كقوله[1] (وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ) ـ أفاده السمين ـ .

الثانية ـ قال السمين : الضمير المستتر فى (فَـَٔازَرَهُۥ) للزرع ، والبارز للشطء . وعكس النسفىّ ، فجعل المستتر للشط ، والبارز للزرع . أى فقوى الشطء بكثافة الزرع وكثافته كثرة فروعه وأوراقه . قال الجمل : وما صنعه النسفى أنسب ، فإن العادة أن الأصل يتقوّى بفروعه ، فهى تعينه وتقوّيه .

الثالثة ـ قال السمين : (يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ) حال . أى حال كونه معجباً ، وهنا تمّ المثل.

الرابعة ـ قال الزمخشرىّ : هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام ، وترقيه فى الزيادة ، إلى أن قوى واستحكم ، لأن النبيّ ﷺ قام وحده ، ثم قوّاه الله بمن آمن معه ، كما يقوّى الطاقةَ الأولى من الزرع ، ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع .

---

(١) [١٥ / الحجر / ٦٦] .

وهذا ما قاله البغوىّ من أن (الزرع) محمد ، و (الشطء) أصحابه والمؤمنون ، فجعلا التمثيل للنبيّ ﷺ وأمته .

وأما القاضى فجعله مثالاً للصحابة فقط. وعبارته : وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة، قلّوا فى بدء الإسلام ، ثم كثروا واستحكموا ، فترقّى أمرهم ، بحيث أعجب الناس .

قال الشهاب : ولكل وجهة .

الخامسة ـ قال ابن كثير : من هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه ، فى رواية عنه، تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضى الله عنهم. قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة ، فهو كافر لهذه الآية . ووافقه طائفة من العلماء على ذلك ـ انتهى كلام ابن كثير ـ.

ولا يخفاك أن هذا خلاف ما اتفق عليه المحققون من أهل السنة والجماعة من أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ، كما بسط فى كتب العقائد ، وأوضحه النووىّ فى شرح (مقدمة مسلم)، وقبله الإمام الغزالىّ فى كتابه (فيصل التفرقة) . وقد كان من جملة البلاء فى القرون الوسطى التسرع من الفقهاء بالتكفير والزندقة . وكم أريقت دماء فى سبيل التعصب لذلك ، كما يمر كثير منه بقارئ التاريخ . على أن كلمة الأصوليين اتفقت على أن المجتهد كيفما كان ، مأجور غير مأزور ، ناهيك بمسألة عدالتهم المتعددة أقوالها ، حتى فى أصغر كتاب فى الأصول كمثل (جمع الجوامع) . نعم ، إن التطرف والغلوّ فى المباحث ليس من شأن الحكماء المنصفين . وإذا اشتد البياض صار بَرَصًا .

«وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ» أى صدقوا الله ورسوله «وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً» أى عفواً عما مضى من ذنوبهم، وسيئ أعمالهم، بحسنها . «وَأَجْرًا عَظِيمًا» أى ثواباً جزيلاً، وهو الجنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٩ – سورة الحجرات

قال المهايمي: سميت بها لدلالة آيتها على سلب إنسانية من لا يعظم رسول الله غاية التعظيم، ولا يحترمه غاية الاحترام . وهو من أعظم مقاصد القرآن .

وهي مدنية ، وآيها ثمان عشرة .

وقد انفردت هـذه السورة بآداب جليلة ، أدّب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به نبيّه ﷺ ، من التوقير والتبجيل .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ » قال ابن جرير[(١)]: أى يا أيها الذين أقرّوا بوحدانية الله ، ونبوّة نبيّه ﷺ ، لا تعجلوا بقضاء أمر فى حروبكم أو دينكم ، قبل أن يقضىَ الله لكم فيه ورسوله ، فتقضوا بخلاف أمر الله ، وأمر رسوله . محكىّ عن العرب : فلان يقدم بين يدى إمامه ، بمعنى يعجل الأمر والنهى دونه . انتهى .

و (تُقَدِّمُوا۟) إما متعد حذف مفعوله ، لأنه أريد به العموم ، أو أنه نزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى المفعول ، كما تقول : فلان يعطى ويمنع . أو هو لازم ، فإن (قدم) يرد بمعنى (تقدم) كبيّن ، فإنه متعد ، ويكون لازماً بمعنى تبيّن .

وفى هذه الجملة تجوّزان :

أحدهما ـ فى (بين اليدين) ، فإن حقيقته ما بين العضوين ، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال ، قريباً منه بإطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما . فهو من المجاز المرسل ، ثم استعيرت الجملة استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء ، ومتابعة لمن يلزم متابعته ، تصويراً لهجنته وشناعته ، بصورة المحسوس ، كتقدم الخادم بين يدى سيده فى مسيره ، فنقلت العبارة الأولى ، بما فيها من المجاز ، إلى ما ذكر ، على ما عرف فى أمثاله ـ هذا محصل ما فى (الكشاف) و (شروحه) .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١١٦ من الجزء السادس والعشرين .

قال ابن كثير : معنى الآية : لا تسرعوا فى الأشياء قبله ، بل كونوا تبعاً له فى جميع الأمور ، حتى يدخل فى عموم هذا الأدب حديث معاذ رضى الله عنه . قال له النبىّ ﷺ حين بعثه إلى اليمن : بم تحكم؟ قال: بكتاب الله تعالى. قال ﷺ : فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ﷺ : فإن لم تجد ؟ قال رضى الله عنه : أجتهد رأيى ! فضرب فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله . وقد رواه أحمد[١] وأبو داود[٢] والترمذىّ[٣] وابن ماجة[٤] . والغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما ، لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله . انتهى .

وقد جوز أن يكون المراد (بين يدى رسول الله) وذكر (الله) لبيان قوة اختصاصه به تعالى ، ومنزلته منه ، تمهيداً وتوطئة لما بعده . وقد أيد هذا ، بأن مساق الكلام لإجلاله صلى الله عليه وسلم .

تنبيه :

قال ابن جرير : بضم التاء من قوله (لَا تُقَدِّمُواْ) قرأ قراءة الأمصار ، وهى القراءة التى لا أستجيز القراءة بخلافها، لإجماع الحجة من القراء عليها. وقد حكى عن العرب : قدّمت فى كذا وتقدمت فى كذا . فعلى هذه اللغة لو كان قيل (لا تقدموا) بفتح التاء ، كان جائزاً. انتهى . وبه قرأ يعقوب فيما نقل عنه .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٣٠ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه فى : ٢٣ ـ كتاب الأقضية ، ١١ ـ باب اجتهاد الرأى فى القضاء ، حديث رقم ٣٥٩٢

(٣) أخرجه فى : ١٣ ـ كتاب الأحكام ، ٣ ـ باب حدثنا هناد ، حديث رقم ١٣٢٧

(٤) لم يخرجه ابن ماجه .

« وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ » أى فى التقديم أو مخالفة الحكم . والأمر بالتقوى على أثر ماتقدم ، بمنزلة قولك للمقارف بعض الرذائل : لاتفعل هذا ، وتحفظ مما يلصق العار بك. فتنهاه أولاً عن عين ماقارفه، ثم تعمّ وتأمره بمالو امتثل أمرك فيه، لم يرتكب تلك الفعلة، وكل مايضرب فى طريقها ، ويتعلق بسببها ـ أشار له الزمخشريّ ـ .

« إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أى فحقيق أن يُتَّقى ويُراقب .

تنبيه :

فى (الإكليل) : قال الكيا الهراسيّ: قيل نزلت فى قوم ذبحوا قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح . وعموم الآية النهى عن التعجيل فى الأمر والنهى ، دونه . ويحتج بهذه الآية فى اتباع الشرع فى كل شىء. وربما احتج به نفاة القياس، وهو باطل منهم. ويحتج به فى تقديم النص على القياس . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ » أى: إذا نطق ونطقتم ، فلتكن أصواتكم قاصرة عن الحدّ الذى يبلغه صوته ، ليكون عالياً لكلامكم ، لا أن تغمروا صوته بلغطكم ، وتبلغوا أصواتكم إلى أسماع الحاضرين قبل صوته ، فإن ذلك من سوء الأدب بمكان كبير « وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ » أى بل تعمدوا فى مخاطبته القول اللين، القريب من الهمس، الذى يضادّ الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم . وروى عن مجاهد تفسيره بندائه باسمه ، أى لاتنادوه كما ينادى بعضكم بعضاً : يامحمد ! يامحمد ! بل يانبى الله ! يا رسول الله! ونظر فيه شراح (الكشاف) بأن ذكر الجهر حينئذ

لا يظهر له وجه ، إذ الظاهر أن يقال : لا تجعلوا خطابه كخطاب بعضكم لبعض، كما مر فى قوله(١) ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ انتهى .

ولك أن تقول : إنما أفرغ هذا المعنى المرويّ عن مجاهد فى قالب ذاك اللفظ الكريم جرياً على سنة التنزيل فى إيثار أرق الألفاظ والجمل، وألطفها فى ذلك ، فإن أسلوبه فوق كل أسلوب.

وقد قالوا : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به « أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ » أى مخافة أن تحبط أعمالكم ، برفع صوتكم فوق صوته ، وجهركم له بالقول كجهركم لبعضكم « وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » أى لا تعلمون ولا تدرون بحبوطها .

تنبيه :

استدلت المعتزلة بالآية على أن الكبائر محبطة للأعمال ، لأن المذكور فى الآية كبيرة محبطة ولافرق بينها وبين غيرها . ولما كان عند أهل السنة، المحبط للأعمال هو الكفر خاصة، تأولوا الآية بأنها للتغليظ والتخويف ، إذ جعلت بمنزلة الكفر المحبط ، أو هى للتعريض بالمنافقين المقاصدين بالجهر والرفع الاستهانة ، فإن فعلهم محبط قطعاً .

وقال الناصر : المراد فى الآية النهى عن رفع الصوت على الإطلاق . ومعلوم أن حكم النهى الحذر مما يتوقع فى ذلك من إيذاء النبيّ عليه الصلاة والسلام. والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق . فورد النهى عما هو مظنة لأذى النبيّ عليه الصلاة والسلام، سواء وجد هذا المعنى أوْ لا، حماية للذريعة، وحسماً للمادة. ثم لما كان هذا المنهيّ عنه ـ وهو رفع الصوت ـ منقسماً إلى مايبلغ ذلك المبلغ أولا، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر ، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً ، وخوّف أن يقع فيما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الإيذاء ، إذ لا دليل ظاهر يميزه . وإن كان ، فلا يتفق تمييزه فى كثير من الأحيان . وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ . وإلا فلو كان الأمر على ماتعتقده المعتزلة، لم يكن لقوله ﴿وَأَنتُمْ

(١) [٢٤ / النور / ٦٣] .

لَا تَشْعُرُونَ) موقع . إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذياً ، فيكون كفراً محبطاً قطعاً ، وبين أن يكون غير مؤذ ، فيكون كبيرة محبطة على رأيهم قطعاً . فعلى كلا حاليه ، الإحباط به محقق، إذن فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور، مع أن الشعور ثابت مطلقاً ـ والله أعلم ـ .

ثم قال : وهذا التقرير الذى ذكرته يدور على مقدمتين ، كلتاهما صحيحة :

إحداهما ـ أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء ، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن ، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه . فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الإجلال والإعظام .

المقدمة الأخرى ـ أن إيذاء النبىّ ﷺ كفر . وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا ـ يعنى المالكية ـ وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً ، ولا تقبل توبته، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر ، والله الموفق . انتهى .

ولا يخفى أن الإنصاف هو الوقوف مع ما أوضحه النص وأبانه ، فكل موضع نص فيه على الإحباط وجب قبوله بدون تأويل ، وامتنع القياس عليه ، لأنه مقام توعد وخسران ، ولا مجال للرأى فى مثل ذلك . هذا ما أعتقده وأراه . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ، لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ » أى يبالغون فى خفضها « عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ » قال ابن جرير[١] : أى اصطفاها وأخلصها للتقوى

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

يعنى لاتقائه بأداء طاعته ، واجتناب معاصيه ، كما يمتحن الذهب بالنار ، فيخلص جيدها ، ويبطل خبثها « لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » أى ثواب جزيل ، وهو الجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ » أى يدعونك « مِن وَرَآءِ » أى خارج « ٱلْحُجُرَٰتِ » أى عند كونك فيها ، استعجالًا لخروجك إليهم ، ولو بترك ما أنت فيه من الأشغال « أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » إذ لا يفعله محتشم ، ولا يفعل لمحتشم ، فلا يراعون حرمة أنفسهم ، ولا حرمتك ، ونسب إلى الأكثر ، لأنه قد يتبع عاقل جماعة الجهال ، موافقة لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ » أى لأن خروجه باستعجالهم ربما يغضبه ، فيفوتهم فوائد رؤيته وكلامه . وإن صبروا استفادوا فوائد كثيرة ، مع اتصافهم بالصبر ، ورعاية الحرمة لنبيهم وأنفسهم « وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى لمن تاب من معصية الله ، بندائك كذلك ، وراجع أمر الله فيه وفى غيره .

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : قد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمىّ ، فيما أورده غير واحد .

روى الإمام أحمد(١) عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن الأقرع بن حابس ؛ أنه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! يا محمد ! (وفى رواية : يا رسول الله !) فلم يجبه . فقال :

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

يارسول الله ! إن حمدى لزين ، وإن ذمّى لشين ، فقال : ذاك الله عز وجل .

وروى ابن إسحاق ، فى ذكر سنة تسع ، وهى المسماة سنة الوفود ؛ أن رسول الله ﷺ لما افتتح مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، فكان منهم وفد بنى تميم . فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته : أن اخرج إلينا يا محمد ! فآذى ذلك رسولَ الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم . ثم ساق ابن إسحاق نبأهم مطولاً ثم قال: وفيهم نزل من القرآن (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

الثانى ـ (ٱلْحُجُرَٰتِ) بضمتين ، وبفتح الجيم ، وبسكونها . وقرئ بهنّ جميعاً : جمع (حجرة) . وهى الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها . فُعْلَة بمعنى مفعولة ، كالغرفة والقبضة .

قال الزمخشرىّ : والمراد حجرات نساء رسول الله ﷺ . وكانت لكل واحدة منهن حجرة . ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات ، متطلبين له ، فناداه بعض من وراء هذه ، وبعض من وراء تلك . وأنهم قد أتوها حجرة حجرة ، فنادوه من ورائها . وأنهم نادوه من وراء الحجرة التى كان فيها . ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمكان حرمته . والفعل ـ وإن كان مسنداً إلى جميعهم ـ فإنه يجوز أن يتولّاه بعضهم ، وكان الباقون راضين ، فكأنهم تولوه جميعاً .

الثالث ـ قال الزمخشرىّ : ورود الآية على النمط الذى وردت عليه ، فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله .

منها ـ مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به ، بالسفه والجهل ، لما أقدموا عليه .

ومنها ـ لفظ (ٱلْحُجُرَٰتِ) وإيقاعها ، كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه .

ومنها ـ المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذى تبين به ما استنكر عليهم .

ومنها ـ التعريف باللام دون الإضافة .

ومنها ـ أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التميز فى المخاطبات ، تهويناً للخطب على رسول الله ﷺ ، وتسلية له ، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم ، وسوء أدبهم ، وهلم جرا . . . من أول السورة إلى آخر هذه الآية . فتأمل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التى تنتمى إلى الله ورسوله ، متقدمة على الأمور كلها ، من غير حصر ولا تقييد. ثم أردف ذلك النهى عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر، كأن الأول بساط للثانى، ووطاء لذكره . ثم ذكر ماهو ثناء على الذين تحاموا ذلك، فغضوا أصواتهم ، دلالة على عظيم موقعه عند الله . ثم جىء على عقب ذلك بما هو أطم ، وهجنته أتم، من الصياح برسول الله ﷺ ، فى حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه على فظاعة ما أجروا إليه ، وجسروا عليه، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول ، حتى خاطبه جِلَّة المهاجرين والأنصار بأخى السرار ، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذى بلغ من التفاحش مبلغاً. ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب ، وتقتبس محاسن الآداب ، كما يحكى عن أبى عبيد ـ ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى ـ أنه قال: ما دققت باباً على عالم قط ، حتى يخرج فى وقت خروجه . انتهى .

الرابع ـ قال ابن كثير : قال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ ، كما كان يكره فى حياته ، لأنه محترم حيًّا ، وفى قبره ﷺ . وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع صوت رجلين فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما ، فحصبهما . ثم ناداهما فقال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً . انتهى .

الخامس ـ روى البخارى[1] عن عبد الله بن الزبير أنه قدم ركب من بنى تميم على

---

(١) أخرجه فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤٩ ـ سورة الحجرات ، ٢ ـ باب إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ، حديث ١٩٤٢

النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أَمِّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : أمّر الأقرع ابن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى ! فقال عمر : ما أردت خلافك ! فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما . فنزل فى ذلك (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . .) حتى انقضت الآية .

وفى رواية : فأنزل الله فى ذلك (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ ...) الآية.

قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى حتى يستفهمه . وقد انفرد بهاتين الروايتين البخاريّ دون مسلم .

قال الحافظ ابن حجر : وقد استشكل ذلك ! قال ابن عطية : الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة الأعراب .

قال ابن حجر : قلت : لا يعارض ذلك هذا الحديث ، فإن الذى يتعلق بقصة الشيخين فى تخالفهما فى التأمير هو أول السورة (لَا تُقَدِّمُوا۟) ولـكن لما اتصل بها قوله (لَا تَرْفَعُوٓا۟) تمسك عمر منها بخفض صوته . وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من بنى تميم ، والذين يختص بهم ، وقوله (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ) . انتهى .

وتقدم لنا مراراً الجواب عن أمثاله، بأن قولهم: نزلت الآية فى كذا، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تتناوله الآية ، لا أنه سبب لنزولها .

قال الإمام ابن تيمية: قولهم نزلت هذه الآية فى كذا، يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية ، وإن لم يكن السبب . كما تقول : عنى بهذه الآية كذا . انتهى . وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النزول، فاحفظه، فإنه من المضنون به على غير أهله . ولو وقف عليه ابن عطية لما ضعف رواية البخارىّ، ولما تمحل ابن حجر لتفكيك الآيات بجعل بعضها لسبب . وبعضها لآخر ، فى قصة واحدة . وبالله التوفيق . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ »أى: فاستظهروا صدقه من كذبه ، بطريق آخر كراهة « أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ » أى قوماً برآء مما قذفوا به بغية أذيتهم بجهالة لاستحقاقهم إياها ، ثم يظهر لكم عدم استحقاقهم «فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ » أى فتندموا على إصابتكم إياهم بالجناية التى تصيبونهم بها، وحق المؤمن أن يحترز مما يخاف منه الندم فى العواقب .

تنبيهات :

الأول ـ قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة ابن أبى معيط ، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق. وقد روى ذلك من طرق. ومن أحسنها مارواه الإمام أحمد[١] فى مسنده من رواية مالك عن ابن المصطلق، وهو الحارث ابن ضرار والد جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثنى أبى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعىّ رضى الله عنه يقول : قدمت على رسول الله ﷺ ، فدعانى إلى الإسلام ، فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعانى إلى الزكاة ، فأقررت بها وقلت : يارسول الله ! أرجع إلى قومى فأدعوهم إلى الإسـلام ، وأداء الزكاة ، فمن استجاب لى جمعت زكاته ، ويرسل إلىّ يارسول الله رسولاً إبّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة . فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإبّان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول ، فلم يأته ، وظن الحارث أنه قد

(١) أخرجه بالصفحة رقم ٢٧٩ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسروات قومه ، فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقّت لى وقتاً يرسل إلىّ رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة، فانطلقوا فنأتى رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة. فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِقَ ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله ! إن الحارث منعنى الزكاة ، وأراد قتلى . فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث. فأقبل الحارث بأصحابه، حتى إذا استقبل البعث، وفصل من المدينة، لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث! فلما غشيهم قال لهم : إلى من بُعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولِمَ ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة ، وأردت قتله ! قال : لا ، والذى بعث محمدًا بالحق ، ما رأيته بتة ، ولا أتانى . فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : منعتَ الزكاة ، وأردت قتل رسولى ؟! قال : لا ، والذى بعثك بالحق ! ما رأيته بتة ، ولا أتانى ، وما أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسولُ رسولِ الله ﷺ ! خشيت أن تكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله. قال: فنزلت الحجرات (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ . . . إلى قوله : حَكِيمٌ) .

وقال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق يتصدقهم ، فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بنى المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك (زاد قتادة : وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام) فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضى الله عنه إليهم ، وأمره أن يتثبّت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلًا، فبعث عيونه، فلما جاءوا أخبروا خالداً رضى الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد رضى الله عنه، فرأى الذى يعجبه . فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال قتادة : فكان رسول الله ﷺ يقول : التثبُّت من الله ، والعجلة من الشيطان . وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم ابن أبى ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل ،

obeikandi.com

وغيرهم فى هذه الآية ، أنها نزلت فى الوليد بن عقبة ـ والله أعلم ـ انتهى .

قال ابن قتيبة فى (المعارف) : الوليد بن عقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس ، وهو أخو عثمان لأمه ، أروى بنت كريز . أسلم يوم فتح مكة ، وبعثه رسول الله ﷺ مصدقاً إلى بنى المصطلق ، فأتاه فقال : منعونى الصدقة ! وكان كاذباً . فأنزل الله هذه الآية . وولاه عمر على صدقات بنى تغلب ، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص ، فصلى بأهلها صلاة الفجر ، وهو سكران ، أربعاً ، وقال : أزيدكم ؟! فشهدوا عليه بشرب الخمر عند عثمان ، فعزله وحدّه . ولم يزل بالمدينة حتى بويع علىّ ، فخرج إلى الرقّة فنزلها ، واعتزل عليًّا ومعاوية . ومات بناحية الرقّة .

الثانى ـ فى (الإكليل) : فى الآية ردّ خبر الفاسق ، واشتراط العدالة فى المخبر ، راوياً كان ، أو شاهداً ، أو مفتياً . ويستدل بالآية على قبول خبر الواحد العدل . قال ابن كثير : ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال ، لاحتمال فسقه فى نفس الأمر ، وقبلها آخرون ، لأنا إنما أمرنا بالتثبُّت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق ، لأنه مجهول الحال .

الثالث ـ فى قوله تعالى (فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ) فائدتان :

إحداها ـ تقرير التحذير وتأكيده . ووجهه هو أنه تعالى لما قال (أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ) قال بعده : وليس ذلك مما لا يلتفت إليه ، ولا يجوز للعاقل أن يقول : هب أنى أصبت قوماً ، فماذا علىّ ؟ بل عليكم منه الهم الدائم ، والحزن المقيم . ومثل هذا الشىء واجب الاحتراز منه .

والثانية ـ مدح المؤمنين . أى لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها ، بل تصبحون نادمين عليها ـ أفاده الرازىّ ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ، أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ)

« وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ » قال ابن جرير[١] : يقول تعالى ذكره لأصحاب نبىّ الله ﷺ : واعلموا أيها المؤمنون بالله ورسوله أن فيكم رسول الله ، فاتقوا الله أن تقولوا الباطل ، وتفتروا الكذب ، فإن الله يخبره أخباركم ، ويعرفه أنباءكم ، ويقوّمه على الصواب فى أموره .

« لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ » قال الطبرىّ[١] : أى لو كان رسول الله ﷺ يعمل فى الأمور بآرائكم ، ويقبل منكم ما تقولون له ، فيطيعكم ، لنالكم عنتٌ ـ يعنى الشدة والمشقة ـ فى كثير من الأمور ، بطاعته إياكم ، لو أطاعكم ، لأنه كان يخطئ فى أفعاله ، كما لو قبل من الوليد بن عقبة قوله فى بنى المصطلق ، أنهم قد ارتدوا ومنعوا الصدقة ، وجمعوا الجموع لغزو المسلمين ، فغزاهم فقتل منهم ، وأصاب من دمائهم وأموالهم ، كان قد قتل وقتلتم من لا يحل له ولا لكم قتله ، وأخذتم من المال ما لا يحل له ولكم أخذه من أموال قوم مسلمين ، فنالكم من الله بذلك عنت . والعنت : المشقة أو الهلاك أو الإثم أو الفساد .

تنبيه :

(أَنَّ) بما فى حيزها سادة مسدّ مفعولى (ٱعْلَمُوٓا۟) باعتبار ماقيد به من الحال ، وهو قوله: « لَوْ يُطِيعُكُمْ .. » الخ ، فإنه حال من الضمير المجرور فى (فِيكُمْ) المستتر فيه . والمعنى : أنه فيكم كائناً على حالة يجب تغييرها ، أو كائنين على حالة كذلك ، وهى أنكم تودّون أن يتبعكم فى كثير

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

من الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعتم فى الجهل والهلاك . وفيه إيذان بأن بعضهم زين لرسول الله ﷺ أن يقع فى بنى المصطلق ، وأنه لم يطع رأيهم هـذا . ويجوز أن يكون (لَوْ يُطِيعُكُمْ) مستأنفاً . إلا أن الزمخشرىّ منع هذا الاحتمال، قال : لأدائه إلى تنافر النظم، لأنه لو اعتبر (لَوْ يُطِيعُكُمْ . . .) الخ كلاماً برأسه ، لم يأخذ الكلام بحجز بعض ، لأنه لا فائدة حينئذ فى قوله : (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ) إذا قطع عما بعده . وأجيب بجواز أن يقصد به التنبيه على جلالة محله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لجهلهم بمكانه مفرّطون فيما يجب له من التعظيم ، وفى أن شأنهم أن يتبعوه ، ولا يتبعوا آراءهم ، حتى كأنهم جاهلون بأنه بين أظهرهم ، فوضح جواز الاستئناف، والوقف على (رَسُولَ اللَّهِ).

« وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ » أى فما أجدركم أن تطيعوا رسول الله وتأتمّوا به ، فيقيكم الله بذلك من العنت فيما لو استتبعتم رأى رسول الله لرأيكم « وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ » أى بالله « وَالْفُسُوقَ » يعنى الكذب « وَالْعِصْيَانَ » أى مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتضييع ما أمر الله به .

« أُولَئِكَ » أى الموصوفون بمحبة الإيمان ، وتزينه فى قلوبهم ، وكراهتهم المعاصى « هُمُ الرَّاشِدُونَ » أى السالكون طريق الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

« فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً » أى إحساناً منه ، ونعمة أنعمها عليكم . قال القاشانىّ : كان فضلًا بعنايته بهم فى الأزل ، المقتضية للهداية الروحانية الاستعدادية المستتبعة لهذه الكمالات فى الأبد . ونعمة بتوفيقه إياهم للعمل بمقتضى تلك الهداية الأصلية ، وإعانته بإفاضة الكمالات المناسبة لاستعداداتهم ، حتى اكتسبوا ملكة العصمة الموجبة لكراهة المعصية . وهو تعليل لـ (حبّب) و (كرّه) وما بينهما اعتراض ، أو نصب بفعل مضمر ، أى جرى ذلك فضلًا ، أو يبتغون فضلًا .

« وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أي ذو علم بالمحسن والمسيء ، وحكمة فى تدبير خلقه ، وتصريفهم فيما شاء من قضائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ، فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ ، فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ، فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ)

« وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ » أي تقاتلوا « فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا » قال ابن جرير(١) : أي بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه ، لهما وعليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

« فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ » أي فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله ، له وعليه ، وتعدت ماجعل الله عدلًا بين خلقه ، وأجابت الأخرى منهما ، « فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى » أي تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكم الله « حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ » أي ترجع إلى حكم الله الذى حكم فى كتابه بين خلقه « فَإِن فَآءَتْ » أي رجعت الباغية ، بعد قتالكم إياهم ، إلى الرضا بحكم الله فى كتابه « فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ » أي بالإنصاف بينهما ، وذلك حكم الله فى كتابه الذى جعله عدلًا بين خلقه « وَأَقْسِطُوٓا۟ » أي اعدلوا فى كل ما تأتون وتذرون . « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ » أي فيجازيهم أحسن الجزاء .

تنبيهات :

الأول ـ قال القاشانىّ : الاقتتال لا يكون إلا للميل إلى الدنيا ، والركون إلى الهوى ، والانجذاب إلى الجهة السفلية ، والتوجه إلى المطالب الجزئية . والإصلاح إنما يكون من

---

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٧ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

لزوم العدالة فى النفس التى هى ظل المحبة، التى هى ظل الوحدة . فلذلك أمر المؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما ، على تقدير بغيهما . والقتال مع الباغية على تقدير بغى إحداهما ، حتى ترجع. لـكون الباغية مضادة للحق ، دافعة له .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى طائفتين من الأوس والخزرج اقتتلتا فى بعض ما تنازعتا فيه بالنعال والأيدى ، لا بالسيوف ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأتاهم فحجز بينهم وأصلح. روى ذلك من طريق عديدة ، مما يقوى أن القتال الذى نزلت فيه كان حقيقياً .

ويروى عن الحسن أن الاقتتال بمعنى الخصومة ، والقتال بمعنى الدفع مجازاً . قال ـ فيما رواه الطبرىّ [1] عنه ـ : كانت تـكون الخصومة بين الحيين ، فيدعوهم إلى الحـكم ، فيأبون أن يجيبوا ، فأنزل الله (وَإِن طَآئِفَتَانِ) إلى قوله (فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى ...) الآية . يقول: ادفعوا إلى الحـكم ، فـكان قتالهم الدفع . انتهى .

ولا يخفى أن المادة قد تحمل على حقيقتها ومجازها فتتسع لهما . وقد قال اللغويون : ليس كل قتال قتلًا . وقد يفضى الخصام إلى القتل ، فلا مانع أن يراد من الآية ما هو أعم ، لتـكون الفائدة أشمل ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فى (الإكليل) : فى الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغى، وقتال البغاة وهو شامل لأهل مكة كغيرهم، وأن من رجع منهم وأدبر لا يقاتل ، لقوله (حَتَّىٰ تَفِىٓءَ) . انتهى.

وقد روى سعيد عن مروان قال : صرخ صارخ لعلىّ يوم الجمل : لا يقتل مدبر ولا يذفف على جريح ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن .

وقد اتفق الفقهاء على حرمة قتل مدبرهم وجريحهم ، وأنه لا يغنم لهم مال ، ولا تسبى لهم ذرية ، لأنهم لم يكفروا ببغيهم ولا قتالهم . وعصمة الأموال تابعة لدينهم ، ولذا يجب رد ذلك إليهم إن أخذ منهم . ولا يضمنوا ما أتلفوه حال الحرب من نفس أومال . ومن قتل من أهل

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

البغى غسل وكفن وصلى عليه ، فإن قتل العادل كان شهيداً ، فلا يغسل ولا يصلى عليه ، لأنه قتل فى قتال أمره الله تعالى به ، كشهيد معركة الكفار .

وإن أظهر قوم رأى الخوارج . مثل تكفير من ارتكب كبيرة، وترك الجماعة، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم ، ولم يجتمعوا لحرب ، لم يتعرّض لهم . وإن جنوا جناية وأتوا حدًّا، أقامه عليهم .

وإن اقتتلت طائفتان لعصبية ، أو طلب رئاسة ، فهما ظالمتان . لأن كل واحدة منهما باغية على الأخرى ، وتضمن كل واحدة منهما ما أتلف على الأخرى .

هذه شذرة مما جاء فى (الإقناع) و (شرحه) وتفصيله ثمة .

الثالث ـ قال فى (شرح الإقناع) : فى الآية فوائد : منها أنهم لم يخرجوا بالبغى عن الإيمان . وأنه أوجب قتالهم . وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه فى قتالهم . وإجازة كل من منع حقًّا عليه . والأحاديث بذلك مشهورة : منها ما روى عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، فى المنشط والمكره ، وأن لاننازع الأمر أهله (متفق عليه) [1] . وأجمع الصحابة على قتالهم ، فإن أبا بكر قاتل مانعى الزكاة ، وعليًّا قاتل أهل الجمل ، وأهل صفِّين . انتهى .

وتدل الآية أيضا على وجوب معاونة من بغى عليه ، لقوله (فَقَٰتِلُواْ) ، وعلى وجوب تقديم النصح ، لقوله (فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا) ، وعلى السعى فى المصالحة ، وذلك ظاهر .

الرابع ـ وجه الجمع فى (اُقْتَتَلُواْ)، مع أنه قد يقال : مقتضى الظاهر (اقتتلتا) هو الحمل على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس . والنكتة فى اعتبار المعنى أولا ،

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٢ ـ باب قول النبىّ صلى الله عليه وسلم (سترون بعدى أموراً تنكرونها) حديث رقم ٢٥٤٧ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ٤١و٤٢ (طبعتنا) .

واللفظ ثانياً عكس المشهور فى الاستعمال ، ما قيل إنهم أولًا فى حال القتال مختلطون مجتمعون، فلذا جمع أولًا ضميرهم ، وفى حال الإصلاح متميزون متفارقون ، فلذا ثنى الضمير ثانياً . وسرُّ قَرْنِ الإصلاح الثانى بالعدل، دون الأول، لأن الثانى لوقوعه بعد المقاتلة مظنة للتحامل عليهم بالإساءة ، أو لإيهام أنهم لما أحوجوهم للقتال استحقوا الحيف عليهم .

الخامس ـ (أقسط) الرباعىّ همزته للسلب . أى أزيلوا الجور ، واعدلوا . بخلاف (قسط) الثلاثىّ ، فمعناه جار . قال(1) تعالى : (وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) وهذا هو المشهور ـ خلافاً للزجاج ـ فى جعلهما سواء ـ أفاده الكرخىّ ـ . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » استئناف مقرر لما قبله من الأمر بالإصلاح ، فإن من لوازم الإخوة أن يصطلحوا .

قال الشهاب: وتسمية المشاركة فى الإيمان أُخوّة تشبيه بليغ، أو استعارة. شبه المشاركة فيه بالمشاركة فى أصل التوالد ، لأن كلًّا منهما أصل للبقاء ، إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبدىّ فى الجنان .

« فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » أى إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله ، وحكم رسوله.

قال القاشانىّ : بيّن تعالى أن الإيمان الذى أقل مرتبته التوحيد والعمل ، يقتضى الأخوة الحقيقية بين المؤمنين ، للمناسبة الأصلية ، والقرابة الفطرية ، التى تزيد على القرابة الصورية ، والنسبة الولادية ، بما لا يقاس ، لاقتضائه المحبة القلبية ، لا المحبة النفسانية ، المسببة عن

(١) [٧٢ / الجن / ١٥] .

التناسب فى اللحمة . فلا أقل من الإصلاح الذى هو من لوازم العدالة ، وأحد خصالها ، إذ لو لم يعدوا عن الفطرة ، ولم يتكدروا بغواشي النشأة ، لم يتقاتلوا ، ولم يتخالفوا . فوجب على أهل الصفاء ، بمقتضى الرحمة والرأفة والشفقة اللازمة للأخوة الحقيقية ، الإصلاح بينهما ، وإعادتهما إلى الصفاء . انتهى .

تنبيه :

وضع الظاهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين ، للمبالغة فى التقرير والتخصيص . وتخصيص الاثنين بالذكر دون الجمع ، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان . فإذا لزمت المصالحة بين الأقل ، كانت بين الأكثر ألزم ، لأن الفساد فى شقاق الجمع ، أكثر منه فى شقاق الاثنين ـ أفاده القاضي والزمخشريّ ـ .

وفى معنى الآية أحاديث كثيرة : كحديث[١] (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) . وحديث[٢] (والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه) . وحديث[٣] (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) . وحديث[٤] (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وشبّك بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ـ وكلها فى الصحاح ـ .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٤٦ ـ كتاب المظالم والغصب ، ٣ ـ باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يُسْلمه ، حديث ١٢٠٢ ، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر ، حديث رقم ٣٨ (طبعتنا) عن أبى هريرة .

(٣) أخرجه البخاريّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٢٧ ـ باب رحمة الناس والبهائم ، حديث ٢٣٢٢ ، عن النعمان بن بشير .

(٤) أخرجه البخاريّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٨٨ ـ باب تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره ، حديث رقم ٣١٩ ، عن أبى موسى .

« وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى خافوا مخالفة حكمه ، والإهمال فيه ، ليرحمكم فيفصح عن سالف آثامكم ، ويثيبكم رضوانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ » أى لا يهزأ رجال من رجال ، فيروا أنفسهم خيراً من المسخور منهم « عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ » أى الساخرات .

قال أبو السعود: فإن مناط الخيرية فى الفريقين، ليس مايظهر للناس من الصور والأشكال ولا الأوضاع والأطوار التى عليها يدور أمر السخرية غالباً . بل إنما هو الأمور الكامنة فى القلوب ، فلا يجترئ أحد على استحقار أحد، فلعله أجمع منه، لما نيط به من الخيرية عند الله تعالى ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى ، والاستهانة بمن عظمه الله تعالى . ومن أهل التأويل من خص السخرية بما يقع من الغنىّ للفقير . وآخرون بما يعثر من أحد على زلة أو هفوة ، فيسخر به من أجلها .

قال الطبرىّ(١) : والصواب أن يقال إن الله عمّ ، بنهيه المؤمنين من أن يسخر بعضهم من بعض ، جميعَ معانى السخرية . فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن ، لا لفقره ، ولا لذنب ركبه ، ولا لغير ذلك .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقد عدّ الغزالىّ فى (الإحياء) السخرية من آفات اللسان ، وأوضح معناها بما لا مطلب وراءه فننقله هنا تتميماً للفائدة ، قال رحمه الله .

الآفة الحادية عشرة ـ السخرية والاستهزاء : وهـذا محرم مهما كان مؤذياً ، كما قال تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ . . .) الآية . ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص، على وجه يُضحك منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء . وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة .

وقالت عائشة رضى الله عنها : حاكيت ، فقال لى النبىّ صلى الله عليه وسلم: والله ما أحب أنى حاكيت إنساناً ، ولى كذا وكذا .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى[1] (يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا) إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك .

وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب الكبائر .

وقال معاذ بن جبل : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : من عيّر أخاه بذنب قد تاب منه، لم يمت حتى يعمله .

وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير ، والضحك عليه ، والاستهانة به، والاستصغار له. وعليه نبه قوله تعالى (عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ) . أى لا تستحقره استصغاراً ، فلعله خير منك . وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به . فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية فى حقه من جملة المزح . ومنه ما يذم وما يمدح . وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به، لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة ، كالضحك على حفظه

---

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] .

وعلى صنعته أو على صورته وخلقته ، إذا كان قصيراً أو ناقصاً ، لعيب من العيوب، فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهىّ عنها . انتهى .

لطيفة :

قال أبو السعود : القوم مختص بالرجال ، لأنهم القوّام على النساء (والأحسن المهمات) وهو فى الأصل إما جمع قائم كصَوْم وزَوْر فى جمع صائم وزائر . أو مصدر نعت به فشاع فى الجمع . وأما تعميمه للفريقين فى مثل قوم عاد وقوم فرعون ، فإما للتغليب، أولأنهن توابع. واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية فى المجامع . والتنكير إما للتعميم أو للقصد إلى نهى بعضهم عن سخرية بعض ، لما أنها مما يجرى بين بعض وبعض .

« وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ » أى لا يعيب بعضكم على بعض ولا يطعن .

قال الشهاب : ضمير (تَلْمِزُوٓاْ) للجمع بتقدير مضاف فيه . و (أَنفُسَكُمْ) عبارة عن بعض آخر من جنس المخاطبين ، وهم المؤمنون ، فجعل ما هو من جنسهم بمنزلة أنفسهم ، كما فى قوله(١) (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ) وقوله(٢) (وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ) ، فأطلق الأنفس على الجنس استعارة . ففى اللفظ الكريم تجوّز ، وتقدير مضاف . والنهى على هذا مخصوص بالمؤمنين ، وهو مغاير لما قبله ، وإن كان مخصوصاً بالمؤمنين أيضاً بحسب المفهوم ، لتغاير الطعن والسخرية ، فلا يقال إن الأول مغن عنه، إذ السخرية ذكره بما يكره على وجه مضحك بحضرته ، وهذا ذكره بما يكره مطلقاً . أو هو تعميم بعد التخصيص ، كما يعطف العام على الخاص ، لإفادة الشمول . وقيل : إنه من عطف العلة على المعلول ، أو اللمز مخصوص بما كان على وجه الخفية، كالإشارة . أو هو من عطف الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مبالغة . انتهى .

وقيل : معنى الآية : لا تفعلوا ما تلمزون به ، فإن من فعل ما استحق به اللمز ، فقد لمز نفسه .

---

(١) [٩/ التوبة / ١٢٨] . (٢) [٤ النساء / ٢٩] .

قال الشهاب : فـ (أَنفُسَكُمْ) على ظاهره والتجوّز فى قوله (تَلْمِزُوٓاْ) . فهو مجاز ذكر فيه المسبّب ، وأريد السبب . والمراد : لاترتكبوا أمرًا تعابون به . وضعف بأنه بعيد من السياق ، وغير مناسب لقوله (وَلَا تَنَابَزُواْ)، كما فى (الكشف)، وكونه من التجوّز فى الإسناد ، إذ أسند فيه ما للمسبب إلى السبب ، تكلف ظاهر . وكذا كونه كالتمليل للنهى السابق ، لا يدفع كونه مخالفاً للظاهر . وكذا كون المراد به لاتتسببوا فى الطعن فيكم ، بالطعن على غيركم ، كما فى الحديث [١] (من الكبائر أن يشتم الرجل والديه) ، إذ فُسِّر بأنه إذا شتم والدى غيره ، شتم الغيرُ والديه أيضاً .

« وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ » أى ولا تداعوا بالألقاب التى يكره النبز بها الملقب فقد روى أنه عنى بها قوم كانت لهم أسماء فى الجاهلية ، فلما أسلموا كانوا يغضبون من الدعاء بها رواه أحمد [٢] وأبو داود . وفسره بعض السلف بقول الرجل للرجل : يافاسق ، يامنافق ! ، وبعض بتسمية الرجل بالكفر بعد الإسلام ، وبالفسوق بعد التوبة . والآية ـ كما قال ابن جرير [٣] ـ : تشمل ذلك كله . قال : لأن التنابز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة .

« بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ » قال الزمخشرىّ : (ٱلِٱسْمُ) هٰهنا بمعنى الذكر . من قولهم : طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته . وحقيقته ما سما ذكره ، وارتفع بين الناس . ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره ؟ كأنه قيل بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر ، أن يذكروا بالفسق . وفى قوله (بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ) ثلاثة أوجه :

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٤٦ (طبعتنا) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٦٠ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أحدها ـ استقباح الجمع بين الإيمان وبين الفسق الذى يأباه الإيمان ويحظره، كما تقول : بئس الشأن بعد الكبرة ، الصبوةُ .

والثانى ـ أنه كان فى شتائمهم لمن أسلم من اليهود : يا يهوديّ ! يا فاسق ! فنهوا عنه ، وقيل لهم : بئس الذكر ، أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه . والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهى عن التنابز .

والثالث ـ أن يجعل من فسق غير مؤمن، كما تقول للمتحوّل عن التجارة إلى الفلاحة : بئست الحرفة ، الفلاحة بعد التجارة . انتهى .

واختار ابن جرير(١) الثالث ، لا ذهاباً لرأى المعتزلة من أن الفاسق غير مؤمن ، كما أنه غير كافر ، فهو فى منزلة بين المنزلتين ؛ بل لأن السياق يقتضى ختم الكلام بالوعيد ، فإن التلقيب بما يكرهه الناس أمر مذموم لا يجتمع مع الإيمان ، فإن شعار الجاهلية . وعبارته : يقول تعالى ذكره: ومن فعل ما نهينا عنه، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه، فسخر من المؤمنين، ولمز أخاه المؤمن ، ونبزه بالألقاب ، فهو فاسق (بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ) يقول: فلاتفعلوا فتستحقوا، إن فعلتموه ، أن تسموا فساقا، بئس الاسم الفسوق . وترك ذكر ماوصفنا من الكلام ، اكتفاء بدلالة قوله (بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ) عليه . ثم ضعف القول الثانى وقال(٢) : وغير ذلك من التأويل أولى بالكلام، وذلك أن الله تقدم بالنهى عما تقدم النهى عنه فى أول هذه الآية ، فالذى هو أولى أن يختمها بالوعيد لمن تقدم على بغيه ، أو بقبيح ركوبه ما ركب مما نهى عنه ، لا أن يخبر عن قبح ما كان التائب أتاه قبل توبته ، إذ كانت الآية لم تفتتح بالخبر عن ركوبه ما كان ركب قبل التوبة من القبيح ، فيختم آخرها بالوعيد عليه ، أو بالقبيح . انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية)

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

« وَمَن لَّمْ يَتُبْ » أى من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه به من الألقاب ، أو لمزه إياه، أو سخريته منه « فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ » أى الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها العقاب بركوبهم ما نهوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ »أى كونوا على جانب منه . وذلك بأن تظنوا بالناس سوءًا، فإن الظانّ غير محقق . وإبهام (الكثير) لإيجاب الاحتياط والتورع فيما يخالج الأفئدة من هواجسه، إذ لاداعية تدعو المؤمن للمشى وراءه، أو صرف الذهن فيه، بل من مقتضى الإيمان ظن المؤمنين بأنفسهم الحسن. قال تعالى[1] (لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ) . نعم ! من أظهر فسقه ، وهتك ستره ، فقد أباح عرضه للناس . ومنه ما روى : من ألقى جلباب الحياء ، فلا غيبة له. ولذا قال الزمخشرىّ : والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة ، وسبب ظاهر ، كان حراماً واجب الاجتناب . وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظنّ الفساد والخيانة به محرم ، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطى الريَب ، والمجاهرة بالخبائث .

« إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ » وهو ظن المؤمن بالمؤمن الشر ، لا الخير « إِثْمٌ » أى مكسب للعقاب ، لأن فيه ارتكاب ما نهى عنه .

---

(١) [٢٤ / النور / ١٢] .

قال حجة الإسلام الغزالىّ فى (الإحياء) فى بيان تحريم الغيبة بالقلب : اعلم أن سوء الظن حرام ، مثل سوء القول . فكما يحرم عليك أن تحدّث غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تحدّث نفسك ، وتسىء الظن بأخيك . قال : ولست أعنى به إلا عقد القلب ، وحكمه على غيره بسوء الظن . فأما الخواطر وحديث النفس، فهو معفوّ عنه، بل الشك أيضا معفوّ عنه. ولكن المنهىّ عنه أن يظن. والظن عبارة عما تركن إليه النفس، ويميل إليه القلب. فقد قال تعالى « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ». قال : وسبب تحريمه أن أسرار القلوب ، لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد فى غيرك سوءًا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل . فعند ذلك لا يمكنك أن لا تعتقد ما علمته وشاهدته . وما لم تشاهده بعينك ، ولم تسمعه بأذنك ، ثم وقع فى قلبك ، فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغى أن تكذّبه فإنه أفسق الفساق . إلى أن قال : فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو بعينٍ مشاهدة ، أو بينة عادلة . انتهى .

ولما كان من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، ذكر سبحانه النهى عنه، إثر سوء الظن لذلك، فقال تعالى « وَلَا تَجَسَّسُوا۟ » قال ابن جرير(١) : أى لا يتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره ، يبتغى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمونه من سرائره .

يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه ، وبحث عنه ، كتلمس . قال الشهاب : الجس (بالجيم) كاللمس ، فيه معنى الطلب، لأن من يطلب الشىء يمسه ويجسه ، فأريد به ما يلزمه. واستعمل التفعل للمبالغة فيه .

قال الغزالىّ : ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله. فيتوصل إلى الاطلاع، وهتك الستر ، حتى ينكشف له ما لو كان مستورًا عنه ، كان أسلم لقلبه ودينه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

وقد روى في معنى الآية أحاديث كثيرة . منها حديث[١] أن النبي ﷺ خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن ، فقال : يا معشر من آمن بلسانه، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ! لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ، ولو في جوف بيته .

وفي الصحيح[٢] عنه صلى الله عليه وسلم : لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

وروى أبو داود[٣] ؛ أن ابن مسعود رضي الله عنه أتى برجل ، فقيل له : هذا فلان ، تقطر لحيته خمراً ! فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به ـ والرجل سماه ابن أبي حاتم في روايته : الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وروى أبو داود[٤] عن معاوية قال : سمعت النبي ﷺ يقول : إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ، نفعه الله بها .

وروى الإمام أحمد[٥] عن دجين ، كاتب عقبة، قال : قلت لعقبة: إنا لنا جيراناً يشربون

(١) أخرجه الترمذيّ في: ٢٥ـ كتاب البرّ والصلة، ٨٥ ـ باب ماجاء في تعظيم المؤمن، عن ابن عمر .

(٢) أخرجه البخاريّ في : ٦٧ـ كتاب النكاح : ٤٥ـ باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع ، حديث رقم ٢١٢٥ ، عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه أبو داود في : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٣٧ ـ باب في النهي عن التجسس ، حديث رقم ٤٨٩٠ .

(٤) أخرجه أبو داود في : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٣٧ ـ باب في النهي عن التجسس، حديث رقم ٤٨٨٨ .

(٥) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٤٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبيّ) .

الخمر ، وأنا داع لهم الشُّرَط فيأخذونهم ! قال : لا تفعل، ولـكن عظهم وتهددهم ! قال: ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني نهيتهم فلم ينتهوا ، وإني داع لهم الشُّرَط فتأخذهم! فقال له عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من ستر عورة مؤمن فـكأنما استحيي موؤودة من قبرها !

وروى أبو داود [(١)] عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال : إن الأمير إذا ابتغى الريبـة في الناس أفسدهم .

قال الأوزاعيّ : ويدخل في التجسس استماع قوم وهم له كارهون .

« وَلَا يَغْتَب بَّعْضُـكُم بَعْضًا » أي لا يقل بعضكم في بعض بظهر الغيب، ما يكره المقول فيه ذلك ، أن يقال له في وجهه . يقال : غابه واغتابه ، كغاله واغتاله، إذا ذكره بسوء في غيبته. « أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَـكَرِهْتُمُوهُ » ؟ أي فلو عرض عليكم ، نفرت عنه نفوسكم ، وكرهتموه . فلذا ينبغي أن تـكرهوا الغيبة . وفيه استعارة تمثيلية ، مثّـل اغتياب الإنسان لآخر بأكل لحم الأخ ميتاً .

لطائف :

الأولى ـ قال الزمخشريّ : (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى : منها ـ الاستفهام الذى معناه التقرير (وهو يفيد المبالغة من حيث أنه لا يقع إلا في كلام مسلم عند كل سامع ، حقيقةً أو ادعاءً) ومنها ـ جعل ما هو الغاية من الـكراهة موصولًا بالمحبة . ومنها ـ إسناد الفعل إلى (أحدكم) والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك .

ومنها ـ أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أخا. ومنها ـ أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ ، حتى جعل ميتاً . انتهى .

---

(١) أخرجه في : ٤٠ كتاب الأدب ، ٣٧ ـ باب في النهى عن التجسس ، حديث حديث رقم ٤٨٨٩ .

وقال ابن الأثير فى (المثل السائر) فى بحث الكناية : فمن ذلك قوله تعالى (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ) الخ فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً ، ثم جعل ماهو الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة . فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له ، مطابقة للمعنى الذى وردت من أجله . فأما جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، فشديد المناسبة جداً ، لأن الغيبة إنما هى ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم . وتمزيقُ العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه ، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة . وأما جعله كلحم الأخ فلما فى الغيبة من الكراهة ، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها ، آمران بتركها ، والبعد عنها . ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ فى كراهته . ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر ، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه . فهذا القول مبالغة فى استكراه الغيبة . وأما جعله ماهو فى الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة ، فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة ، والشهوة لها ، مع العلم بقبحها فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبهاً ، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التى أشرنا إليها ، وجدتها مناسبة لما قصدت له . انتهى.

الثانية ـ الفاء فى قوله تعالى (فَكَرِهْتُمُوهُ) فصيحة فى جواب شرط مقدّر . والمعنى : إن صح ذلك ، أو عرض عليكم هذا ، فقد كرهتموه ، فما ذكر جواب للشرط ، وهو ماض فيقدر معه (قد) ليصح دخول الفاء على الجواب الماضى ، كما فى قوله تعالى[1] (فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ) وضمير (فَكَرِهْتُمُوهُ) للأكل ، وقد جوز كونه للاغتياب المفهوم منه . والمعنى : فاكرهوه كراهيتكم لذلك الأكل . وعبر عنه بالماضى للمبالغة ، فإذا أوِّل بما ذكر يكون إنشائيًّا غير محتاج لتقدير (قد) ـ أفاده الشهاب ـ .

الثالثة ـ قال ابن الفرَس : يستدل بالآية على أنه لا يجوز للمضطر أكل ميتة الآدمىّ ،

(١) [٢٥ / الفرقان / ١٩] .

لأنه ضرب به المثل فى تحريم الغيبة، ولم يضرب بميتة سائر الحيوان. فدل على أنه فى التحريم فوقها . ومن أراد استيفاء مباحث الغيبة فعليه (بالإحياء) للغزالىّ ، فإنه جمع فأوعى .

« وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ » أى خافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظن السوء والتجسس عما ستر والاغتياب وغير ذلك من المناهى. « إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ » أى يقبل توبة التائبين إليه ، ويتكرم برحمته عن عقوبتهم بعد متابهم .

ثم نبه تعالى، بعد نهيه عن الغيبة واحتقار الناس بعضهم لبعض، على تساويهم فى البشرية، كما قال ابن كثير ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ » أى من آدم وحواء . أو من ماء ذكر من الرجال ، وماء أنثى من النساء . أى : من أب وأم ، فما منكم أحد إلا وهو يدلى بمثل مايدلى به الآخر ، سواء بسواء ، فلا وجه للتفاخر والتفاضل فى النسب .

« وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ » قال ابن جرير(١) : وجعلناكم متناسبين ، فبعضكم يناسب بعضاً نسباً بعيداً ، وبعضكم يناسب بعضاً نسباً قريباً . ليعرف بعضكم بعضاً فى قرب القرابة منه وبعده ، لا لفضيلة لكم فى ذلك ، وقربة تقربكم إلى الله ، بل كما قال تعالى « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ » أى أشدكم اتقاء له وخشية بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، لا أعظمكم بيتاً ، ولا أكثركم عشيرة .

« إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » أى بظواهركم وبواطنكم ، وبالأتقى والأكرم ، وغير ذلك ، لا تخفى عليه خافية .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

تنبيهات :

الأول ـ حكى الثعالبيّ فى (فقه اللغة) فى تدريج القبيلة من الكثرة إلى القلة عن ابن الكلبيّ عن أبيه : أن الشَّعب (بفتح الشين) أكبر من القبيلة ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، (بكسر العين) ثم البطن ، ثم الفخذ . وعن غيره : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، ثم الذرية ، ثم العترة ، ثم الأسرة . انتهى .

وقال الشيخ ابن برّى : الصحيح فى هـذا مارتبه الزبير بن بكار وهو : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة . قال أبو أسامة : هذه الطبقات على ترتيب خلق الإنسان ، فالشعب أعظمها ، مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبيلة الرأس لاجتماعها ، ثم العمارة وهى الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة وهى الساق . وزاد بعضهم العشيرة فقال :

اقصد الشَّعب فهو أكثر حىّ عدداً فى الحواء ثم القبيله
ثم يتلوها العِمارة ثم الْـ ـبَطْنُ والفخذُ بعدها والفصيله
ثم من بعدها العشيرة لكن هى فى جنب ما ذكرنا قليله

فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصىّ بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت (الشعوب) لأن القبائل تشعبت منها . و (الشعوب) جمع شعب ، بفتح الشين .

قال أبو عبيد البكرىّ فى (شرح نوادر أبى على القالى) : كل الناس حكى الشعب فى القبيلة بالفتح ، وفى الجبل بالكسر ، إلا بندار فإنه رواه عن أبى عبيدة بالعكس . نقله الزبيدىّ فى (تاج العروس) .

الثانى ـ فى الآية الاعتناء بالأنساب ، وأنها شرعت للتعارف ، وذم التفاخر بها ، وأن التقىّ غير النسيب ، يقدم على النسيب غير التقىّ ، فيقدم الأورع فى الإمامة على النسيب غيرها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن وهب قال: سألت مالكاً عن نكاح الموالى العربية فقال: حلال ، ثم تلا هذه الآية ، فلم يشترط فى الكفاءة الحرية ـ نقله فى (الإكليل) ـ .

وقال ابن كثير : استدل بالآية ، من ذهب إلى أن الكفاءة فى النكاح لاتشترط ، ولا يشترط سوى الدين .

الثالث أفاد قوله تعالى (لِتَعَارَفُوٓاْ) حصر حكمة جعلهم شعوباً وقبائل فيه . أى إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً ، فتصلوا الأرحام ، وتبينوا الأنساب والتوارث ، لا للتفاخر بالآباء والقبائل .

قال الشهاب : الحصر مأخوذ من التخصيص بالذكر ، والسكوت فى معرض البيان .

وقال القاشانىّ : معنى قوله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ) لا كرامة بالنسب ، لتساوى الكل فى البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى. والامتياز بالشعوب والقبائل إنما يكون لأجل التعارف بالانتساب ، لا للتفاخر ، فإنه من الرذائل . والكرامة لاتكون إلا بالاجتناب عن الرذائل الذى هو أصل التقوى . ثم كلما كانت التقوى أزيد رتبة ، كان صاحبها أكرم عند الله، وأجل قدراً . فالمتقى عن المناهى الشرعية، التى هى الذنوب، فى عرف ظاهر الشرع ، أكرم من الفاجر ، وعن الرذائل الخلقية كالجهل والبخل والشره والحرص والجبن ، أكرم من المجتنب عن المعاصى الموصوف بها . انتهى .

الرابع ـ روى فى معنى الآية أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخارىّ[1] عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أىّ الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبى الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا : نعم . قال : فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا .

(١) أخرجه فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٨ ـ باب قول الله تعالى (وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا) ، حديث رقم ١٥٨٧ .

وروى مسلم[١] عنه أيضاً : قال رسول الله ﷺ : إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

وروى الإمام[٢] أحمد عن أبي ذر قال : إن النبيّ ﷺ قال له : انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود ، إلا أن تفضله بتقوى الله .

وروى البزار في مسنده عن حذيفة عن النبيّ ﷺ : كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان .

وروى عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر ؛ أن النبيّ ﷺ قال في خطبته يوم فتح مكة : أيها الناس ! إن الله تعالى قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وتعظمها بآبائها . فالناس رجلان : رجل برٌّ تقيّ كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقيّ ، هين على الله تعالى. إن الله عز وجل يقول : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ . . .) الآية .

وبقيت أحاديث أخر ساقها ابن كثير ، فانظرها .

وروى الطبري[٣] عن عطاء قال : قال ابن عباس: ثلاث آيات جحدهن الناس: الإذن كله وقال : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ) وقال الناس : أكرمكم أعظمكم بيتاً . قال عطاء : نسيت الثالثة .

ولما كانت طليعة السورة في الحديث عن جفاة الأعراب، والإنكار على مساوئ أخلاقهم، ثم تأثرها من المناهي عن المنكرات التي تكثر فيهم ، ما كانوا فيها هم المقصود أولاً وبالذات، ثم غيرهم ثانياً وبالعرض ختمها بتعريف أن من كان على شاكلتهم في ارتكاب تلك المناهي ، فهو ممن لم يخامر فؤاده الإيمان، ثم بيان مَن المؤمن حقاً، ليفقهوا أن الأمر ليس كما يزعمون، فقال سبحانه وتعالى :

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب . حديث رقم ٣٤ (طبعتنا) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ١٥٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا، قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ، وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ » أى المحدث عنهم فى أول السورة « ءَامَنَّا » أى بالله ورسوله ، فنحن مؤمنون ، زعماً أن التلفظ بمـادة الإيمان هو عنوان كل مكرمة وإحسان . « قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ » أى لستم مؤمنين ، وإن أخبرتم عنه، لأن الإيمان قول وعمل . « وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا » أى انقدنا ودخلنا فى السلم خوف السباء والقتل «وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ» أى لأنه لو حل الإيمان فى القلوب لتأثر منه البدن ، وظهر عليه مصداقه من الأعمال الصالحة، والبعد من ركوب المناهى ، فإن لـكل حق حقيقة ، ولـكل دعوى شاهد. فإن قيل : فى قوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ) بعـد قوله (قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟) شبه التـكرار من غير استقلال بفائدة متجددة ؟ والجواب : إن فائدة قوله (لَّمْ تُؤْمِنُوا۟) تـكذيب دعواهم ، وقوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ) توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم : ولـكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتـكم ، لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير فى (قُولُوٓا۟) . وما فى (لَمَّا) من معنى التوقع ، دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ، فلا تـكرار . هـذا ما أشار له الزمخشرىّ ، واختار كون الجملة حالًا ، لا مستأنفة ، إخبارًا منه تعالى ، فإنه غير مفيد لما ذكر .

تنبيهات :

الأول ـ قال فى (الإكليل) : استدل بالآية من لم ير الإيمان والإسلام مترادفين ، بل بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق، لأن الإسلام الانقياد للعمل ظاهرًا ، والإيمان تصديق القلب كما قال (وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ) . انتهى .

obeikandl.com

وأهل الحجاز ـ لأنه ليتاً ـ وحكى الأصمعيّ عن أم هشام السلولية أنها قالت : الحمد لله الذى لا يفات ولا يلات ولا تصمه الأصوات . وقرئ باللغتين (لَا يَلِتْكُمْ) و (لا يألتكم). ونحوه فى المعنى[1] (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) .

« إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى لمن أطاعه وتاب إليه من سالف ذنوبه ، فأنيبوا إليه أيها الأعراب ، وتوبوا من النفاق ، واعقدوا قلوبكم على الإيمان ، والعمل بمقتضياته ، يغفر لكم ويرحمكم .

ثم بين تعالى الإيمان ، وما به يكون المؤمن مؤمناً ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ، أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ)

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ » أى لم يقع فى نفوسهم شك فيما آمنوا به من وحدانية الله ونبوّة نبيه ، وألزموا نفوسهم طاعة الله ، وطاعة رسوله ، والعمل بما وجب عليهم من فرائض الله بغير شك فى وجوب ذلك عليهم . « وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى جاهدوا المشركين بإنفاق أموالهم ، وبذل مهجهم فى جهادهم ، على ما أمرهم الله به من جهادهم ، وذلك سبيله ، لتكون كلمة الله العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ـ قاله ابن جرير[2] : وقدّمنا مراراً أن قصر (سبيل الله) على غزو الكفار المعتدين، من باب قصر العام على أهم أفراده وأعلاها، وإلا فسبيل الله يعم العبادات والطاعات كلها ، لأنها فى سبيله وجهته .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

obeikandl.com

قال الشهاب: وقدم الأموال، لحرص الإنسان عليها، فإن ماله شقيق روحه. و(جاهدوا) بمعنى : بذلوا الجهد . أو مفعوله مقدر ، أى العدوّ أو النفس والهوى .

« أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ » أى الذين صدقوا فى ادّعاء الإيمان ، لظهور أثر الصدق على جوارحهم، وتصديق أفعالهم وأقوالهم. وفيه تعريض بكذب أولئك الأعراب فى ادعائهم الإيمان وإفادة للحصر . أى : هم الصادقون ، لا هؤلاء ، أو إيمانهم إيمان صدق وجد .

تنبيهات :

الأول ـ قال فى (الإكليل) : فى الآية دليل على أن الأعمال من الإيمان . وقدمنا أن هذا ما لا خلاف فيه بين السلف ، وليراجع فى ذلك ما بسطه ابن حزم رحمه الله فى (الفِصَل).

الثانى ـ قال القاشانىّ: فى قوله تعالى (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ..) الآية إشارة إلى الإيمان المعتبر الحقيقىّ، وهو اليقين الثابت فى القلب المستقر الذى لا ارتياب معه ، لا الذى يكون على سبيل الخطرات ، فالمؤمنون هم الموقنون الذين غلبت ملكة اليقين قلوبهم على نفوسهم ، ونورتها بأنوارها ، فتأصلت فيها ملكة القلوب حتى تأثرت بها الجوارح، فلم يمكنها إلا الجرى بحكمها، والتسخر لهيأتها ، وذلك معنى قوله (وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ) بعد نفى الارتياب عنهم ، لأن بذل المال والنفس فى طريق الحق هو مقتضى اليقين الراسخ، وأثره فى الظاهر. انتهى .

الثالث ـ قال فى (الكشاف) : فإن قلت : ما معنى (ثمَ) ههنا ، وهى للتراخى . وعدمُ الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان ، لأنه وصف فيه ، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التى حقيقتها التيقن وانتفاء الريب ؟ قلت : الجواب على طريقين :

أحدهما ـ أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان ، أو بعض المضلين ، بعد ثلج الصدر ، فشككه وقذف فى قلبه ما يثلم يقينه . أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك ، ثم يستمر على ذلك ، راكباً رأسه ، لا يطلب له مخرجاً . فوصف المؤمنون حقًّا بالبعد عن هذه الموبقات . ونظيره قوله (ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ) .

والثانى ـ أن الإيقان وزوال الريب ، لما كان ملاك الإيمان، أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان، تنبيهاً على مكانه . وعطف على الإيمان بكلمة التراخى ، إشعارًا باستقراره فى الأزمنة المتراخية المتطاولة غضًّا جديدًا . انتهى .

يعنى : أنه إما لنفى الشك عنهم فيما بعد ، فدل على أنهم كما لم يرتابوا أولًا لم تحدث لهم ريبة ، فالتراخىّ زمانىّ لا رتبىّ على ما مرّ فى قوله: (ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ) . أو عطفه عليه عطف جبريل على الملائـكة ، تنبيهاً على أصالته فى الإيمان ، حتى كأنه شىء آخر . فثم دلالة على استمراره قديماً وحديثاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ أَتُعَـلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

« قُلْ » أى لهؤلاء الأعراب القائلين بأفواههم (ءَامَنَّا) . «أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّـهَ بِدِينِكُمْ» أى أتخبرونه بقولـكم (ءَامَنَّا) ، بطاعتكم إياه لتكونوا مع المؤمنين عنده ، ولا تبالون بعلمه بما أنتم عليه ، من التعليم ، بمعنى الإعلام والإخبار ، فلذا تعدى للثانى بالباء . وقيل : تعدى بها لتضمين معنى الإحاطة أو الشعور . وفيه تجهيل لهم وتوبيخ . أى لأن قولهم (ءَامَنَّا) إن كان إخبارًا للخلق فلا دليل على صدقه ، وإن كان للحق تعالى فلا معنى له ، لأنهم كيف يعلمونه، وهو العالم بكل شىء، كما قال « وَٱللَّـهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّـهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » قال ابن جرير[١] : هذا تقدم من الله إلى هؤلاء الأعراب بالنهى عن أن يكذبوا ويقولوا غير الذى هم عليه فى دينهم . يقول : الله محيط بكل شىء عالم به ، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائركم ، فينالـكم عقوبته ، فإنه لا يخفى عليه شىء .

ثم أشار إلى نوع آخر من جفائهم ، مختوماً بتوعدهم ، بقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ، بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

« يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا » أى انقادوا وكثّروا سواد أتباعك . « قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم » أى بإسلامكم ، إذ لا ثمرة منه إلىّ[١] (مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ) « بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى قولكم (ءَامَنَّا) لكن علم الله من قلوبكم أنكم كاذبون ، لاطلاعه على الغيوب ، كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ » قال ابن جرير[٢] يقول تعالى ذكره : إن الله أيها الأعراب لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب ، ومن الداخل منكم فى ملة الإسلام رغبة فيه ، ومن الداخل فيه رهبة من الرسول وجنده ، فلا تعلّمونا دينكم وضمائر صدوركم ، فإن الله لا يخفى عليه شىء فى خبايا السموات والأرض.

تنبيهات :

الأول ـ روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ! أسلمنا وقاتلتك العرب ، ولم نقاتلك . فقال رسول الله ﷺ : إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم ـ ونزلت هذه الآية ـ .

وقال ابن زيد : هذه الآيات نزلت فى الأعراب . ولا يبعد أن يكون الحدث عنهم

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فى آخر السورة من جفاة الأعراب ، غير المعنيّين أولها ، وإنما ضموا إليهم لاشتراكهم معهم فى غلظة القول وخشونته . ويحتمل أن يكون النبأ لقبيلة واحدة ـ والله أعلم ـ .

الثاني ـ فى قوله تعالى (بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ...) الآية ، ملاحظة المنة لله ، والفضل فى الهداية ، والقيام بواجب شكرها ، والاعتراف بها ، كما قال النبيّ ﷺ للأنصار يوم حنين[١] : يا معشر الأنصار ! ألم أجدكم ضلّالًا فهداكم الله بى ، وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بى . وكنتم عالة فأغناكم الله بى ؟ ـ كلما قال شيئًا ، قالوا : الله ورسوله أمنّ .

وما ألطف قول أبى إسحاق الصابى فى طليعة كتاب له ، بعد الثناء على الله تعالى :

وبعث إليهم رسلًا منهم يهدونهم إلى الصراط المستقيم ، والفوز العظيم ، ويعدلون بهم عن المسلك الذميم ، والمورد الوخيم ، فكان آخرهم فى الدنيا عصرًا ، وأولهم يوم الدين ذكرًا ، وأرجحهم عند الله ميزانًا ، وأوضحهم حجة وبرهانًا ، وأبعدهم فى الفضل غاية ، وأبهرهم معجزة وآية ، محمد صلى الله عليه وسلم تسليما ، الذى اتخذه صفيًّا وحبيبًا ، وأرسله إلى عباده بشيرًا ونذيرًا ، على حين ذهابٍ منهم مع الشيطان ، وصدوف عن الرحمن ، وتقطيع للأرحام ، وسفك للدماء الحرام ، واقتراف للجرائم ، واستحلال للمآثم . أنوفهم فى المعاصى حمية ، ونفوسهم فى غير ذات الله أبية ، يدعون معه الشركاء ، ويضيفون إليه الأكفاء ، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئًا . فلم يزل ﷺ يقذف فى أسماعهم فضائل الإيمان ، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن ، ويدعوهم إلى عبادة الله باللطف لمّا كان وحيدًا ، وبالعنف لمّا وجد أنصارًا وجنودًا . لا يرى للكفر أثرًا إلا طمسه ومحاه ، ولا رسمًا إلا أزاله وعفّاه ، ولا حجة مموّهة إلا كشفها ودحضها ، ولا دعامة مرفوعة إلا حطها ووضعها ، حتى ضرب الحق بجرانه ، وصدع ببيانه ، وسطع بمصباحه ، ونصع بأوضاحه ، واستنبط الله هذه الأمة من حضيض النار ، وعلّاها إلى ذروة الصلحاء والأبرار ، واتصل حبلها بعد البتات ،

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٥٦ ـ باب غزوة الطائف ، حديث رقم ١٩٣١ ، عن عبد الله بن زيد بن عاصم .

والتأم شملها بعد الشتات ، واجتمعت بعد الفرقة ، وتوادعت بعد الفتنة ، فصلى الله عليه صلاة زاكية نامية ، رائحة غادية ، منجزة عدته ، رافعة درجته .

الثالث ـ قال الرازيّ : هـذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق . وهى إما مع الله تعالى ، أو مع الرسول ﷺ ، أو مع غيرهما من أبناء الجنس . وهم على صنفين : لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، وداخلين فى رتبة الطاعة ، أو خارجاً عنها ، وهو الفاسق . والداخل فى طائفتهم ، السالك لطريقتهم ، إما أن يكون حاضراً عندهم ، أو غائباً عنهم ، فهذه خمسة أقسام :

أحدها ـ يتعلق بجانب الله .

وثانيها ـ بجانب الرسول .

وثالثها ـ بجانب الفسّاق .

ورابعها ـ بالمؤمن الحاضر .

وخامسها ـ بالمؤمن الغائب .

فذكر الله تعالى فى هذه السورة خمس مرات (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) ، وأرشد فى كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة .

فقال أولًا (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) ، وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله ، لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله .

وقال ثانياً (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ) لبيان وجوب احترام النبيّ ﷺ .

وقال ثالثاً (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ) لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم ، وبيّن ذلك عند تفسير قوله (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ) .

وقال رابعاً (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ) وقال (وَلَا تَنَابَزُوا۟) لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين فى حضورهم ، والإزراء بحالهم ومنصبهم .

وقال خامساً (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ) وقال (وَلَا تَجَسَّسُوا۟) وقال (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا) لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضرًا لتأذى . وهو فى غاية الحسن من الترتيب .

فإن قيل : لِمَ لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة . الابتداء بالله ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم الفاسق ؟

نقول : قدم الله ما هو الأهم على ما دونه ، فذكر جانب الله ، ثم جانب الرسول ، ثم ذكر ما يفضى إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق ، والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفارًا للصدور . وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذى المؤمن إلى حدٍّ يفضى إلى القتال . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبإ الفاسق ، آية الاقتتال فقال (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟) ؟ انتهى .

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٠ – سورة قٓ

وتسمى سورة (الباسقات) . وهى مكية بالإجماع . وآيها خمس وأربعون آية .

قال ابن كثير: وهذه السورة هى أول الحزب المفصل على الصحيح ، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العوام أنه من (عمّ) فلا أصل له ، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم . والدليل ما رواه أوس بن حذيفة قال : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ؛ وحزب المفصل وحده . فإذا عددت ثمانياً وأربعين سورة فالتى بعدهن سورة (قٓ) بيانه :

ثلاث : البقرة وآل عمران والنساء .

وخمس : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة .

وسبع : يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل .

وتسع : سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان .

وإحدى عشرة : الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان وألم السجدة وسبأ وفاطر ويس .

وثلاث عشرة : الصافات وصٓ والزمر وغافر وحمٓ السجدة وحمٓ عسٓقٓ والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات .

ثم بعد ذلك الحزب المفصل ، كما قاله الصحابة رضى الله عنهم ، فتعيّن أن أوّله سورة (قٓ) .

وروى الإمام أحمد[1] ومسلم[2] وأهل السنن أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثيّ : ما كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيد ؟ قال : بـ (قٓ) و (اقتربت) .

وروى مسلم[3] وغيره ، عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : ما حفظت (قٓ) إلا من رسول الله ﷺ . كان يخطب بها كل جمعة . وفى رواية : كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة فى المجامع الكبار ، كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب . انتهى .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٧ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٨ ــ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٤و١٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ٧ ــ كتاب الجمعة ، حديث ٥١و٥٢ (طبعتنا) .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (قٓ ، وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ)

« قٓ » هو حرف من حروف التهجى المفتتح بها أوائل السور ، مثل : صٓ ، ونٓ ، والٓم ، وحمٓ ، ونحوها . علم على السورة ، على الصحيح من أقوال ، كما تقدم مراراً .

تنبيه :

قال ابن كثير : روى عن بعض السلف أنهم قالوا : (قٓ) جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له (جبل قاف) . وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم ، مما لا يُصَدَّق ولا يكذب . وعندى أن هذا وأمثاله من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افتُرِىَ فى هذه الأمة، مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها، أحاديثُ عن النبىّ ﷺ ، وما بالعهد من قدم. فكيف بأمة بنى إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفّاظ والنقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ؟ وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله[(١)] (وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج) فيما قد يجوّزه العقل . فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل .

وقد أكثر كثير من السلف المفسرين ، وكذا طائفة كثيرة من الخلف ، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب ، تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٥٠ ـ باب ماذكر عن بنى إسرائيل، حديث رقم ١٦٢٤ عن ابن عَمْرو .

ثم ردّ ابن كثير ، رحمه الله ، ما قيل من أن المراد من (قٓ) قضى الأمر والله ! كقول الشاعر[١] :

* قلت لها قفى فقالت قاف *

أى : إنى واقفة ، بأن فى هذا نظراً ، لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف . انتهى .

« وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ » أى : ذى المجد والشرف على غيره من الكتب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ)

« بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ » أى : لأنْ جاءهم منذر من جنسهم ، لا من جنس الملك ، أو من جلدتهم . وهو كما قال أبو السعود ـ إضراب عما ينبئ عنه جواب القسم المحذوف ، كأنه قيل : والقرآن المجيد ، أنزلناه إليك ، لتنذر به الناس . حسبما ورد فى صدر سورة الأعراف ، كأنه قيل بعد ذلك : لم يؤمنوا به ، جعلوا كلا من المنذر والمنذر به عرضة للنكير والتعجب ، مع كونهما أوفق شىء لقضية العقول ، وأقربه إلى التلقى بالقبول .

وقيل : التقدير : والقرآن المجيد ، إنك لمنذر . ثم قيل بعده إنهم شكوا فيه ، ثم أضرب عنه . وقيل : بل عجبوا ، أى لم يكتفوا بالشك والرد ، بل جزموا بالخلاف ، حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة . وقيل : هو إضراب عما يفهم من وصف القرآن بالمجيد ، كأنه قيل : ليس سبب امتناعهم من الإيمان بالقرآن أنه لا مجد له ، ولكن لجهلهم .

« فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ » تفسير لتعجبهم ، وبيان لكونه مقارنا لغاية الإنكار ، مع زيادة تفصيل لمحل التعجب . وهذا إشارة إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن . وإضمارهم أولا ، للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم . وإظهارهم ثانياً ، للتسجيل عليهم

(١) لم أقف عليه .

بالكفر بموجبه . أو عطف لتعجبهم من البعث ، على تعجبهم من البعثة . على أن هذا إشارة إلى مبهم ، يفسره ما بعده من الجملة الإنكارية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ، ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾

« أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا » تقرير للتعجب ، وتأكيد للإنكار . والعامل فى (إذا) مضمر غنىّ عن البيان ، لغاية شهرته ، مع دلالة ما بعده عليه . أى : أحين نموت ونصير ترابا نرجع ، كما ينطق به النذير والمنذر به . مع كمال التباين بيننا وبين الحياة ، حينئذ « ذَٰلِكَ » إشارة إلى محل النزاع « رَجْعٌ بَعِيدٌ » أى : عن الأوهام أو العادة أو الإمكان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ » أى : ما تأكل من أجسامهم بعد مماتهم . وهو ردّ لاستبعادهم، وإزاحة له . فإن من عمّ علمه ولطف حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى. وتأكل من لحومهم وعظامهم، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا . وقيل : المعنى ما يموت فيدفن فى الأرض منهم . « وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ » قال أبو السعود: أى حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، أو محفوظ من التغير . والمراد: إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها ، بعلم مَن عنده كتاب محيط ، يتلقى منه كل شيء . أو تأكيد لعلمه تعالى بها ، بثبوتها فى اللوح المحفوظ عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾

« بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ » وهو القرآن ، « لَمَّا جَآءَهُمْ » أى من غير تأمّل وتفكّر.

قال الزمخشريّ : إضراب أتبع الإضراب الأول ، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق ، الذى هو النبوّة الثابتة بالمعجزات ، فى أول وهلة من غير تفكّر ولا تدبّر . وكونه أفظع ، للتصريح بالتكذيب من غير تدبر بعد التعجب منه . « فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ » أى مضطرب . يعنى . اختلاف مقالتهم فيه ، من ادعاء أنه شعر أو سحر ونحوه ، تعنتاً وكبراً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ)

« أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ » أى هؤلاء المكذّبون بالبعث ، المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد فنائهم ، « إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا » أى رفعناها بغير عمد ، « وَزَيَّنَّٰهَا » أى بالنجوم ، « وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ » . قال ابن جرير[١] : يعنى وما لها من صدوع وفتوق . كقوله تعالى[٢] (ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا، مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ، فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) أى كليل عن أن ترى عيباً أو نقصاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ)

« وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا » أى بسطناها ، « وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ » أى جبالًا ثوابت ، حفظاً لها من الاضطراب ، لقوة الجيشان فى جوفها ، « وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ » أى صنف ، « بَهِيجٍ » أى حسن المنظر ، يبتهج به لحسنه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٦٧ / الملك / ٣و٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)

« تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ » أى لتبصر وتذكّر كل عبد منيب راجع إلى ربه ، مفكّر فى بدائع صنعه . و (تَبْصِرَةً) و (ذِكْرَىٰ) منصوبان بالفعل الأخير على أنهما مفعولان له ، وإن كانتا علتين للأفعال المذكورة معنى . أو بفعل مقدر . أى فعلنا ما فعلنا تبصيرًا وتذكيرًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ)

[١٠] (وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ)

[١١] (رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ، وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ، كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ)

« وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ » أى المزن « مَآءً مُّبَٰرَكًا » أى كثير المنافع ، « فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ » أى أشجارًا ذوات أثمار ، « وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ » أى الزرع المحصود من البرّ والشعير وسائر أنواع الحبوب . وتخصيص إنبات حبه بالذكر ، لأنه المقصود بالذات . « وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ » أى وأنبتنا بالماء الذى أنزلناه من السماء ، النخل طوالًا ، أو حوامل . من (أبسقت الشاة) إذا حملت ، فيكون من (أفعل) فهو (فاعل) . والقياس (مفعل) فهو من النوادر كالطوائح واللواقح ، فى أخوات لها شاذة . وإفرادها بالذكر مع دخولها فى (جَنَّٰتٍ) لبيان فضلها بكثرة منافعها . وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية ، مع ما فيه من مراعاة الفواصل . « لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ » أى متراكم بعضه فوق بعض . « رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ » أى لرزقهم . قال أبو السعود : علة لقوله تعالى (فَأَنۢبَتْنَا) . وفى تعليله بذلك ، بعد تعليل أنبتنا الأول بالتبصرة والتذكير ، تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه

بذلك من حيث التذكر والاستبصار ، أهم من تمتعه به من حيث الرزق . وقيل : (رِزْقًا) مصدر من معنى (أَنۢبَتْنَا) ، لأن الإنبات رزق . « وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ » أى بذلك الماء « بَلْدَةً مَّيْتًا » أى أرضاً جدبة ، فأنبتت أنواع النبات والأزهار . « كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ » أى خروجهم أحياء من القبور . شبه بعث الأموات ونشرهم ، بقدرته تعالى بإخراج النبات من الأرض ، بعد وقوع المطر عليها ، فـ (كَذَٰلِكَ) خبر (ٱلْخُرُوجُ) . أو مبتدأ فالكاف بمعنى (مثل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ)

[١٣] (وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ)

[١٤] (وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ)

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ » أى قبل قريش « قَوْمُ نُوحٍ » قال أبو السعود : استئناف وارد لتقرير حقية البعث ، ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم السلام عليها ، وتعذيب منكريها . « وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ » وهو بئر كانوا عنده . يقال إنهم قوم شعيب عليه السلام . ويقال غير ذلك ، كما تقدم فى سورة الفرقان . «وَثَمُودُ» وهم الذين جادلوا صالحا ، وقتلوا الناقة. « وَعَادٌ » وهم الذين جادلوا هودًا فى أصنامهم . « وَفِرْعَوْنُ » وهو الذى جادل موسى فيما أرسل به . قال الرازىّ : ولم يقل (وقوم فرعون) لأن فرعون كان هو المغترّ المستخف بقومه ، المستبد بأمره . « وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ » وهم الذين جادلوه فى إتيان الرجال . « وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ » أى أى الغيضة من الشجر ، المجادلون شعيباً فى الكيل والوزن . (وَقَوْمُ تُبَّعٍ) قال المهايمىّ : المجادلون إمامهم وعلماءهم فى الدين . ومضى الكلام على ذلك فى الحجر والدخان . « كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ » أى كل من هذه الأمم ، وهؤلاء القرون ، كذبوا رسولهم ،

ومن كذب رسولًا ، فكأنما كذب جميع الرسل ، كقوله تعالى[١] (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) ، وإنما جاءهم رسول واحد ، فهم فى نفس الأمر ، لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم ـ أفاده ابن كثير ـ وهو توجيه لجمع الرسل . وإفراد ضمير (كَذَّبَ) مراعاة للفظ (كُلٌّ) فإنه مفرد وإن كان جمعاً معنى . « فَحَقَّ وَعِيدِ » أى فوجب لهم الوعيد الذى وعد به مَن كفر ، وهو العذاب والنقمة .

قال ابن جرير[٢] : إنما وصف تعالى فى هذه الآية ما وصف من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذبين الرسل ، ترهيباً منه بذلك مشركى قريش ، وإعلاماً منه لهم أنهم إن لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ أنه مُحِلٌّ بهم من العذاب مثل الذى أحل بهم . أى فهو تسلية للرسول صلوات الله عليه ، وتهديد لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)

« أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ » أى : أفعجزنا عن الإبداء ، حتى نعجز عن الإعادة ، فالهمزة للإنكار . قال الشهاب : العىّ هنا بمعنى العجز ، لا التعب . قال الكسائىّ : تقول (أعييت) من التعب و (عييت) من انقطاع الحيلة ، والعجز عن الأمر . وهذا هو المعروف والأفصح ، وإن لم يفرق بينهما كثير . و (الخلق الأول) هو الإبداء على ما ذكر ، ويحتمل أن يراد به خلق السموات والأرض ، لأن خلق الإنسان متأخر عنه . ويدل له آية[٣] (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ . . .) الآية .

وقوله « بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » عطف على مقدر ، يدل عليه ما قبله ،

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٠٥] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٥٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٣٣] .

كأنه قيل : هم معترفون بالخلق الأول ، فلا وجه لإنكارهم للثانى، بل هم اختلط عليهم الأمر والتبس ، لعدم فهمهم إعادة مامات وتفرق أجزاؤه وإعراضهم عن سلطان القدرة الإلٰهية ، وسهولة ذلك فى المقدورات الربانية .

لطيفة :

قال الناصر : فى الآية أسئلة ثلاثة : لِمَ عرّف الخلق الأول ، ونكّر اللبس ، والخلق الجديد ؟

فاعلم : أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه ، ومنه تعريف الذكور فى قوله[1] (وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ) ، ولهذا المقصد عرف الخلق الأول ، لأن الغرض جعله دليلًا على إمكان الخلق الثانى بطريق الأولى . أى إذا لم يعْىَ تعالى بالخلق الأول، على عظمته ، فالخلق الآخر أولى أن لا يعيي به . فهذا سر تعريف الخلق الأول .

وأما التنكير فأمره منقسم : فمرةً يقصد به تفخيم المنكر ، من حيث مافيه من الإبهام، كأنه أفخم من أن يخاطبه معرفة . ومرةً يقصد به التقليل من المنكر ، والوضع منه . وعلى الأول[2] (سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ) وقوله[3] (لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) ، و[4] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ) ، وهو أكثر من أن يحصى . والثانى : هو الأصل فى التنكير ، فلا يحتاج إلى تمثيله . فتنكير (اللبس) من التعظيم والتفخيم ، كأنه قال : فى لبس أىّ لبس . وتنكير (الخلق الجديد) للتقليل منه ، والتهوين لأمره ، بالنسبة إلى الخلق الأول . ويحتمل أن يكون للتفخيم ، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبساً عليه ، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته . انتهى .

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٩] .

(٢) [٣٦ / يس / ٨٥] . (٣) [٥ / المائدة / ٩] و [٤٩ / الحجرات / ٣] .

(٤) [٥٢ / الطور / ١٧] .

obeikandl.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ » أى تحدّث به نفسه، وهو مايخطر بالبال . وقوله تعالى « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ » تمثيل للقرب المعنوىّ ، بالصورة الحسية المشاهدة . وقد جعل ذلك القرب أتم من غاية القرب الصورىّ ، الذى لا اتصال أشد منه فى الأجسام ، إذ لا مسافة بين الجزء المتصل به وبينه .

قال الشهاب : تجوّز بقرب الذات عن قرب العلم ، لتنزّهه عن القرب المكانىّ ، إما تمثيلًا ، وإما من إطلاق السبب وإرادة المسبب ، لأن القرب من الشىء سبب للعلم به وبأحواله فى العادة . والمعنى : أنه تعالى أعلم بأحواله ، خفيِّها وظاهرها ، من كل عالم . وقد ضرب المثل فى القرب بحبل الوريد ، لأن أعضاء المرء وعروقه متصلة على طريق الجزئية، فهى أشد من اتصال ما اتصل به من الخارج . وخص هذا لأن به حياته، وهو بحيث يشاهده كل أحد . والحبل : العرق . شبه بواحد الحبال . فإضافته للبيان أو لامية ، من إضافة العام للخاص . فإن أبقى الحبل على حقيقته، فإضافته كلجين الماء .

تنبيه :

تأول ابن كثير الآية على غير ما تقدم ، بجعل (نحن) كناية عن الملائكة ، وعبارته : يعنى ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه . قال : ومن تأوله على العلم ، فإنما فرّ لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه ، فإنه يقل (وأنا أقرب إليه) وإنما قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) كما قال فى المحتضر[١] (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ) يعنى: ملائكته . وكما قال

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٥].

تبارك وتعالى : (١)(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن ، بإذن الله عزوجل . وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ، بإقدار الله ، جل وعلا ، لهم على ذلك . فللملك لمّة من الإنسان ، كما أن للشيطان لمة . ولذلك الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . ثم أيد ابن كثير رحمه الله ماذكره ، بماورد في الآية بعدها . والوجه الأول أدق وأقرب ، وفيه من الترهيب وتناهى سعة العلم ، مع التعريف بجلالة المقام الربانيّ ، ما لا يخفى حسنه . وليس تأويل مَنْ تأول بالعلم ، للفرار من الحلول والاتحاد فقط ، بل له ولما تقدم أولا . كما أن إيثار (نحن) على (أنا) لايحسم ما نفاه ، لاحتمال إرادة التعظيم بـ (نحن) كما هو شائع ، فلايتم له ذلك . نعم ! اللفظ الكريم يحتمل ماذكره بأن يكون ورد ذلك تعظيما للملك ، لأنه بأمره تعالى وبإذنه ، ولكن لا ضرورة تدعو إليه ، مع ماعرف من أن الأصل الحقيقة . وقد عنى رحمه الله بمن فهم الحلول والاتحاد ، مَن قال في تفسير الآية كالقاشانيّ ـ ما مثاله : وإنما كان أقرب مع عدم المسافة بين الجزء المتصل به وبينه ، لأن اتصال الجزء بالشىء يشهد بالبينونة والاثنينية الراجعة للاتحاد الحقيقيّ . ومعيته وقربه من عبده ليس كذلك ، فإن هويته وحقيقته المندرجة في هويته وتحققه ليست غيره ، بل إن وجوده المخصوص المعين إنما هو بعين حقيقته التى هى الوجود ، من حيث هو وجود ، ولولاه لكان عدما صرفاً ولا شيئاً محضاً . انتهى كلام القاشانيّ . ولا يفهم من ذلك حلول ولا اتحاد بالمعنى المتعارف ، لأن لهؤلاء اصطلاحاً معروفاً ، وهم أول من يتبرأ من الحلول والاتحاد ، كما أوضحت ذلك مع برهان استحالتهما ، في كتاب (دلائل التوحيد) الذى طبع بحمد الله من أمد قريب . فارجع إليه ، واستغفر لمصنفه .

أقول : رأيت ابن كثير بعدُ ، مسبوقا بما ذكره شيخه الإمام ابن تيمية ، فقد أوضح ذلك رحمه الله في كتابه (شرح حديث النزول) : ليس في القرآن وصف الرب تعالى بالقرب

(١) [١٥ / الحجر / ٩] .

من كل شيء أصلا ، بل قربه الذى فى القرآن خاص لا عام ، كقوله تعالى[١] (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) . فهو سبحانه قريب ممن دعاه . وكذلك ما فى الصحيحين[٢] عن أبى موسى الأشعرىّ ؛ أنهم كانوا مع النبىّ ﷺ فى سفر ، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير ، فقال : (أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، وإنما تدعون سميعاً قريبا . إن الذين تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) . فقال : إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم ، لم يقل : إنه قريب إلى كل موجود . وكذلك قول صالح عليه السلام[٣] (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) ومعلوم أن قوله (قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) مقرون بالتوبة والاستغفار . أراد به ، قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه ، كما أنه رحيم ودود . وقد قرن القريب بالمجيب . ومعلوم أنه لا يقال مجيب لكل موجود ، وإنما الإجابة لمن سأله ودعاه ، فكذلك قربه سبحانه وتعالى ، وأسماء الله المطلقة كاسمه السميع والبصير والغفور والشكور والمجيب والقريب ، لا يجب أن تتعلق بكل موجود ، بل يتعلق كل اسم بما يناسبه . واسمه العليم ، لما كان كل شيء يصلح أن يكون معلوما تعلق بكل شيء . وأما قوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) فالمراد به قربه إليه بالملائكة . وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف . قالوا : ملك الموت أدنى إليه من أهله ، ولكن لا تبصرون الملائكة . وقد قال طائفة (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) بالعلم . وقال بعضهم : بالعلم والقدرة والرؤية . وهذه الأقوال ضعيفة ، فإنه ليس فى الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود ، حتى يحتاجوا

(١) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٣١ ـ باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير ، حديث رقم ١٤٢٣ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ ـ ٤٧ (طبعتنا) .

(٣) [١١ / هود / ٦١] .

أن يقولوا بالعلم والقدرة ، ولـكن بعض الناس ، لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء ، تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء ؛ قادر على كل شيء ، وكأنهم ظنوا أن لفظ القرب، مثل لفظ المعية . وقد ثبت عن السلف أنهم قالوا في آية[١] (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) هو معهم بعلمه ، مع علوّه على عرشه . وقد ذكر ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين ، لم يخالفهم فيه أحد .

ثم قال : ولم يأت في لفظ القرب مثل ذلك أنه قال : هو فوق عرشه ، وهو قريب من كل شيء ، بل قال[٢] (إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ) وقال[٣] (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) .

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله! أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبيّ ﷺ ، فأنزل الله تعالى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي . .) الآية . ولا يقال في هـذا قريب بعلمه وقدرته ، فإنه عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، وهم لم يشكّوا في ذلك ، ولم يسألوا عنه ، وإنما عن قربه إلى من يدعوه ويناجيه ، فأخبر أنه قريب مجيب .

وطائفة من أهل السنة تفسر القرب في الآية والحديث بالعلم ، لـكونه هو المقصود، فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعي حصل مقصوده . وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول، بأنه قريب من كل شيء ، بمعنى العلم والقدرة ، فإن هذا قد قاله بعض السلف ، وكثير من الخلف ، لـكن لم يقل أحد منهم إن نفس ذاته قريب من كل موجود . وهـذا المعنى يقرّ به جميع المسلمين ، من يقول إنه فوق العرش ، ومن يقول إنه ليس فوق العرش .

ثم قال: وهؤلاء كلهم مقصودهم أنه ليس المراد أن ذات الباريء جل وعلا قريبة من

(١) [٥٧ / الحديد / ٤] . (٢) [٧ / الأعراف / ٥٦] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٨٦] .

وريد العبد ، ومن الميت . ولما ظنوا أن المراد قربه وحده دون الملائكة ، فسروا ذلك بالعلم والقدرة ، كما فى لفظ المعية . ولا حاجة إلى هـذا ، فإن المراد بقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) أى بملائكتنا ، فى الآيتين : وهذا بخلاف المعية ، فإنه لم يقل : ونحن معه ، بل جعل نفسه هو الذى مع العباد ، وأخبر أنه ينبئهم يوم القيامة بما عملوا، وهو نفسه الذى خلق السموات والأرض ، وهو نفسه الذى استوى على العرش ، فلا يجعل لفظ مثل لفظ ، مع تفريق القرآن بينهما .

ثم قال : وقوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) لا يجوز أن يراد به مجرد العلم ، فإن من كان بالشىء أعلم من غيره، لا يقال إنه أقرب إليه من غيره، بمجرد علمه به ، ولا بمجرد قدرته عليه. ثم إنه سبحانه عالم بما يُسَرُّ من القول، ومايجهر به، وعالم بأعماله، فلا معنى لتخصيصه حبل الوريد بمعنى أنه أقرب إلى العبد منه ، فإن حبل الوريد قريب إلى القلب ، ليس قريباً إلى قوله الظاهر ، وهو يعلم ظاهر الإنسان وباطنه . قال تعالى(١) (يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى) ومما يدل على أن القرب ليس المراد به العلم، سياقُ الآية، فإنه قال(٢) (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ) فأخبر أنه يعلم وسواس نفسه ، ثم قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) فأثبت العلم، وأثبت القرب، وجعلهما شيئين ، فلا يجعل أحدهما هو الآخر ، وقيد القرب بقوله (إِذْ يَتَلَقَّى . . .) الآية .

وأما من ظن أن المراد بذلك قرب ذات الرب من حبل الوريد ، وأن ذاته أقرب إلى الميت من أهله ، فهذا فى غاية الضعف . وذلك أن الذين يقولون إنه فى كل مكان، وإنه قريب من كل شىء بذاته ، لا يخصون بذلك شيئاً دون شىء ، ولا يمكن مسلماً أن يقول إن الله قريب من الميت دون أهله ، ولا أنه قريب من حبل الوريد دون سائر الأعضاء . وكيف يصح هذا الكلام على أصلهم ، وهو عندهم فى جميع بدن الإنسان ، وهو فى أهل الميت ، كما

---

(١) [٢٠ / طه / ٧] . (٢) [٥٠ / قٓ / ١٦] .

هو فى الميت ، فكيف يكون (أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) إذا كان معه ومعهم على وجه واحد ؟ وهل يكون أقرب إلى نفسه من نفسه ، وسياق الآيتين يدل على أن المراد الملائكة، فإنه قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ . إِذْ يَتَلَقَّى ...) الآيتين. فقيدالقرب بهذا الزمان، وهو زمان تلقى المتلقيين ، وهما الملكان الحافظان اللذان يكتبان ، كما قال[١] (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ...) الآية . ومعلوم أنه لو كان قرب ذات لم يخص ذلك بهذا الحال ، ولم يكن لذكر القعيدين الرقيب والعتيد معنى مناسب. وكذلك قوله فى الآية الأخرى[٢] (فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ) فإن هذا إنما يقال إذا كان هناك من يجوز أن يبصر فى بعض الأحوال ، لكن نحن لا نبصره ، والرب تعالى فى هذه الحال لا يراه الملائكة ، ولا البشر . وأيضاً فإنه قال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) فأخبر عمن هو أقرب إلى المحتضر من الناس الذين عنده فى هذه الحال. وذات الرب سبحانه وتعالى إذا قيل هى فى مكان ، أو قيل قريبة من كل موجود ، لا يختص بهذا الزمان والمكان والأحوال ، فلا يكون أقرب إلى شىء من شىء ، ولا يجوز أن يراد قرب الرب الخاص ، كما فى قوله (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ) فإن ذاك إنما هو قربه إلى من دعاه أو عبده . وهذا المحتضر قد يكون كافراً وفاجراً ، أو مؤمناً ومقرباً . ولهذا قال تعالى[٣] (فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ). ومعلوم أن مثل هذا المكذب لا يخصه الرب بقرب منه، دون من حوله، وقد يكون حوله قوله مؤمنون. وإنما هم الملائكة الذين يحضرون عند المؤمن والكافر ، كما قال تعالى[٤] (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ) وقال

---

(١) [٥٠ / قٓ / ١٨] . (٢) [٥٦ / الواقعة / ٨٣ـ٨٥] .
(٣) [٥٦ / الواقعة / ٨٨ـ٩٤] . (٤) [٤ / النساء / ٩٧] .

تعالى[(١)] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ) وقال[(٢)] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ) وقال تعالى[(٣)] (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) وقال تعالى[(٤)] (قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) . ومما يدل على ذلك أنه ذكره بصيغة الجمع فقال (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) وهذا كقوله[(٥)] سبحانه (نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) وقال[(٦)] (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ) وقال[(٧)] (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) فإن مثل هذا اللفظ إذا ذكره الله تعالى فى كتابه، دل على أن المراد أنه سبحانه بجنوده وأعوانه من الملائكة. فإن صيغة (نحن) يقولها المتبوع المطاع المعظم الذى له جنود يتبعون أمره، وليس لأحد جند يطيعونه كطاعة الملائكة ربهم، وهو خالقهم وربهم، فهو سبحانه العالم بما توسوس به نفسه ، وملائكته تعلم ، فكان لفظ (نحن) هنا هو المناسب . وكذلك قوله (وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ) فإنه سبحانه يعلم ذلك، وملائكته يعلمون ذلك ، كما ثبت فى الصحيحين[(٨)] عن النبىّ ﷺ أنه قال : إذا همّ العبد بحسنة كتبت

---

(١) [٨ / الأنفال / ٥٠] . (٢) [٦ / الأنعام / ٩٣] .

(٣) [٦ / الأنعام / ٦١] . (٤) [٣٢ / السجدة / ١١] .

(٥) [٢٨ / القصص / ٣]. (٦) [١٢ / يوسف / ٣] .

(٧) [٧٥ / القيامة / ١٧ـ١٩] . (٨) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ـ كتاب الرقاق، ٣١ ـ باب من همّ بحسنة أو بسيئة . حديث ٢٤٣٥ ، عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٠٧ (طبعتنا) .

له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات . وإذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، وإن تركها لله كتبت له حسنة . فالملك يعلم ما يهم به العبد من حسنة وسيئة ، وليس ذلك من علمهم الغيب الذى اختص الله به .

ثم قال : وقوله (١) (وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) يقتضى أنه سبحانه وجنده الموكلين بذلك ، يعلمون ما توسوس به للعبد نفسه ، كما قال (٢) (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) فهو يسمع ، ومن يشاء من ملائكته . وأما الكتابة ، فرسله يكتبون كما قال هاهنا (٣) : (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) وقال تعالى (٤) (إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ) وأخبر بالكتابة (نحن) لأن جنده يكتبون بأمره ، وفصَّل فى تلك الآية بين السماع والكتابة ، لأنه يسمع بنفسه ، وأما كتابة الأعمال فتكون بأمره ، والملائكة يكتبون . فقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ) مثل قوله (نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ) لما كانت ملائكته متقربين إلى العبد بأمره ، كما كانوا كاتبين عمله بأمره ، فإن ذلك قربه من كل أحد بتوسط الملائكة ، كتكليمه عبده بتوسط الرسل ، كما قال (٥) تعالى (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ) فهذا تكليمه لجميع عباده بواسطة الرسل ، وذاك قربه إليهم عند الاحتضار ، وعند الأقوال الباطنة فى النفس والظاهرة . انتهى كلامه رحمه الله . وقوله تعالى :

---

(١) [٥٠ / قٓ / ١٦] .
(٢) [٤٣ / الزخرف / ٨٠] .
(٣) [٥٠ / قٓ / ١٨] .
(٤) [٣٦ / يس / ١٢] .
(٥) [٤٢ / الشورى / ٥١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾

« إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ » أى ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه حين يتلقى الملكان الحفيظان مايتلفظ به . فـ (إذ) ظرف (لأقرب) وفيه إيذان بأنه غنيّ عن استحفاظ الملكين ، فإنه أعلم منهما ، ومطلع على مايخفى عليهما، لـكنه لحـكمة اقتضته ، وهى إلزام الحجة فى الأخرى ، والتقدم إلى مايرغبه ويرهبه فى الأولى .

وقال القاشانيّ : بين تعالى بهذه الآية أقربيّته لينتفى القرب بمعنى الاتصال والمقارنة ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : هو مع كل شىء ، لا بمقارنة ، إذ الشىء به ذلك الشىء ، وبدونه ليس شيئاً حتى يقارنه . أى : يعلم حديث نفسه الذى توسوس به نفسه وقت تلقى المتلقيين ، مع كونه أقرب إليه منهما . وإنما تلقيهما للحجة عليه ، وإثباتُ الأقوال والأعمال فى الصحائف النورية ، للجزاء .

ثم قال : والمتلقى القاعد عن اليمين ، هو القوة العاقلة العملية المنتقشة بصور الأعمال الخيرية المرتسمة بالأقول الحسنة الصائبة . وإنما قعد عن يمينه ، لأن اليمين هى الجهة القوية الشريفة المباركة ، وهى جهة النفس التى تلى الحق . والمتلقى القاعد عن الشمال هو القوة المتخيلة التى تنتقش بصور الأعمال البشرية البهيمية والسبعية ، والآراء الشيطانية الوهمية ، والأقوال الخبيثة الفاسدة . وإنما قعد عن الشمال ، لأن الشمال هى الجهة الضعيفة الخسيسة المشؤومة ، وهى التى تلى البدن ، ولأن الفطرة الإنسانية خيّرة بالذات ، لـكونها من عالم الأنوار ، مقتضية بذاتها ، وغريزتها الخيرات . والشرورُ إنما هى أمور عرضت لها من جهة البدن وآلاته وهيآته ، يستولى صاحب اليمين على صاحب الشمال ، فكلما صدرت منه حسنة كتبها له فى الحال ، وإن صدرت منه سيئة منع صاحب الشمال عن كتابتها فى الحال انتظاراً للتسبيح، أى التنزيه عن الغواشى البدنية ، والهيآت الطبيعية ، بالرجوع إلى مقره الأصليّ ، وسنخه

الحقيقىّ ، وحاله الغريزىّ، لينمحى أثر ذلك الأمر العارضىّ، بالنور الأصلىّ والاستغفار ، أى التنوّر بالأنوار الروحية والتوجه إلى الحضرة الإلهية، لينمحى أثر تلك الظلمة العرضية، بالنور الوارد كما روى أن كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يساره ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب اليسار : دعه سبع ساعات ، لعله يسبح أو يستغفر ! انتهى .

وقد كثر فى كلام القاشانىّ رحمه الله تأويل المَلَك بالقوة الحاثة على الخير ، والشيطان بالمغوية على الشر . وسبقه إليه الحكماء . قال بعض الحكماء : هـذا الشىء الذى أودع فينا ونسميه قوة وفكرًا ، وهو فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تكتنه حقيقتها ، لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكاً ، ويسمى أسبابه ملائكة ، أو ما شاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة، والسلطان النافذ ، والعلم الواسع .

وقد سبق الغزالىّ إلى هذا المعنى ، وعبّر عنه بالسبب وقال : إنه يسمى ملكاً ، فإنه ، فى شرح عجائب القلب من كتاب (الإحياء) ، بعد ما قسم الخواطر إلى محمود ومذموم ، قال : وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطاناً . . الخ . والبحث كله غرر ، تجدر مراجعته .

لطيفة : (قَعِيدٌ) كجليس ، بمعنى مجالس ، لفظاً ومعنى . وإنما أفرد رعاية للفواصل ، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه ، كقوله[1] :

* فإنى وقيّارٌ بها لغريبُ *

---

(١) قائله ضابىء بن الحارث البرجمىّ . وصدره : * وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بالمدينةِ رَحْلُهُ *
و (قيّار) اسم جَمَلِهِ .
وذلك من أربعة أبيات ، أنشدها المبرّد فى الكامل ، ص ١٨١ (طبعة أوربا) .

وقيل : يطلق (فعيل) للواحد والمتعدد ، كقوله[١] (وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ)، وضعّف بأنه ليس على إطلاقه ، بل إذا كان (فعيل) بمعنى (مفعول) بشروطه ، وهذا بمعنى (فاعل) ، فلا يصح فيه ذلك إلا بطريق الحمل على (فعيل) بمعنى (مفعول) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

« مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ » أى ملك يرقب عمله ، « عَتِيدٌ » أى حاضر . ولما ذكر استبعادهم للبعث ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه ، أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريب ، ونبه على اقترابه بلفظ الماضى ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

« وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ » أى شدته المحيّرة الشاغلة للحواس ، المذهلة للعقل « بِٱلْحَقِّ » أى بالموعود الحق ، والأمر المحقق ، وهو الموت ، فالباء للملابسة . أو بالموعود الحق من أمر الآخرة ، والثواب والعقاب الذى غفل عنه ، فالباء للتعدية . أى أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر ، وهى أحوالها الباطنة ، وأظهرتها عليه .

قال الشهاب : السكرة استعيرت للشدة ، ووجه الشبه بينهما أن كلًّا منهما مذهب للعقل ، فالاستعارة تصريحية تحقيقية . ويجوز أن يشبه الموت بالشراب على طريق الاستعارة المكنية . وإثبات السكرة لها ، تخييل . « ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ » أى تفرّ . والجملة على تقدير القول . أى يقال له فى وقت الموت : ذلك الأمر الذى رأيته هو الذى كنت منه تحيد فى حياتك ، فلم ينفعك الهرب والفرار . وهل المشار إليه بذلك ، الحق أو الموت ؟

(١) [٦٦ / التحريم / ٤] .

قال الطيبيّ : إن اتصل قوله (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ . .) الخ بقوله (فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) وما معه ، فالمشار إليه بذلك الحق ، والخطاب للفاجر . أي جاءك أيها الفاجر الحق الذي أنكرته . وإن اتصل بقوله (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ...) الخ ، فالمشار إليه الموت. والالتفات لا يفارق الوجهين . والثاني هو المناسب ، لقوله (وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ) بعده ، وتفصيله[1] (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)[2] (وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ) انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ)

[٢١] (وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ)

« وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ » يعني : نفخة البعث « ذَٰلِكَ » أي النفخ « يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ » أي وقت تحقق الوعيد ، بشهود ما قدم من الأعمال وما أخر « وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ » قال ابن جرير[3] : أي سائق يسوقها إلى الله ، وشاهد يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شر . وهل هما ملكان ، أو ملك جامع للوصفين ، أو الأول ملك ، والثاني الإنسان نفسه يشهد على نفسه ، أو سائق من أعمالها ، إلى مكان جزائها ، وشهيد من أجزائها ؟ أقوال :

وقال القاشانيّ : أي سائق من علمه ، وشهيد من عمله ، لأن كل أحد ينجذب إلى محل نظره ، وما اختاره بعلمه . والميل الذي يسوقه إلى ذلك الشيء إنما نشأ من شعوره بذلك الشيء ، وحكمه بملاءمته له ، سواء كان أمراً سفلياً جسمانياً بعثه عليه هواه ، وأغراه عليه وهمه وقوّاه ؛ أو أمراً علويًّا روحانيًّا بعثه عليه عقله ، ومحبته الروحانية ، وحرّضه عليه قلبه وفطرته الأصلية . فالعلم الغالب عليه سائقه إلى معلومه ، وشاهده بالميل الغالب عليه ، والحب الراسخ فيه ،

(١) [٥٠ / قٓ / ٢٤] . (٢) [٥٠ / قٓ / ٣١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٦١ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

والعمل المكتوب فى صحيفته يشهد عليه بظهوره على صور أعضائه وجوارحه ، وينطق عليه كتابه بالحق ، وجوارحه بهيآت أعضائه المتشكلة بأعماله . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ)

« لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ » فى المخاطب بهذا ، أقوال ثلاثة :

أحدها ـ أنه النبىّ ﷺ ، أتى بهذه الجملة معترضة فى خلال أمر النبأ الأخروىّ ، تنويهاً بمنة الإعلام بذلك ، والتعريف به ، ثم شدة نفوذ البصر به ، والوقوف على غوامضه ، بعد خلوّ الذهن عنه رأساً . والمعنى : لقد كنت فى غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك ، فبصرك اليوم حديد ، نافذ قوىّ ، ترى ما لا يرون ، وتعلم ما لا يعلمون . ومثله آية[1] (مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ) .

وثانيها ـ أنه الكافر ، وأن الكلام على تقدير القول . أى : يقال له لقد كنت فى غفلة من هذا الذى عاينت اليوم من الأهوال ، فكشفنا عنك غطاءك ، بأن جلينا لك ، ذلك ، وأظهرناه لعينيك ، حتى رأيته وعاينته ، فزالت الغفلة عنك . ومثله عن الكفار آية[2] (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وآية[3] (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) .

وثالثها ـ أنه الإنسان مطلقاً ، لقوله (وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ) ، والمقصود أنه كشف الغطاء عن البرّ والفاجر ، ورأى كل ما يصير إليه .

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] . (٢) [١٩ / مريم / ٣٨] .
(٣) [٣٢ / السجدة / ١٢] .

وعوّل ابن جرير[1] فى الأولوية على الثالث .

قال الزمخشرىّ : جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله ، أو غشاوة غطى بها عينيه ، فهو لا يبصر شيئاً. فإذا كان يوم القيامة تيقظ ، وزالت الغفلة عنه وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحق .

وقال القاشانىّ فى تأويل الآية : (لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا) لاحتجابك بالحس والمحسوسات ، وذهولك عنه ، لاشتغالك بالظاهر عن الباطن (فَكَشَفْنَا عَنكَ) بالموت (غِطَآءَكَ) المادىّ الجسمانىّ ، الذى احتجبت به (فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ) أى إدراكك لما ذهلت عنه ، ولم تصدق بوجوده ، قوىّ تعاينه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ)

« وَقَالَ قَرِينُهُۥ » أى قرين هذا الإنسان الذى جىء به يوم القيامة معه سائق وشهيد ، وهو إما الملك الموكل عليه فى الدنيا لكتابة أعماله ، وهو الرقيب المتقدم ، أو الشيطان الذى قيض له مقارناً له يغويه ، وهو الأظهر ـ كما اعتمده الزمخشرىّ ـ لآية [2]« نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ) ويشهد له قوله تعالى[3] (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ) « هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ »أى هذا شىء لدىّ حاضر مُعَدّ محفوظ . والإشارة على الأول لما فى صحفه، وعلى الثانى للشخص نفسه . أى هذا ما لدىّ عتيد لجهنم هيأته بإغوائى لها .

وقال القاشانىّ : (وَقَالَ قَرِينُهُۥ) أى من شيطان الوهم الذى غرّه بالظواهر ، وحجبه عن البواطن . (هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ) مهيأ لجهنم . أى ظهر تسخير الوهم إياه فى التوجه إلى

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٤ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٤٣ / الزخرف / ٣٦] . (٣) [٥٠ / ق / ٢٧] .

الجهة السفلية ، وأنه ملكه ، واستعبده فى طلب اللذات البدنية ، حتى هيأه لجهنم فى قعر الطبيعة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ)

« أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ » خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد ، على أنهما ملكان ، لا ملك جامع للوصفين ، أو لملكين من خزنة النار ، أو لواحد ، وتثنية الفاعل منزل منزلة تثنية الفعل ، وتكريره على أن أصله : ألق ، ألق ، ثم حذف الفعل الثانى ، وأبقى ضميره مع الفعل الأول ، فثنى الضمير للدلالة على ماذكر . أو الألف بدل من نون التأكيد ، لأنها تبدل ألفاً فى الوقف ، فأجرى الوصل مجراه ـ أوجه ذكروها ـ .

وقال ابن جرير[١] : أخرج الأمر للقرين ، وهو بلفظ واحد ، مَخْرَجَ خطاب الاثنين. وفى ذلك وجهان من التأويل :

أحدهما ـ أن يكون القرين بمعنى الاثنين ، كالرسول ، والاسم الذى يكون بلفظ الواحد فى الواحد والتثنية والجمع . فردّ قوله (أَلْقِيَا) إلى المعنى .

والثانى ـ أن يكون كما كان بعض أهل العربية يقول . وهو أن العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين ، فتقول للرجل : ويلك ! ارحلاها ، وازجراها ، كما قال[٢] :

فقلتُ لصاحبي لَا تَحْبِسَانَا ... بِنَزْعِ أصولِهِ واجْتَزَّ شِيحا

وقال أبو ثَرْوَان[٣] :

فإن تزجرانى يا ابنَ عفانَ أنْزَجِرْ ... وإن تدعَانِى أَحْمِ عِرْضا ممنَّعاً

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٥ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) البيت لمضرّس بن ربعىّ الفقعسىّ .

(٣) البيت لسويد بن كراع العكلىّ . وهو رابع أبيات ثلاثة أولها :

تقول ابنة العوفىّ ليلى : ألا ترى ... إلى ابن كراع لا يزال مُفزَّعَا

وسبب ذلك منهم ، أن الرجل أدنى أعوانه فى إبله وغنمه ، اثنان . وكذلك الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة . فجرى كلام الواحد على صاحبيه . ألا ترى الشعراء أكثر شيء قيلا : ياصاحبىّ ، ياخليلىّ . انتهى .

و (الكَفَّار) المبالغ فى جحده وحدانيةَ الله تعالى ، وما جاء به رسوله صلوات الله عليه . و (العَنِيد) المعاند للحق ، وسبيل الهدى ، لا يسمع دليلا فى مقابلة كفره . وقد زاد على العناد بوصف :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ)

« مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ » أى الكلىّ ، وهو الإسلام . أو المال . واستصوب ابن جرير(١) أنه هنا كل حق وجب لله أو لآدمىّ فى ماله ، لأنه لم يخصص منه شيء ، فدل على أنه كل خير يمكن منعه طالبه « مُعْتَدٍ » أى متجاوز الحد فى الاعتداء على الناس ، بالبذاء والفحش فى المنطق ، وبيده بالسطوة والبطش ظلماً ، كما قال قتادة : معتد فى منطقه وسيرته وأمره .

« مُّرِيبٍ » أى شاكّ فى الحق ، أو موقع صاحبه فى الريب مع كثرة الدلائل .

وقال القاشانىّ : الخطاب فى (أَلْقِيَا) للسائق والشهيد اللّذَين يوبقانه ويلقيانه ويهلكانه فى أسفل غياهب مهواة الهيولى الجسمانية ، وغيابة جب الطبيعة الظلمانية ، فى نيران الحرمان . أو لمالك . والمراد بتثنية الفاعل تكرار الفعل ، كأنما قال : ألق ، ألق ، لاستيلائه عليهم فى الإبعاد والإلقاء إلى الجهة السفلية . ويقوّى الأول : أنه عدد الرذائل الموبقة ، التى أوجبت استحقاقهم لعذاب جهنم ، ووقوعهم فى نيران الجحيم ، وبيّن أنها من باب العلم والعمل . والكفرانُ ومنعُ الخير ، كلاهما من إفراط القوة البهيمية الشهوانية ، لانهما كيا فى لذاتها ، واستعمالها نعم الله تعالى فى غير مواضعها من المعاصى والاحتجاب عن المنعم بها ، ومن حقها

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أن تذكره، وتبعث على شكره، ومكالبتها عليها ، لفرط ولوعها بها، فتمنعها عن مستحقيها. وذكرُها على بناء المبالغة ، ليدل على رسوخ الرذيلتين فيه ، وغلبتهما عليه ، وتعمقه فيهما ، الموجب للسقوط عن رتبة الفطرة فى قعر بئر الطبيعة . والعنود والاعتداء ، كلاهما من إفراط القوة الغضبية ، واستيلائها ، لفرط الشيطنة ، والخروج عن حد العدالة . والأربعة من باب فساد العمل . والريب والشرك . كلاهما من نقصان القوة النطقية ، وسقوطها عن الفطرة ، بتفريطها فى جنب الله، وقصورها عن حد القوة العاقلة . وذلك من باب فساد العلم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ)

« ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ » أى : عبد معه معبوداً آخر من خلقه « فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ » أى عذاب جهنم .

لطيفة :

الموصول إما مبتدأ مضمن معنى الشرط ، وخبره (فَأَلْقِيَاهُ) أو مفعول لمضمر يفسره (فألقياه) أو بدل من (كل كفار) فيكون (فألقياه) تكريراً للتوكيد . قيل على الأخير : إنه مخالف لما ذكره أهل المعانى من أن بين المؤكد والمؤكد شدة اتصال تمنع من العطف . وأجيب : بأنه من باب (وحقك ثم حقك) نزل التغاير بين المؤكد والمؤكد،والمفسِّر والمفسَّر ؛ منزلة التغاير بين الذاتين بوجه خطابىّ . ولو جعل (العذاب الشديد) نوعاً من عذاب جهنم ومن أهواله ، على أنه من باب [(١)] (وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ) كان حسناً .

قال الشهاب (بعد نقله ما ذكر) : قال ابن مالك فى (التسهيل) : فصلُ الجملتين فى التأكيد بـ (ثم) إن أمن اللبس ، أجود من وصلهما . وذكر بعض النحاة الفاء . وذكر

---

(١) [٢ / البقرة / ٩٨] .

الزمخشريّ فى (الجاثية) الواو أيضاً . واتفق النحاة على أنه تأكيد اصطلاحىّ ، وكلام أهل المعانى فى إطلاق منعه غير سديد . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ)

« قَالَ قَرِينُهُۥ » أى قرين هذا الإنسان الكفار المناع للخير ، وهو شيطانه الذى كان موكّلًا به فى الدنيا ، متبرئاً منه « رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ » أى بالإرابة ومنع الإسلام، وجعل إله آخر معك « وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ » أى فى طريق جائر عن سبيل الهدى ، جوراً بعيداً بنفسه .

قال القاشانىّ : وقول الشيطان (مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ...) الخ كقوله[1] (إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم) لأنه لو لم يكن فى ضلال عن طريق التوحيد، بعيد عن الفطرة الأصلية بالتوجه إلى الجهة السفلية ، والتغشى بالغواشى المظلمة الطبيعية ، لم يقبل وسوسة الشيطان ، وقبل إلهام الملك. فالذنب إنما يكون عليه بالاحتجاب من نور الفطرة، واكتساب الجنسية مع الشيطان فى الظلمة . انتهى .

وقال ابن جرير[2] : وإنما أخبر تعالى عن قول قرين الكافر له يوم القيامة ، إعلاماً منه عباده ، تبرّؤ بعضهم من بعض يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ)

«قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ » أى لا تختصموا اليوم فى دار

(١) [١٤ / إبراهيم / ٢٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

الجزاء ، وموقف الحساب ، فلا فائدة فى اختصامكم ، وقد قدمت إليكم فى الدنيا بالوعيد لمن كفر بى وعصانى ، وخالف أمرى ونهيى فى كتبى ، وعلى ألسن رسلى .

قال القاشانىّ : النهى عن الاختصام ليس المراد به انتهاءه ، بل عدم فائدته ، والاستماع إليه . كأنه قال : لااختصام مسموع عندى . وقد ثبت وصح تقديم الوعيد ، حيث أمكن انتفاعكم به ، لسلامة الآلات ، وبقاء الاستعداد ، فلم تنتفعوا به ، ولم ترفعوا لذلك رأساً ، حتى ترسخت الهيآت المظلمة فى نفوسكم ، ورانت على قلوبكم ، وتحقق الحجاب ، وحق القول بالعذاب . انتهى .

وعن ابن عباس : أنهم اعتذروا بغير عذر ، فأبطل الله حجتهم ، ورد عليهم قولهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

« مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ » قال ابن جرير[١] : أى مايغير القول الذى قلته لكم فى الدنيا وهو قوله ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، ولا قضائى الذى قضيته فيهم فيها .

« وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى فلا أعذب أحداً بذنب غيره ، ولكن بذنبه بعد قيام الحجة عليه .

وقال القاشانىّ : ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ ﴾ حيث وهبت الاستعداد ، وأنبأت على الكمال المناسب له وهديتكم إلى طريق اكتسابه ، بل أنتم الظالمون أنفسكم باكتساب ماينافيه ، وإضاعة الاستعداد بوضع النور فى الظلمة ، واستبدال مايفنى بما يبقى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

تنبيهات :

الأول ـ ظاهر الآيات أن هذا التقاول على حقيقته ، إذ لا مانع منها . وذهب بعض المفسرين إلى أنها مجاز .

قال القاشانيّ : هذه المقاولات كلها معنوية ، مثلت على سبيل التخييل والتصوير ، لاستحكام المعنى فى القلب ، عند ارتسام مثاله فى الخيال . فادعاء الكافر الإطغاء على الشيطان ، وإنكار الشيطان إياه ، عبارة عن التنازع والتجاذب الواقع بين قوتيه : الوهمية والعقلية ، بل بين كل اثنتين متضادتين من قواه : كالغضبية والشهوية مثلًا . ولهذا قال : (لَا تَخْتَصِمُواْ) ولما كان الأمران فى وجوده هما العقلية والوهمية ، كان أصل التخاصم بينهما . وكذا يقع التخاصم بين كل متحاورين متخاوضين فى أمر ، لتوقع نفع أو لذة ، يتوقفان ما دام مطلوبهما حاصلًا ، فإذا حرما أوقعا بسعيهما فى خسران وعذاب ، تدارءا ، أو نسب كل منهما التسبب فى ذلك إلى الآخر ، لاحتجابهما عن التوحيد ، وتبرؤ كل منهما عن ذنبه ، لمحبة نفسه . ولذلك قال حارثة رضى الله عنه للنبيّ عليه السلام : ورأيت أهل النار يتعاورون . وصوّب عليه السلام قوله . انتهى .

الثانى إن قلت : لم طرحت الواو من جملة (قَالَ قَرِينُهُۥ) وذكرت فى الأولى ؟ قلت : لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة فى حكاية التقاول ، كما رأيت فى حكاية المقاولة بين موسى وفرعون .

فإن قلت : أين المقاولة ؟ قلت : لما قال قرينه (هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ) وتبعه قوله (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ) وتلاه (لَا تَخْتَصِمُواْ) ـ علم أن ثمّ مقاولة من الكافر ، لكنها طرحت للدلالة عليها من السياق كأنه لما قال القرين : هذا ما لديّ عتيد ، قال الكافر : ربِّ هو أطغانى ، فلما قال الكافر ذلك ، قال القرين : ما أطغيته ، فلما حكى قول القرين والكافر ، كأن قائلًا يقول : فماذا قال الله تعالى ؟ فقيل : قال لا تخصموا لديّ . وذكر الواو فى الجملة

الأولى لأنها أول المقـاولة ، ولا بد من عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ماقبلها في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملـكين ، وقول قرينه ما قال له ـ هذا ملخص ما في الـكشاف ـ .

الثالث ـ جوز قوله تعالى (بِالْوَعِيدِ) أن تـكون الباء زائدة في المفعول ، وأن يكون حالًا من الفاعل أو المفعول ، والباء للملابسة ، أو المعية . والمعنى : قدمت هذا القول موعداً لـكم به ، أو حال كون القول ملتبساً بالوعيد ، أو من (لَاتَخْتَصِمُواْ) على تأويل تقـديم الوعيد بالعلم به . أي : لا تختصموا عالمين به . وذلك لتصح الحالية ، ويكون بينها وبين عاملها مقارنة على اصطلاحهم .

الرابع ـ دل قوله تعالى (مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ) على أنه لاخلف في إيعاد الله تعالى ، كما لا إخلاف في ميعاد الله . وهذا يرد على المرجئة، حيث قالوا : ماورد في القرآن من الوعيد فهو تخويف ، لا يحقق الله شيئاً منه ، وقالوا : الـكريم إذا وعد أَنْجَزَ ووفّى ، وإذا أوعد أخلف وعفا ـ أفاده الرازيّ ـ .

ووجه الاستدلال أنه لوصح ما ذكروه للزم تبديل قوله تعالى ، والخلف في أخباره ـ تقدس عن ذلك ـ مع أن طبيعة الذنب تقتضي العقوبة ، إلا أن يتاب منه ، أو يشاء تعالى العفو عنه .

الخامس ـ ذكروا في سر المبالغة في (بِظَلَّامٍ) وجوهاً :

منها ـ أن (فعّالًا) قد ورد بمعنى (فاعل) ، فهذا منه .

ومنها اعتبار كثرة الخلق .

ومنها ـ أن المنسوب في المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم ، إن عظيماً فعظيم ، وإن قليلًا فقليل . فلما كان ملك الله تعالى على كل شيء ملـكه ، قدس ذاته عمايتوهم مخذول ، والعياذ بالله ، أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٠] ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

« يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ » قال ابن جرير(١) : فيه لأهل التأويل قولان :

الأول ـ أن معناه : مامن مزيد. فعن مجاهد قال: وعدها الله ليملأنها فقال: هلا وفيتك؟ قالت : وهل من مسلك ؟ !

الثانى ـ معناه : زدنى .

أى : فالاستفهام على الأول إنكارىّ . معناه النفى ، وأيد(٢) بآية ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ والقرآن يفسر بعضه بعضاً . وعلى الثانى تقريرىّ ، دلالة على سعتها ، بحيث يدخلها من يدخلها ، وفيها فراغ وخلوّ ، كأنه يطلب الزيادة .

فإن قيل : الوجه الثانى ، وهو كونها فيها فراغ ، مناف لصريح النظم من قوله ﴿ لَأَمْلَأَنْ جَهَنَّمَ . . . ﴾ الآية . قلت لا منافاة بينهما كما توهم ، لأن الامتلاء قد يراد به أنه لايخلو طبقة منها عمن يسكنها ، وإن كان فيها فراغ كثير . كما يقال : إن البلدة ممتلئة بأهلها ، ليس فيها دار خالية ، مع ما بينها من الأبنية والأفضية .أو هذا باعتبار حالين . فالفراغ فى أول دخول أهلها فيها ، ثم يساق إليها الشياطين ونحوهم فتمتلئ .

تنبيه :

ذهب جماعة إلى أن المقاولة فى الآية مجاز على طريق الاستعارة التمثيلية، وأن جهنم لشدة توقدها وزفيرها . وتهافت الكفرة والعصاة ، وقذفهم فيها ، كأنها طالبة للزيادة .

وآخرون إلى أن ذلك حقيقة .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية)

(٢) [١١ / هود / ١١٩] و [٣٢ / السجدة / ١٣] .

قال الناصر فى (الانتصاف) : إنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة، وأن الله تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه . وكيف نفرض ، وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك؟ منها هذا ، ومنها لجاج الجنة والنار ، ومنها اشتكاؤها إلى ربها ، فأذن لها فى نفَسين. وهذه وإن لم تكن نصوصاً ، فظواهر يجب حملها على حقائقها ، لأنا متعبدون باعتقاد الظاهر ، مالم يمنع مانع ، ولا مانع ههنا ، فإن القدرة صالحة ، والعقل يجوّز ، والظواهر قاضية بوقوع ما جوّزه العقل . وقد وقع مثل هذا قطعاً فى الدنيا ، كتسليم الشجر ، وتسبيح الحصى فى كف النبيّ ﷺ ، وفى يد أصحابه . ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظاهر فى تفاصيل المقالة، لاتسع الخرق ، وضل كثير من الخلق عن الحق . وليس هذا كالظواهر الواردة فى الإلهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها ، فإن العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق . انتهى .

قال الشهاب: وهو كلام حسن، وأمور الآخرة لاينبغى أن تقاس على أمور الدنيا. انتهى

ولا تنس ما قلناه مراراً من أن اللغة لا تنحصر فى الحقيقة ، وأن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة، كما أوضحه السيوطىّ فى (المزهر) والجرجانىّ فى (أسرار البلاغة) . وفى شواهد العرب الكثيرة ما يؤيد المجاز ، ولا محذور فيه ، عدا عن كونه أبلغ ، كما قرروه . وبالجملة ، فالنظم الكريم يحتملها ـ والله أعلم ـ .

و (يوم) منصوب بـ(ظلّام) أو بمضمر ، نحو : اذكر وأنذر . و (المزيد) إما مصدر كالمحيد ، أو اسم مفعول كالمبيع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ)

« وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ » أى قربت وأدنيت « لِلْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا ربهم فخافوا عقوبته، بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه « غَيْرَ بَعِيدٍ » أى مكاناً غير بعيد . فهو صفة للظرف قام

مقامه ، أو حال من الجنة . وتذكيره لأنه صفة مذكر . أى : شيئاً غير بعيد . أو تأويل الجنة بالبستان . أولكونها على زنة المصدر الذى من شأنه أن يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فعومل معاملته ، وأُجرى مجراه . وعلى كل فهو للتأكيد ، ودفع التجوز ، فلا يقال بعد ذكر كونها قربت ، لايحتاج إلى كونها غير بعيدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ)

« هَـٰذَا » أى الثواب أو الإزلاف « مَا تُوعَدُونَ » أيهاالمتقون « لِكُلِّ أَوَّابٍ » أى راجع عن معصية الله إلى طاعته ، تائب من ذنوبه « حَفِيظٍ » أى حافظ على فرائض الله وما ائتمنه عليه .

وقال القاشانىّ : أى محافظ على صفاء فطرته ونوره الأصلىّ ، كى لايتكدر بظلمة النفس . و (لكل) بدل من (للمتقين) بإعادة الجار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ)

« مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ » أى خاف الله فى سره . وقال القاشانىّ : أى من اتصف بالخشية ، وصارت الخشية مقامه . و (من) بدل بعد بدل ، أو خبر لمحذوف . أى هم من خشى . أو مبتدأ خبره مابعده بتأويل (يقال لهم ادخلوها ... الخ) « وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ » أى جاء ربه بقلب تائب من ذنوبه ، راجع مما يكرهه تعالى إلى ما يرضيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ)

[٣٥] (لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ، وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

« ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ » أى يقال لهم ادخلوا هذه الجنة بأمان من الهم والحزن والخوف .

« ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا » أى مما تشتهيه نفوسهم، وتلذه أعينهم «وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » أى مما لا يخطر على بالهم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ)

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم » أى قبل هؤلاء المشركين من قريش « مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا » أى قوة، كعاد وفرعون وثمود «فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ» أى فضربوا فيهاوساروا وطافوا أقاصيها . قال امرؤ القيس[١] :

لقــد نقّبتُ فى الآفاق حتى رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

« هَلْ مِن مَّحِيصٍ » أى هل كان لهم ، بتنقيبهم فى البلاد، من معدل عن الهلاك الذى وعدوا به لتكذيبهم الحق . والضمير على هذا فى (نقبوا) للقرن الذين هم أشد بطشاً . وجوز عوده لهؤلاء المشركين . أى ساروا فى أسفارهم فى بلاد القرون ، فهل رأوا لهم محيصاً حتى يتوقعوا مثله لأنفسهم ؟

قال ابن جرير[٢] : وقرأت القراء قوله (فَنَقَّبُوا۟) بالتشديد وفتح القاف ، على وجه

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

أرانا مُوضِعِينَ لِأَمْرِ غيبٍ ونُسْحَرُ بالطعام وبالشرابِ

انظر الصفحة رقم ٩٩ من الديوان (طبعة المعارف) .

الرواية فى جميع نسخ الديوان (طوّفت) وفى هامش شعراء النصرانية (وفى رواية نقبت) طوّفت : أكثرت الطواف والمشى فى نواحى الأرض حتى شق علىّ ذلك . وصرت أرى الرجوع إلى أهلى من غير ظفر ولا فائدة ولا غنيمة . والإياب : الرجوع .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

open-kandil.com

الخبر عنهم . وذُكر عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأ (فنقِّبوا) بكسر القاف ، على وجه التهديد والوعيد . أى طوفوا فى البلاد وترددوا فيها ، فإنكم لن تفوتونا بأنفسكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ » أى فى إهلاك القرون التى أهلكت من قبل قريش « لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ » أى لتذكرة يتذكر بها من كان له عقل من هذه الأمة ، فينتهى عن الفعل الذى كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم ، خوفاً من أن يحل بهم مثل الذى حلّ بهم من العذاب .

« أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ » أى أصغى للأخبار ، عن هذه القرون التى أهلكت ، بسمعه .

« وَهُوَ شَهِيدٌ » أى حاضر القلب ، متفهم لما يخبر به عنهم ، غير غافل ولا ساه . على أن (شهيد) من الشهود ، وهو الحضور . والمراد : التفطن ، لأن غير المتفطن كالغائب، فهو استعارة أو مجاز مرسل . أو (شهيد) بمعنى شاهد ، وفيه مضاف مقدر . أى : شاهد ذهنه . أو هو من الشهادة ، والمراد : شاهد بصدقه ، أى : مصدق له ، لأنه المؤمن الذى ينتفع به . أو هو كناية عن المؤمن ـ نقله الشهاب ـ .

لطيفة :

قيل : (أو) لتقسيم المتذكر إلى تال وسامع ، أو إلى فقيه ومتعلم ، أو إلى عالم كامل الاستعداد لا يحتاج لغير التأمل فيما عنده ، وقاصر محتاج للتعلم فيتذكر إذا أقبل بكليته ، وأزال الموانع بأسرها . وفى تنكير (القلب) وإبهامه ، تفخيم وإشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر ، كلا قلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ » أى إعياء .

قال قتادة : أكذب الله اليهود وأهل الفرى على الله ، وذلك أنهم قالوا إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح يوم السابع ، وذلك عندهم يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ)

[٤٠] (وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ)

« فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » يعنى : المشركين من إنكار البعث والتوحيد والنبوة ، « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ » أى أعقاب الصلوات . والمراد بالتسبيح إما ظاهره ، وهو قرين التحميد ، أو هو الصلاة ، من إطلاق الجزء ، أو اللازم على الكل ، أو الملزوم . فالصلاة قبل الطلوع ، الصبح . وقبل الغروب ، الظهر والعصر . ومن الليل ، العشاآن والتهجد . وأدبار السجود ، النوافل بعد المكتوبات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ)

[٤٢] (يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ)

«وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ» أى استمع، أى لما أخبرك به من أهوال القيامة . يوم ينادى مناديها من كل مكان قريب ، بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء .

قال القاضى : ولعله فى الإعادة نظير (كن) فى الإبداء . أى فهو تمثيل لإحياء الموتى بمجرد الإرادة ، وإن لم يكن نداء وصوت .

وفى ورود الأمر مطلقا ، ثم تبيينه بما بعده ، تهويل وتعظيم للمخبر به ، لما فى الإبهام ثم التفسير ، من التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه .

« يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ » أى صيحة البعث من القبور ، والحشر للجزاء « بِٱلْحَقِّ » قال ابن جرير[1] : يعنى بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب .

« ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ » أى من القبور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ)

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ » أى فى الدنيا بإفاضة نور الحياة أو قطعه « وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ » أى مصير الجميع يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ، ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ)

« يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا » أى فيخرجون منها مسرعين « ذَٰلِكَ حَشْرٌ

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

عَلَيْنَا يَسِيرٌ » أى ذلك الإخراج لهم جمع فى موقف الحساب ، علينا سهل بلا كلفة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ)

« نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ » يعنى : مشركى مكة ، من فريتهم على الله ورسوله ، وإنكارهم قدرته تعالى على البعث . وهو تسلية لرسول الله ﷺ ، وتهديد لهم . « وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ » أى بمسلط ومسيطر تقهرهم على الإيمان . « فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ » أى بل إنما بعثت مذكراً ومبلغاً ، فذكر بما أنزل إليك من يخاف الوعيد الذى أوعد به من عصى وطغى ، فإنه ينتفع به .

ومن دعاء قتادة : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعدك ، يا بارّ يا رحيم !

بسم الله الرحمن الرحيم

٥١ — سُورَةُ الذّارِيات

قال المهايمىّ : سميت بها لأنها مبدأ الخيرات ، فأشبهت العناية الإلهية . وهى مكية . وآيها ستون .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا)

« وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا » يعنى : الرياح التى تذرو البخارات ذرواً . أى نوعاً من الذرو ليعقدها سحباً . أو النساء الولود، فإنهن يذرين الأولاد ، مجازاً شبه تتابع الأولاد بمايتطاير من الرياح . أو الأسباب التى تذرى الخلائق من الملائكة وغيرهم . وهو استعارة أيضاً ، شبهت الأشياء المعدة للبروز من كمون العدم ، بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها .

و « الذَّٰرِيَٰتِ »اسم فاعل (ذرا) المعتل بمعنى فرّق وبدّد مارفعه عن مكانه . ويقال : أذرى أيضاً . وأما (ذرأ) المهموز فبمعنى أنشأ وأوجد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا)

فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا » أى السحب الحاملة للأمطار المنبتة للزروع والأشجار لإفادة الحبوب والثمار . كما قال زيد بن عمرو بن نفيل (١) :

وأسلمتُ نفسى لمن أسْلَمَتْ ... له المزنُ تحمل عَذْباً زُلالا

أو الرياح الحاملة للسحاب ، أوالنساء الحوامل ، أو أسباب ذلك .

و (الوِقر) بكسر الواو ، كالحمل وزناً ومعنى . وقرئ بفتح الواو على أنه مصدر سمى به المحمول .

(١) البيت من أربعة أبيات فى شعراء النصرانية (صفحة رقم ٦٢٢) . والرواية هناك :

* وأسلمت وجهى . . . *

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (فَالْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا)

[٤] (فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا)

« فَالْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا » أى السفن الجارية فى البحر سهلًا. أو الرياح الجارية فى مهابها. أو الكواكب التى تجرى فى منازلها . و (يُسْرًا) صفة مصدر محذوف . أى جرياً ذا يسر « فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا » أى الملائكة التى تقسّم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها. أو ما يعمهم وغيرهم من أسباب القسمة . أو الرياح يقسمن الأمطار بتصريف السحاب .

تنبيهات :

الأول ـ ذكرنا أن هذه الأمور الأربعة يجوز أن تكون أموراً متباينة ، وأن تكون أمراً له أربعة اعتبارات . والأول هو المأثور عن علىّ رضى الله عنه : أن الذاريات هى الرياح، والحاملات هى السحاب ، والجاريات هى السفن، والمقسمات هى الملائكة. واختار بعضهم فى (الجاريات) أنها الكواكب ، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى: فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك ، والملائكة فوق الجميع ، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية .

واستظهر الرازىّ أن الأقرب أن تكون صفات أربع للرياح ، وأطال فى ذلك .

واللفظ متسع بجوهره للكل ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فائدة (الفاء) إن قيل إنها صفات الرياح ، فلبيان ترتيب الأمور فى الوجود . فإن الذاريات تنشئ السحاب ، فتقسم الأمطار على الأقطار . وإن قيل إنها أمور أربعة ، فالفاء للترتيب الذكرىّ أو الرتبىّ .

الثالث ـ ذكر الرازىّ فى الحكمة فى القسم وجوهاً :

أحدها ـ أن الكفار كانوا فى بعض الأوقات يعترفون بكون النبىّ ﷺ غالباً فى إقامة

الدليل ، وكانوا ينسبونه إلى المجادلة ، وإلى أنه عارف فى نفسه بفساد مايقوله ، وأنه يغلبنا بقوة الجدل ، لابصدق المقال . كما أن بعض الناس إذا أقام عليه الخصم الدليل ، ولم يبق له حجة ، يقول : إنه غلبنى لعلمه بطريق الجدل، وعجزى عن ذلك. وهو يعلم فى نفسه أن الحق بيدى ، فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين ، فيقول : والله ! إن الأمر كما أقول، ولا أجادلك بالباطل . وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر ، فإذا تمّ الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ماقال فى الأول، إن ذلك تقرير بقوة علم الجدل، فلا يبقى إلا السكوت، أو التمسك بالأيمان ، وترك إقامة البرهان .

ثانيها ـ أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة ، وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع . ثم إن النبىّ ﷺ أكثر من الأيمان بكل شريف ، ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتاً. وكان يحصل لهم العلم بأنه لايحلف بها كاذباً ، وإلا لأصابه شؤم الأيمان، ولناله المكروه فى بعض الأزمان.

ثالثها ـ أن الأيمان التى أقسم الله تعالى بها ، كلها دلائل أخرجها فى صورة الأيمان . مثاله قول القائل لمنعمه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك . فيذكر النعم ، وهى سبب مفيد لدوام الشكر ، ويسلك مسلك القسم. كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة .

فإن قيل: فلمَ أخرجها مخرج الأيمان ؟ نقول: لأن المتكلم إذا شرع فى أول كلامه بحلف، يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم ، فيصغى إليه أكثر من أن يصغى إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر ، فبدأ بالحلف ، وأدرج الدليل فى صورة اليمين، حيث أقبل القوم على سماعه ، فخرج لهم البرهان المبين ، والتبيان المتين، فى صورة اليمين . انتهى . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾

[٦] ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾

« إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ » جواب القسم . و (ما) موصولة أو مصدرية . والموعود

هو قيام الساعة، وبعث الموتى من قبورهم. و (صادق) بمعنى صدْق . فوضع الاسم مكان المصدر. أو هو من باب (عيشة راضية) . « وَإِنَّ ٱلدِّينَ » أى الجزاء على الأعمال، إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر «لَوَٰقِعٌ » أى لحاصل. قال قتادة : وذلك يوم القيامة، يوم يدين الله العباد بأعمالهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ)

[٨] (إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ)

[٩] (يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ)

« وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ » أى الطرق المختلفة التى هى دوائر سير الكواكب .

و (الحبك) أصل معناها ما يرى كالطريق فى الرمل والماء ، إذا ضربته الريح. وكذلك حبك الشَّعر : آثار تثنّيه وتكسّره . و (الحبك) بضمتين جمع حِباك ، كمثال ومثل وكتاب وكتب . أو حبيكة كطريقة وطرق . قال زهير يصف غديراً[1] :

مكللٌ بأصولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ ريحٌ خَرِيقٌ لضاحى مائِه حُبُكُ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزوّدوك اشتياقاً ، أية سلكوا .

قال الأصمعىّ : النجم : النبت الذى يقال له الثِّيلُ . وقال غيره: الماء مكلَّل بالنجم . وهو كل شىء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل .

ويقال : نَجَمَ البقلُ : إذا طلع . ومنه : نجم قرن الظبية إذا طلع .

ريح خارق ، يقال : هبت الشِّمالُ خَرِيقا ، إذا هبت هبوبا شديدا .

لضاحى مائه : ما ضحا للشمس من الماء ، برز للشمس .

وحُبُك : طريق الماء . الواحد حَبِيك .

يقول : إذا مرت به الريحُ نسجت الريح ذلك الماء . ونسْجُها إياه : مرُّها عليه.

(انظر شرح الديوان ، صفحة ١٧٦ ، طبعة الدار) .

ويقال : ما أملح حباك هذه الحمامة ! وهو الخط الأسود على جناحها .

وعن الحسن[١] : (ذات الحبك) أى النجوم . قال : حُبِكَتْ بالْخَلْقِ الحسن ، حُبِكَتْ بالنجوم . وذلك لأنها تزين السماء ، كما يزين الثوب الموشىّ تحبيكه ، فشبهت النجوم بطرائق الوشى مجازاً بالاستعارة .

وقال بعض علماء الفلك : الحبك جمع حبيكة ، بمعنى محبوكة ، أى : مربوطة . فمعنى (ذَاتِ ٱلْحُبُكِ) ذات المجاميع من الكواكب المربوط بعضها ببعض بحبال من الجاذبية ، فإن كل حبيكة مجموعة من الكواكب المتجاذبة . فالآية الشريفة نص على تعدد المجاميع وعلى الجاذبية التى يزعم الأفرنج أنهم مكتشفوها . وعليه ، فهى إحدى معجزات القرآن العلمية . انتهى .

« إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ » أى متخالف متناقض . قال ابن زيد : يتخرصون يقولون : هذا سحر ويقولون (إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) « يُؤْفَكُ » أى يصرف « عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » أى صرف عن الحق الصريح الصرف التام ، إذ لا صرف أشد منه .

وقد ذكر القاضى فى مناسبة المقسم به للمقسم عليه ، هو تشبيه أقوالهم فى اختلافها ، وتنافى أغراضها ، بالطرائق للسموات فى تباعدها ، واختلاف غاياتها .

ثم أشار إلى أنهم لم يؤفكوا لاتباعهم الدلائل ، بل لأخذهم بالخرص والتخمين ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ)

[١١] (ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

[١٢] (يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ)

[١٣] (يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ)

---

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرىّ ، الصفحة رقم ١٨٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ » أى لعن الآخذون بالتخمين ، مع ترك دلائل اليقين « ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ » أى فى جهل يغمرهم عن وجوب اتباع الدلائل القاطعة ، وترك الشبهات الواهية « سَاهُونَ » أى غافلون عما أتاهم ، وعما نزل إليهم ، بالانهماك فى اللذات البدنية ، واستئثار الحظوظ العاجلة « يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ » أى متى يوم الجزاء ، ويوم يدين الله العباد بأعمالهم « يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ » أى يحرقون . وأصل الفتن إذابة الجوهر ليظهر غشه . ثم استعمل فى التعذيب والإحراق ونحوه .

قال القاضى : جواب للسؤال . أى يقع يوم هم على النار يفتنون، أو هو يوم هم .. الخ وفتح (يومَ) لإضافته إلى غير متمكن ، ويدل عليه أنه قرئ بالرفع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ)

« ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ » أى مقولًا لهم : ذوقوا عذابكم الذى طلبتموه، بل الذى استعجلتموه قبل وقته ، كما قال « هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ » أى حصوله فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ)

[١٦] (ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ)

[١٧] (كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[١٨] (وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[١٩] (وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ)

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا الله بطاعته ، واجتناب معاصيه فى الدنيا ، وبتجنب

القول بالخرص والتخمين فى الأمور الاعتقادية . « فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ » قال ابن جرير [١] : أى عاملين ما أمرهم به ربهم، مؤدين فرائضه . وقال غيره : أى قابلين لما أعطاهم من النعيم الأخروىّ ، راضين به .

وهذا هو الوجه . ولذا قال ابن كثير : والذى فسر به ابن جرير فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى (ءَاخِذِينَ) حال من قوله (فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ) فالمتقون فى حال كونهم فى الجنات والعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم . أى من النعيم والسرور والغبطة .

ثم أشار إلى سر استحقاقهم لذلك بقوله « إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ » يعنى : فى الدنيا « مُحْسِنِينَ » أى قد أحسنوا أعمالهم لغلبة محبة الله على قلوبهم ، بظهور آثارها فى أفعالهم وأقوالهم، كما بينه بقوله سبحانه « كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » أى كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً ، لتقوى نفوسهم على عبادته تعالى ، بنشاط .

روى ابن جرير [١] عن أنس فى الآية ؛ أنهم كانوا يصلّون مابين هاتين الصلاتين، مابين المغرب والعشاء .

وعن محمد بن علىّ : كانوا لاينامون حتى يصلّوا العتمة .

وعن مطرّف : قلّ ليلة أتت عليهم ، إلا صلوا فيها من أولها أو من وسطها .

وعن الحسن قال : لاينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل .

وقرأ الأحنف بن قيس هذه الآية فقال : لست من أهل هذه الآية .

وعن الضحاك : أن الوقف على قوله تعالى (كَانُواْ قَلِيلًا) أى أن المحسنين كانوا قليلاً . ثم ابتدئ فقيل (مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) . و (ما) نافية . أى لا يهجعون .

قال ابن كثير : هذا القول فيه بعد وتعسف .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

لطيفة :

فى هذه الجملة الكريمة مبالغات فى وصف هؤلاء بقلة النوم ، وترك الاستراحة . وذلك ذكر القليل ، والليل الذى هو وقت النوم ، والهجوع الذى هو الخفيف من النوم ، وزيادة (ما) لأنها تدل على القلة . وبالجملة ، ففى الآية استحباب قيام الليل، وذم نومه كله. والأحاديث على ذلك كثيرة شهيرة « وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » قال القاضى : أى أنهم مع قلة هجوعهم، وكثرة تهجدهم، إذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار ، كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم.

قال الرازىّ : فى الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجّدون ويجتهدون، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه، فيستغفرون من التقصير . وهذا سيرة الكريم : يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ، ويعتذر من التقصير . واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره ، ويمنّ به . وفيه وجه آخر ألطف منه : وهو أنه تعالى ، لما بيّن أنهم يهجعون قليلًا ، والهجوع مقتضى الطبع ، قال (يَسْتَغْفِرُونَ) أى من ذلك القدر من النوم القليل . وفيه لطيفة أخرى نبّينها فى جواب سؤال : وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ، ولم يمدحهم بكثرة السهر، وما قال : كانوا كثيراً من الليل ما يسهرون ، فما الحكمة فيه ؟ مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد، لا الهجوع ؟ نقول : إشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلًا، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى، وهو الاستغفار، فى وجوه الأسحار، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار .

ثم قال : والاستغفار يحتمل طلب المغفرة بالذكر بقولهم : ربنا اغفر لنا . وطلب المغفرة بالفعل ، أى بالأسحار. يأتون بفعل آخر طالباً للغفران ، وهو الصلاة . والأول أظهر، والثانى عند المفسرين أشهر . انتهى .

ويؤيد الثانى الإشارة إلى الزكاة فى الآية بعدها . والزكاة قرينة الصلاة فى كثير من الآيات. وسر التعبير عن الصلاة بالاستغفار ، الإشارة إلى أنه ركنها المهم فى التهجد، بل وفى غيره،

فيكون من إطلاق الجزء على الكل . وقد ذكر فى أذكار الصلاة الاستغفار فى مواضع منها. كالركوع والسجود وبين السجدتين وآخر الصلاة، كما أخرجه الشيخان وأهل السنن ـ وكان ﷺ يطيل الركوع والسجود والتهجد لذلك .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ فى (أساس البلاغة) إنما سمى (السحر) استعارة ، لأنه وقت إدبار الليل ، وإقبال النهار ، فهو متنفس الصبح . انتهى .

« وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ » أى الفقير المتعفف الذى يُظَن غنيًّا ، فيحرم الصدقة .

قال قتادة : هذان فقيرا أهل الإسلام : سائل يسأل فى كفه ، وفقير متعفف، ولكليهما عليك حق ، يا ابن آدم .

وفى الصحيح[1] عن النبىّ ﷺ : ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان . ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه .

وروى الإمام[2] أحمد عن الحسين بن علىّ رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : للسائل حق وإن جاء على فرس . ورواه أبو داود وأسنده عن علىّ كرم الله وجهه .

ويدخل فى (المحروم) كل من لا مال له ، ومن هلك ماله بآفة ، ومن حرم الرزق واحتاج ، إلا أن أهم أفراده المتعفف . ولذا عوّل عليه الأكثر .

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس : فى أموالهم حق سوى الزكاة يَصِلون بها رحماً، أو يقرون بها ضيفاً ، أو يحملون بها كلًّا .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤٨ ـ باب لا يسألون الناس إلحافا ، حديث رقم ٧٨٨ ، عن أبى هريرة .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٧٩٠ (طبعة المعارف) .

ثم أشار تعالى إلى أنه لا حاجة إلى الخرص والتخمين فى باب الاعتقادات، لكثرة الآيات الواضحة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ)

« وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ » أى عبر وعظات لأهل اليقين ، وهم الذين يقودهم النظر إلى ما تطمئن به النفس ، وينثلج له الصدر ، فيرون فيها مما ذرأ من صنوف النبات والحيوانات ، والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، عبراً وآيات عظاماً، وشواهد ناطقة بقدرة الصانع ووحدانيته ، جل جلاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

« وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى فى حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال ، واختلاف ألسنتها وألوانها ، وما جبلت عليه من القوى والإرادات، وما بينها من التفاوت فى العقول والأفهام ، وما فى تراكيب أعضائها من الحكم فى وضع كل عضو منها ، فى المحل المفتقر إليه ، إلى غير ذلك مما لا يحصيه قلم كاتب، ولا لسان بليغ .

أنشد الحافظ ابن أبى الدنيا فى كتابه (التفكر والاعتبار) لشيخه أبى جعفر القرشىّ :

وإذا نظرتَ تريد معتبَراً ... فانظر إليك ، ففيك معتبرُ
أنت الذى تُمسى وتُصْبِحُ فى الـ ... دُّنْيـا وكلُّ أموره عِبَرُ
أنت المصرّف كان فى صغر ... ثم استقلّ بشخصك الكِبَرُ
أنت الذى تنعاه خلقتُهُ ... ينعاه منه الشَّعْرُ والبَشَرُ
أنت الذى تعطَى وتسلَب، لا ... ينجيه من أن يُسلَب الحَذَرُ
أنت الذى لا شىء منه له ... وأحقُّ منه بما له القَدَرُ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

«وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» يعنى بـ (السماء) المزن ، وبـ (الرزق) المطر ، فإنه سبب الأقوات . والمراد بـ (مَا تُوعَدُونَ) العذاب السماوىّ ، لأن مؤاخذات المكذبين الأولين كانت من جهتها . والخطاب لمشركى مكة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ)

« فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ » أى الذى خلقهما للاستدلال بهما على حقيقة ما أخبر «إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ» أى مثل نطقكم. والضمير فى (إنه) عائد لما ذكر من أمر الآيات والرزق ، أو أمر النبىّ ﷺ ، أو إلى (مَا تُوعَدُونَ) ويؤيدالأخير ماتأثره من أنباء وعيد المكذبين ، وبدأ منها بنبأ قوم لوط ، لأن قراهم واقعة فى ممرهم إلى فلسطين للاتجار ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ)

[٢٥] (إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ، قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ)

[٢٦] (فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[٢٧] (فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

[٢٨] (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ)

[٢٩] (فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)

[٣٠] ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾

« هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ » يعني: الملائكة الذين دخلوا عليه في صورة ضيف. قال الزمخشريّ: فيه تفخيم للحديث، وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ، وإنما عرفه بالوحي. وإكرامهم أن إبراهيم خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجل لهم القرى، أو أنهم في أنفسهم مكرمون.

« إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ » أي سلام عليكم « قَوْمٌ مُّنكَرُونَ » أي أنتم قوم لا أعرفكم. وهو كالسؤال منه عن أحوالهم، ليعرفهم. فإن قولك لمن لقيته: أنا لا أعرفك! في قوة قولك: عرف لي نفسك وصفها.

« فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ » أي ذهب إليهم في خفية من ضيوفه. ومن أدب المضيف أن يخفي أمره، وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف، حذراً من أن يكفه ويعذره ـ قاله الزمخشريّ ـ وأيده الناصر بما حكى عن أبي عبيد: أنه لا يقال راغ، إلا إذا ذهب على خفية وأنه يقال روّغ اللقمة إذا غمسها فرويت سمناً. قال الناصر: وهو من هذا المعنى، لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى. ومن مقلوباته (غوّر الأرض) والجرح. وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى. انتهى.

« فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ » أي قد أنضجه شيًّا « فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ » أي بأن وضعه بين أيديهم « قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ » أي منه. قال القاضي: وهو مشعر بكونه حنيذاً. والهمزة فيه للعرض، والحث على الأكل على طريقة الأدب، إن قاله أول ما وضعه. وللإنكار، إن قاله حينما رأى إعراضهم.

« فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » أي أضمرها، لظنه أنهم أرادوا به سوءاً « قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ » أي يبلغ ويكمل علمه « فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ » أي صيحة « فَصَكَّتْ » أي لطمت « وَجْهَهَا » أي تعجباً، على عادة النساء في كل غريب عندهن،

« وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ » أى عاقر ليس لى ولد « قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ » أى مثل الذى قلنا وأخبرنا به، قال ربك، فإنما نخبرك عن الله. فاقبلى قوله، ولا تتوهمى عليه خلاف الحكمة، ولا الجهل، بعدم قبولك للولادة . « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ)

[٣٢] (قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)

[٣٣] (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ)

[٣٤] (مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)

[٣٥] (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[٣٦] (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

[٣٧] (وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ)

« قَالَ » أى إبراهيم لضيفه « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم وشأنكم « أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى مؤاخذتهم « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ » أى رجماً لهم على فعلهم الفاحشة « مُّسَوَّمَةً » أى مرسلة ، أو معلّمة « عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ » أى المتعدّين حدود الله ، الكافرين به « فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا » أى فى تلك القرية (مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى بإيحاء الخروج إليهم على لسان الملائكة ، وهم لوط وابنتاه عليهم السلام . « فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ » يعنى بيت لوط عليه السلام « وَتَرَكْنَا فِيهَآ » أى فى تلك القرية « ءَايَةً » أى علامة تدل على إهلاكهم الدنيوىّ الدال على الأخروىّ « لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ » أى فى الآخرة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ)

[٣٩] (فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[٤٠] (فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)

« وَفِي مُوسَىٰٓ » عطف على (فيها) بإعادة الجار ، لأن المعطوف عليه ضمير مجرور . أى وتركنا فى قصة موسى بإهلاك أعدائه ، آيةً وحجة تبين لمن رآها حقية دعواه .

« إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى ببرهان ظاهر « فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ » أى فأعرض عن الإيمان . والركن : جانب الشيء . فـ (ركنه) جانب بدنه . فالتولى به كناية عن الإعراض . والباء للتعدية ، لأن معناه ثنى عطفه . أو للملابسة . أو الركن فيه بمعنى الجيش ، لأنه يركن إليه ، ويتقوى به ، والباء للمصاحبة أو للملابسة . « وَقَالَ سَٰحِرٌ » أى هو ساحر « أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ » أى فأغرقناهم فى البحر « وَهُوَ مُلِيمٌ » أى آت بما يلام عليه من الكفر والعناد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ)

[٤٢] (مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ)

« وَفِي عَادٍ » أى وتركنا فى عاد ، قوم هود عليه السلام آية « إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ » أى التى لا خير فيها من إنشاء مطر ، أو إلقاح شجر . وهى ريح الهلاك . « مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ » أى الشيء الهالك . وأصل الرميم : البالى المفتت ، من عظم أو نبات أو غير ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ)

[٤٤] (فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ)

[٤٥] (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ)

« وَفِي ثَمُودَ » أى وتركنا فى ثمود ، قوم صالح عليه السلام « إِذْ قِيلَ لَهُمْ » أى بعد عقرهم الناقة « تَمَتَّعُوا » أى فى داركم « حَتَّىٰ حِينٍ » يعنى: ثلاثة أيام ، كما بينته الآية الأخرى.

« فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ » أى فاستكبروا عن امتثاله « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ » يعنى العذاب الحالّ بهم ، المعهود « وَهُمْ يَنظُرُونَ » أى إليها . فإنها نزلت بهم نهارًا .

« فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ » أى نهوض ، فضلًا عن دفاع عذاب الله « وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ » أى ممتنعين من العذاب . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

« وَقَوْمَ نُوحٍ » قرئ بالجر عطفاً على (وَفِي ثَمُودَ) أو المجرورات قبل . وبالنصب مفعولًا لمضمر دل عليه السياق والسباق . أى وأهلكنا قوم نوح . أو عطفاً على مفعول (فَأَخَذْنَاهُ) أو على محل (وَفِي مُوسَىٰ) . « مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ » أى : مخالفين أمر الله ، خارجين عن طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[٤٨] (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ)

« وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ » أى رفعناها بقوة « وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » أى لقادرون على

الإيساع ، كما أوسعنا بناءها . « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا » أى مهدناها ليتمتعوا بها « فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ » أى لهم . وفى إيثار صيغة فاعل من (مهد على فرش) إشارة إلى أن من المواد ما تختلف صيغته فى النظم فعلًا واسمًا ، فيكون فى أحدها أرق وألطف وأفصح ، فيؤثر على غيره فى ظرف، ويؤثر عليه غيره فى آخر. والمرجع الذوق ـ كما بسطه ابن خلدون وابن الأثير.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

« وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » أى ذكرًا وأنثى ، أو نوعين متقابلين .

قال ابن كثير : جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض . وليل ونهار . وشمس وقمر . وبر وبحر . وضياء وظلام . وإيمان وكفر . وموت وحياة . وشقاء وسعادة . وجنة ونار . حتى الحيوانات والنباتات . انتهى . وهو مأخوذ من كلام ابن جرير فى تأييد تفسير مجاهد ، وعبارة ابن جرير[١] :

وأولى القولين فى ذلك قول مجاهد : وهو أن الله تبارك وتعالى خلق لكل ما خلق من خلقه ثانيًا له ، مخالفًا فى معناه. فكل واحد منهما زوج للآخر، ولذلك قيل (خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) وإنما نبه جل ثناؤه بذلك من قوله (خَلْقِهِ) على قدرته على خلق ما يشاء ، وأنه ليس كالأشياء التى شأنها فعل نوع واحد دون خلافه، إذ كل ما صفته فعل نوع واحد دون ما عداه، كالنار التى شأنها التسخين ولا تصلح للتبريد، وكالثلج الذى شأنه التبريد ولا يصلح للتسخين، فلا يجوز أن يوصف بالكمال ، وإنما كمال المدح للقادر على فعل كل ما شاء فعله من الأشياء المختلفة والمتفقة . انتهى .

« لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » قال ابن جرير[٢] : أى لتذكروا وتعتبروا بذلك ، فتعلموا

---

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

أيها المشركون بالله ، أن ربكم الذى يستوجب عليكم العبادة ، هو الذى يقدر على خلق الشىء وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شىء ، لا ما لا يقدر على ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ، إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

« فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ » أى فِرُّوا من عقابه إلى رحمته ، بالإيمان به ، واتباع أمره ، والعمل بطاعته . قال الشهاب : الأمر بالفرار من العقاب ، المراد به الأمر بالإيمان والطاعة، لأنه لأمنه من العقاب بالطاعة ، كأنه فر لمأمنه . فهو استعارة تمثيلية . « إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى أنذركم عقابه ، وأخوفكم عذابه الذى أحلّه بهؤلاء الأمم الذين قص عليكم قصصهم ، والذى هو مذيقهم فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ، إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

«وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى قد أبان النذارة. قال أبو السعود : وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى ، لكن لا بطريق التكرير ـ كما قيل ـ بل بالنهى عن سببه ، وإيجاب الفرار منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾

[٥٣] ﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

[٥٤] ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾

« كَذَٰلِكَ » أى كما ذكر من تكذيبهم الرسول ، وتسميتهم له ساحراً أو مجنوناً ،

«مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» يعنى تقليداً لآبائهم، واقتداءً لآثارهم ، فمورد جهالتهم مؤتلف ، ومشرع تعنتهم متحد . وقوله تعالى « أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ » إنكار وتعجيب من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التى لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء ، فضلًا عن التفوُّه بها. أى أأوصى بهذا القول بعضهم بعضاً حتى اتفقوا عليه. وقوله تعالى « بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر تواصيهم بذلك ، وإثبات لكونه أمراً أقبح من التواصى وأشنع منه ، من الطغيان الشامل للكل ، الدالّ على أن صدور تلك الكلمة الشنيعة من كل واحد منهم ، بمقتضى جبلته الخبيثة ، لا بموجب وصية مَن قبلهم بذلك ـ أفاده أبو السعود ـ .

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى أعرض عن مقابلتهم بالأسوأ ، كقوله تعالى[1] (وَدَعْ أَذَىٰهُمْ) وقوله[2] (وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا). « فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ » أى فى إعراضهم، إذ لست عليهم بجبار ولا مسيطر ، وما عليك من حسابهم من شىء .

تنبيه :

قول بعض المفسرين هنا ـ (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) أى فأعرض عن مجادلتهم ، بعد ما كررت عليهم الدعوة ـ بعيد عن المعنى بمراحل ، لأن مجادلتهم مما كان مأمورًا بها على المدى ، لأنها العامل الأكبر لإظهار الحق ، كما قال تعالى[3] (وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا).

وكذا قول البعض فى قوله تعالى (فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ) أى فى إعراضك بعد ما بلغت . فإنه مناف للأمر بالذكرى بعد. فالصواب ماذكرناه فى تفسير الآية، لأنه المحاكى لنظائرها. وأقعد التفاسير ما كان بالأشباه والنظائر ـ كما قيل ـ : وخير ما فسرته بالوارد .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] . (٢) [٨٣ / المزمل / ١٠] .
(٣) [٢٥ / الفرقان / ٥٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

« وَذَكِّرْ » أى عظهم « فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى من قدّر الله إيمانه ، أو الذين آمنوا ، فإنهم المقصودون من الخلق ، لا مَن سواهم ، إذ هم العابدون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

« وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أى لهذه الحكمة ، وهى عبادته تعالى بما أمر على لسان رسوله ، إذ لايتم صلاح ، ولا تنال سعادة فى الدارين، إلا بها . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ)

[٥٨] (إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ)

« مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ » بيان لعظمته عز وجل ، وأن شأنه مع عبيده لايقاس به شأن عبيد الخلق معهم ، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة ، وبواسطة مكاسب عبيدهم ، قدّر أرزاقهم . والله تعالى لا يطلب من عباده رزقاً ولا إطعاماً ، بل هو الذى يرزقهم . وإنما يطلب منهم عبادته ليصرفوا ما أنعم به عليهم إلى ما خلقوا لأجله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ)

« فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ » أى ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب الرسول ،

والإصرار على الشرك والبغى والفساد، « ذَنُوباً »أى نصيباً وافراً من العذاب« مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ » أى مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحكية . وأصل (الذنوب) الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، أو القريبة من الامتلاء . وهى تذكّر وتؤنّث ، فاستعيرت للنصيب مطلقاً،شرًّا كالنصيب من العذاب فى الآية ، أو خيرًا كما فى العطاء فى قول عمرو بن شاس [1] :

وفى كل حىٍّ قد خبطتَ بنعمة فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب ، فيعطى لهذا ذنوب ، ولآخر مثله .

« فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ » أى لا يطلبوا منى أن أعجل به قبل أجله ، فإنه لا بد آتيهم ، ولكن فى حينه ، المؤخر لحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ)

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ » أى أوعدوا فيه نزول العذاب بهم ، ماذا يلقون فيه من البلاء والجهد . و (اليوم) إما يوم القيامة ، أو يوم بدر .

قال أبو السعود : والأول هو الأنسب بما فى صدر السورة الكريمة الآتية . والثانى هو الأوفق لما قبله ، من حيث إنهما من العذاب الدنيوىّ ـ والله أعلم ـ .

---

(١) قائل البيت هو علقمه الفحل . من المفضلية رقم ١١٩ التى مطلعها :

طَحَا بِكَ قلبٌ فى الحِسَانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ ، عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

يقال : خبطه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما .

وشأس : هو أخو علقمة بن عبدة .

والذّنوب الدلو . أراد حظًّا ونصيبا .

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٢ – سورة الطور

قال المهايمىّ : سميت به لأنه لما تضمن تعظيم مهبط الوحى ، فالوحى أولى بالتعظيم ، فيعظم الاهتمام بالعمل، لاسيما وقد عظم مصعد العمل وثمرته . وهذا من أعظم مقاصد القرآن.

وهى مكية ، وآيها تسع وأربعون .

روى الشيخان[١] ومالك عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبىّ ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه .

وروى البخارىّ[٢] عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ إنى أشتكى ! فقال : طوفى من وراء الناس وأنت راكبة . فطفت ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت، يقرأ بالطور وكتاب مسطور .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٢ ـ سورة والطور ، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٤٦٥ . وأخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ١٧٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٢ ـ سورة والطور ، ١ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، حديث رقم ٣٠٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ﴿ وَٱلطُّورِ ﴾

[٢] ﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴾

[٣] ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾

[٤] ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾

[٥] ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾

[٦] ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾

« وَٱلطُّورِ » أى طور سينين ، جبل بمَدْيَنَ ، سمع فيه موسى ، صلوات الله عليه ، كلام الله تعالى ، واندك بنور تجليه تعالى .

« وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ » أى مكتوب . والمراد به القرآن ، أو ما يعمّ الكتب المنزلة .

« فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ » متعلق بـ (مسطور) . أى وكتاب سطِّر فى ورق منشور يقرأ على الناس جهاراً . و (الرق) الصحيفة أو الجلد الذى يكتب فيه .

« وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ » أى الذى يعمر بكثرة غاشيته . وهو الكعبة المعمورة بالحجاج والعمّار والطائفين والعاكفين والمجاورين. وروى أنه بيت فى السماء بحيال الكعبة من الأرض. يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبداً . والأول أظهر ، لأنه يناسب ماجاء فى سورة (التين) من عطف (ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ) على (طُورِ سِينِينَ) والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته ، وتماثلها كثيراً ، وإن تنوعت بلاغة الأسلوب .

obeikandl.com

قال المهايمىّ : أورده بعد الكتاب الذى هو الوحى ، لأنه محل أعظم الأعمال المقصودة منه ، ولأنه مظهر الوحى ، ومصدر الرحمة العامة المهداة للعالمين ، ولأنه من أجلّ الآيات وأكبرها . كما دل عليه آية[١] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ وآيات أخر .

« وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ » يعنى السماء . وجعلها سقفاً ، لأنها للأرض كسماء البيت الذى هو سقفه .

« وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ » أى المملوء ، أو الذى يوقد ، أى يصير ناراً ، كقوله[٢] ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال ابن[٣] جرير : والأول أولى . أعنى : أن معناه البحر المملوء المجموع ماؤه بعضه فى بعض ، لأن الأغلب من معانى (السَّجْر) الإيقاد أو الامتلاء . فإذا كان البحر غير موقد اليوم ، ثبتت له الصفة الثانية وهو الامتلاء ، لأنه كل وقت ممتلئ . ولا تنس ما قدمنا فى أوائل (الذَّارِيَاتِ) من أن هذه الأقسام كلها دلائل أخرجت فى صورة الأيمان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾

[٨] ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾

[٩] ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾

[١٠] ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾

[١١] ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

[١٢] ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٦٧] .　　(٢) [٨١ / التكوير / ٦] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٩ و٢٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

obeikandl.com

[١٣] (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا)

[١٤] (هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ)

[١٥] (أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ)

[١٦] (ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ » أى يدفعه عن المكذبين، فينقذهم منه إذا وقع . « يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا » أى تضطرب. « وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا » أى تسير عن وجه الأرض فتصير هباء منثورًا « فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » أى بالحق، الجاحدين له « ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ » أى من الاعتساف والاستهزاء « يَلْعَبُونَ » أى بآيات الله ودلائله « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا » أى يدفعون إليها بعنف . يقال : دعمت فى قفاه ، إذا دفعته فيه بإزعاج « هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ » أى يقال لهم ذلك « أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ » أى الذى وردتموه الآن . والفاء للسببية ، لتسبب هذا عما قالوه فى الوحى « أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ » أى كما كنتم لا تبصرون فى الدنيا . قال الزمخشرىّ : يعنى أم أنتم عمى عن المخبر عنه ، كما كنتم عمياً عن الخبر . وهذا تقريع وتهكم . « ٱصْلَوْهَا » أى : ذوقوا حرّ هذه النار « فَٱصْبِرُوٓاْ » أى على ألمها، « أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ » أى الأمران: الصبر وعدمه سواء عليكم « إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى لا تعاقبون إلا على معصيتكم فى الدنيا لربكم ، وكفركم به .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ...) الخ؟ قلت لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير . فأما الصبر على العذاب الذى هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ)

[١٨] (فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ)

[١٩] (كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٠] (مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ، وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ)

«إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ» أى متلذذين بما لديهم من الفواكه الكثيرة «وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ» جمع (عيناء) ، وهى الواسعة العين ، فى حسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ، كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

«وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ» أى اقتفت آثارهم فى الإيمان والعمل الصالح «أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» أى فى الجنات والنعيم . والخطاب ، لما كان مع الصحابة رضى الله عنهم ، وهم واثقون بوعد الله ، تم لهم البشارة بالموعود به ، بأنه ينال ذريتهم أيضاً، إن اتبعوا آباءهم بإحسان . هذا هو المراد من الآية . وأما من قال فى معناها : إن المؤمن ترفع له ذريته فيلحقون به ، وإن كانوا دونه فى العمل، فلا تقتضيه الآية تصريحاً ولا تلويحاً «وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ» أى وما نقصناهم من ثواب عملهم شيئاً «كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ» أى بما عمل من خير أو شر مرتهن به، لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، وإنما يعاقب بذنب نفسه.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾

[٢٣] ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾

[٢٤] ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾

« وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » أى زدناهم وقتاً بعد وقت ، ما ذكر . « يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا » أى يتعاطون فيها كأس الشراب ويتجاذبونها « لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ » أى لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث وباطله ، ولا يفعلون مايؤثم به فاعله ، كما كان فى الدنيا . « وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ » أى مصون فى كِنّ ، فهو أنق له ، وأصفى لبياضه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾

[٢٦] ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾

[٢٧] ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾

[٢٨] ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾

« وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ » أى يتجاذبون أطراف الأحاديث المفضية إلى شكر المنعم ، والتحدث بالنعمة ، وذلك فى مساءلة بعضهم بعضاً عما مضى لهم فى الدنيا . « قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ » أى خائفين من عذاب الله « فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ » يعنى : عذاب النار . وأصل (ٱلسَّمُومِ) الريح الحارّة التى تدخل المسامّ ، فسميت بها نار جهنم ، لمشابهتها لها ، وإن كان وجه الشبه فى النار أقوى ، لـكنه

فى ريح السموم لمشاهدته فى الدنيا ، أعرف . « إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ » أى نعبده مخلصين له الدين « إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ » أى المحسن بمن دعاه « ٱلرَّحِيمُ » أى لمن عبده وخافه بالهداية والتوفيق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)

« فَذَكِّرْ » أى من أرسلت إليهم وعظهم « فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ » أى تتكهن فيما تدعو إليه ، « وَلَا مَجْنُونٍ » أى له رئىّ من الجن يخبر عنه قومه ما أخبر عنه ، كما يعتقده العرب فى بعضهم ، ولكنك رسول الله حقًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ)

[٣١] (قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ » أى حوادث الدهر أو الموت ، لأن (المنون) قد يراد به الدهر ، وريبه صروفه . وقد يراد به الموت ، وريبه نزوله . « قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ » أى : حتى يأتى أمر الله فيكم . والأمر للتهكم بهم والتهديد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[٣٣] (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ، بَل لَّا يُؤْمِنُونَ)

[٣٤] (فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ)

« أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ » أى عقولهم بهذا التناقض فى القول ، « أَمْ » أى بل

« هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » أى مجاوزون الحد فى العناد،مع ظهور الحق « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ » أى اختلق هذا القرآن من عند نفسه ، « بَل لَّا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا حسداً وتقليداً،فلذلك يرمونه بتلك الفرى. « فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ » أى فى الهداية بذاك الأسلوب الذى ملك ناصية الفصاحة والبلاغة، كقوله[1] (قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ) . « إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ » أى فى زعمهم ، فإنهم من أهل لسان الرسول صلوات الله عليه ، ولا يتعذر عليهم مضاهاة بعضهم لبعض ، فى ميدان التساجل والتراسل.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ)

[٣٦] (أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ، بَل لَّا يُوقِنُونَ)

[٣٧] (أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ)

[٣٨] (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ)

[٣٩] (أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ)

[٤٠] (أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ)

[٤١] (أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)

[٤٢] (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ، فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ)

[٤٣] (أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ، سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ » قال ابن جرير[2] : أى أخلق هؤلاء المشركون من غير

(١) [٢٨ / القصص / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٣٣ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

آباء ولا أمهات ، فهم كالجماد لا يعقلون ، ولا يفهمون لله حجة ، ولا يعتبرون له بعبرة، ولا يتعظون بموعظة . وقد قيل : إن معنى ذلك أم خلقوا لغير شيء ، كقول القائل : فعلت كذا وكذا من غير شيء ، بمعنى : لغير شيء « أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ » أى أنفسهم ، أو هذا الخلق، فهم لذلك لا يأتمرون لأمر الله ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه ، لأن للخالق الأمر والنهى « أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ » أى بوعيد الله ، وما أعدّ لأهل الكفر به من العذاب فى الآخرة ، فلذلك فعلوا ما فعلوا . « أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ » أى خزائن رزقه ، فهم لاستغنائهم معرضون « أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ » أى الجبابرة المتسلطون « أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ » أى مرتقى إلى السماء « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » أى الوحى ، فيدعون أنهم سمعوا هنا لك من الله أن الذى هم عليه حق . « فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى بحجة واضحة تصدق دعواه « أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ » أى حيث جعلوا ، لسفاهة رأيهم، الملائكة إناثا ، وأنها بناته تعالى ، مع أنه (١) (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) « أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا » أى أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله تعالى، « فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ » أى من التزام غرامة « مُّثْقَلُونَ » أى من أدائه، حتى زهّدهم ذلك فى اتباعك « أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » أى منه ما شاءوا ، وينبئون الناس عنه بما أرادوا « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا » أى بالرسول وما جاء به ، « فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ » أى المكور بهم دونك ، فثق بالله ، وامض لما أمرك به « أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ » أى له العبادة على جميع خلقه « سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى : تنزيها له عن شركهم ، وعبادتهم معه غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ)

« وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ » هذا جواب لمشركى

(١) [١٦ / النحل / ٥٨] .

قريش الذين كانوا يستعجلون العذاب ، ويقترحون الآيات ، كقولهم[1] (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا) إلى قوله (أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا).

قال الزمخشري: يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم، لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض ، يمطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ)

[٤٦] (يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

« فَذَرْهُمْ » أى يخوضوا ويلعبوا ، ويلههم الأمل ، « حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ » أى يموتون « يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا » أى لا يدفع عنهم مكرهم من عذاب الله ، شيئاً « وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ » أى دون يوم القيامة ، وهو إما عذاب القبر، أو القحط، أو النوازل التى تذهب بأموالهم وأنفسهم ـ أقوال للسلف ـ واللفظ صادق بالجميع « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنة الله فى أمثالهم من الفجرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

« وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » أى الذى حكم به عليك، وامض لأمره ونهيه، وبلغ رسالاته.

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٠ـ٩٢] .

« فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » قال ابن جرير (١) : أي بمرأى منا ، نراك ونرى عملك ، ونحن نحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين .

وقال الشهاب : يعني أن العين ، لما كان بها الحفظ والحراسة، استعيرت لذلك، وللحافظ نفسه ، كما تسمى (الربيئة) عيناً ، وهو استعمال فصيح مشهور . ونكتة جمع (العين) هنا وإفرادها في قصة الكليم ، عدا عن أنه جمع هنا لما أضيف لضمير الجمع ، ووحد ثمة لإضافته لضمير الواحد، هو المبالغة في الحفظ ، حتى كأن معه جماعة حفظة له بأعينهم، لأن المقصود تصبير حبيبه على المكايد ومشاقّ التكاليف والطاعة . فناسب الجمع ، لأنها أفعال كثيرة ، يحتاج كل منها إلى حارس بل حراس . بخلاف ما ذكر هناك من كلاءة موسى عليه السلام «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » أي من منامك .

روى الإمام أحمد (٢) عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ قال : من تعارّ من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ثم قال: رب اغفر لي (أو قال : ثم دعا) استجيب له . فإن عزم فتوضأ ثم صلى، قبلت صلاته . وأخرجه البخاريّ (٣) في صحيحه وأهل السنن .

وورد من أذكار الاستيقاظ من النوم قول : سبحان الله وبحمده ، سبحان القدوس . و : لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك . اللهم زدني علماً . ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

وقيل : حين تقوم إلى الصلاة ـ روى مسلم (٤) في صحيحه عن عمر ؛ أنه كان يقول في

---

(١) انظر الصفحة رقم ٣٧ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٣١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٣) أخرجه في : ١٩ ـ كتاب التهجد، ٢١ ـ باب حدثنا عليّ بن عبد الله، حديث رقم ٦٣٤

(٤) أخرجه في : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .

ابتداء الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك .
ورواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره ، عن النبيّ ﷺ ؛ أنه كان يقول ذلك . وعن مجاهد : حين تقوم من كل مجلس . وكذا قال عطاء وأبو الأحوص .

روى أبو هريرة (١) عن النبي ﷺ أنه قال : من جلس في مجلس، فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أستغفرك وأتوب إليك ـ إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك ـ رواه الترمذيّ وصححه، وكذا الحاكم.

وأخرج أبو داود (٢) والنسائيّ والحاكم عن أبي برزة الأسلميّ قال : كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة ، إذا أراد أن يقوم من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . فقال رجل : يارسول الله ! إنك لتقول قولًا ما كنت تقوله فيما مضى ؟ ! قال : كفارة لما يكون في المجلس !

وقد أفرد الحافظ ابن كثير لهـذا الحديث جزءاً على حدة ، ذكر فيه طرقه وألفاظه ، وعلّله ، فرحمه الله .

ولا يخفى أن لفظ الآية يصدق بالمواضع المذكورة كلها ، وتدل الأحاديث المذكورة على الأخذ بعمومها ، فإن السنة بيان للكتاب الكريم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾

« وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ » أي اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة بالليل ، كما قال تعالى (٣) ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٢٤ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ).

(٢) أخرجه في : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ٢٧ ـ باب في كفارة المجلس، حديث ٤٨٥٩

(٣) [١٧ / الإسراء / ٧٩] .

وقد روى فى أذكار الليل من التسابيح ما هو معروف فى كتب الحديث . وقد جمعت ذلك معرّى عن أسانيدها فى كتابى (الأوراد المأثورة) .

« وَإِدْبَارَ النُّجُومِ » أى : وسبحه وقت إدبارها ، وذلك بميلها إلى الغروب عن الأفق ، بانتشار ضوء الصبح . وقد عنى بذلك إما فريضة الفجر أو نافلته ، أو ما يشملهما . قال قتادة : كنا نحدّث أنهما الركعتان عند طلوع الفجر . وقد ثبت فى الصحيحين[1] عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لم يكن رسول الله ﷺ على شىء من النوافل ، أشدّ تعاهداً منه على ركعتى الفجر . وفى لفظ لمسلم[2] : ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها .

قال الزمخشرىّ : وقرئ (وَأَدْبَارَ) بالفتح ، بمعنى فى أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) عن الكرمانىّ : إن بعض الفقهاء استدل به على أن الإسفار بصلاة الصبح أفضل لأن النجوم لا إدبار لها ، وإنما ذلك بالاستتار عن العيون . انتهى . وهو استدلال متين .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٩ ـ كتاب التهجد ، ٢٧ ـ باب تعاهد ركعتى الفجر ، حديث ٦٣٨ .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٤ و٩٥ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٩٦ (طبعتنا) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

٥٣ — سورة النجم

مكية . وآيها ثنتان وستون آية .

روى البخاريّ(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (وَٱلنَّجْمِ) . قال : فسجد رسول الله ﷺ ، وسجد مَن خلفه ، إلا رجلًا رأيته أخذ كفًّا من تراب ، فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف . ووقع فى رواية غيره ، تسمية غير أمية ـ كما بسطه ابن حجر فى (الفتح) ـ .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة والنجم ، ٤ ـ باب فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ، حديث ٥٨٨ .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ)

[٢] (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ)

« وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ » أى إذا غرب وغاب عن الأبصار ، أو انتثر يوم القيامة . أو انقضّ . « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ » يعنى : محمداً ﷺ . والخطاب لقريش . أى ما حاد عن الحق ، ولا زال عنه . « وَمَا غَوَىٰ » أى ما صار غويًّا ، ولكنه على استقامة وسداد ورشد وهدى . وفيه تعريض بأنهم أهل الضلال والغىّ . وذكرُه ﷺ بعنوان (صاحبهم) للإعلام بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم بمحاسن شئونه المنيفة . فهو تبكيت لهم على وجه أبلغ من أن يصرح باسمه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ)

[٤] (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ)

« وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ » أى وما ينطق بهذا القرآن عن هواه ورأيه . وفيه تعريض بهم أيضاً « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ » أى ما هذا القرآن إلا وحى من الله يوحيه إليه . وجملة (يُوحَىٰ) صفة مؤكدة لـ (وَحْىٌ) رافعة لاحتمال المجاز، مفيدة للاستمرار التجددىّ . والضمير للقرآن ، لفهمه من السياق ، ولأن كلام المنكرين كان فى شأنه . وأرجعه بعضهم إلى ما ينطق به مطلقاً . واستدل على أن السنن القولية من الوحى ، وقوّاه بما فى (مراسيل أبى داود عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة ، كما ينزل عليه

بالقرآن ، ويعلمه إياها ، كما يعلمه القرآن. واستدل أيضاً على منع الاجتهاد له ﷺ . والصواب هو الأول . أعني: كون مرجع الضمير للقرآن، لما ذكرنا ، فإنه ردّ لقولهم (أَفْتَرَىٰهُ) والقرينة من أكبر المخصصات . وجلىّ أنه ﷺ كثيراً مايقول بالرأى فى أمور الحرب، وأمورأخرى. فلابد من التخصيص قطعاً ، وبأنه لاقوة فى المراسيل ، لما تقرر فى الأصول . وبأن الآية لاتدل على منع الاجتهاد المذكور، ولو أعيد الضمير لما ينطق مطلقاً. لأن الله تعالى إذا سوغ له الاجتهاد، كان الاجتهاد ومايستند إليه كله وحياً، لانطقاً عن الهوى. لأنه بمنزلة أن يقول الله لنبيه ﷺ (متى ماظننتَ كذا فهو حكمى) أى كل ماألقيته فى قلبك فهو مرادى، فيكون وحياً حقيقة ، لاندراجه تحت الإذن المذكور ، لأنه من أفراده . فما قيل عليه من أن الوحى الكلام الخفىّ المدركَ بسرعة ، فلا يندرج فيه الحكم الاجتهادىّ إلا بعموم المجاز. مع أنه يأباه قوله[1] (عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ) غير وارد عليه ، بعدماعرفت من تقريره ـ نقله فى (العناية) عن (الكشف) ـ وتفصيل المسألة فى مطولات الأصول .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ)

«عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ» أى علم محمداً ﷺ ملكٌ شديد قواه، يعنى جبريل عليه السلام. كما قال[2] (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ) و (ٱلْقُوَىٰ) جمع قوة ، بضم القاف . ومن العرب من يكسرها كالرِّشا بكسر الراء فى جمع رشوة بضمها ، والحِبا فى جمع حُبوة ـ نقله ابن[3] جرير .

---

(١) [٥٣ / النجم / ٥] .   (٢) (٨١ / التكوير / ١٩و٢٠) .

(٣) انظر الصفحة رقم ٤٢ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾

[٧] ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾

« ذُو مِرَّةٍ » بكسر الميم . أى متانة وإحكام فى علمه ، لا يمكن تغيّره ونسيانه. والعرب تقول لكل قوىّ العقل والرأى (ذُو مِرَّةٍ) من (أمررت الحبل) إذا أحكمت فتله « فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ » قال الزمخشرىّ : فاستقام على صورة نفسه الحقيقية ، دون الصورة التى كان يتمثل بها ، كلما هبط بالوحى . وكان ينزل فى صورة دحية .

فالفاء ـ كما قال شراحه ـ سببية ، لأن تشكله يتسبب عن قوته وقدرته على الخوارق . أو عاطفة على (عَلَّمَهُو) أى علمه على غير صورته الأصية ، ثم استوى على صورته الأصلية .

وقيل : (استوى) بمعنى (استولى) بقوته على ما أمر بمباشرته من الأمور ـ حكاه القاضي ـ .

قال الشهاب : الأفق الناحية ، وجمعه آفاق . والمراد الجهة العليا من السماء المقابلة للناظر، لا مصطلح أهل الهيأة . انتهى .

وقال ابن كثير : وقوله تعالى (فَاسْتَوَىٰ) يعنى جبريل عليه السلام ـ قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس (وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ) يعنى جبريل استوى فى الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد .

ثم قال ابن كثير : وقد قال ابن جرير(٤) ههنا قولًا لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد. وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى ، أى هذا الشديد القوى وصاحبكم محمد ﷺ ، بالأفق الأعلى ، أى استويا جميعاً بالأفق الأعلى ، وذلك ليلة الإسراء ـ كذا قال ـ ولم يوافقه أحد على ذلك . ثم شرع يوجه ما قاله من حيث العربية فقال : وهو كقوله(٢) (أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا

(١) انظر الصفحة رقم ٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [٢٧ / النمل / ٦٧] .

وَءَابَآؤُنَا) فعطف بالآباء على المكنىّ فى (كُنَّا) من غير إظهار (نحن) فكذلك قوله (فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ) . قال : وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَصْلُبُ عُودُهُ ولا يستوى والْخِرْوَعُ الْمُتَقَصِّفُ

وهذا الذى قاله من جهة العربية متجه ، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك ، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء ، بل قبلها ، ورسول الله ﷺ فى الأرض ، فهبط عليه جبريل عليه السلام ، وتدلى إليه ، فاقترب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح . ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعنى ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى فى أوائل البعثة ، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى الله إليه صدر سورة (اقْرَأْ) ثم فترة الوحى فترة ذهب النبىّ صلى الله عليه وسلم فيها مراراً ليتردى من رؤوس الجبال ، فكلما همّ بذلك ناداه جبريل من الهواء : يا محمد ! أنت رسول الله حقًّا، وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر عينه . وكلما طال عليه الأمر ، عاد لمثلها حتى تبدى له جبريل ، ورسول الله ﷺ بالأبطح فى صورته التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، قد سدّ عظم خلقه الأفق ، فاقترب منه ، وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذى جاءه بالرسالة ، وجلالة قدره، وعلو مكانته عند خالقه الذى بعثه اليه . انتهى.

أقول : قد وافق القاشانىّ ابن جرير فى تأويل الآية ، وعبارته :

(فَٱسْتَوَىٰ) فاستقام على صورته الذاتية ، والنبىّ بالأفق الأعلى، لأنه حين كَوْن النبىّ بالأفق المبين لا ينزل على صورته ، لاستحالة تشكل الروح المجرد فى مقام القلب ، إلا بصورة تناسب الصور المتمثلة فى مقامه ، ولهذا كان يتمثل بصورة دحية الكلبىّ ، وكان من أحسن الناس صورة ، وأحبهم إلى رسول الله ﷺ . إذ لو لم يتمثل بصورة يمكن انطباعها فى الصدر، لم يفهم القلب كلامه، ولم ير صورته . وأما صورته الحقيقية التى جبل عليها فلم تظهر للنبىّ ﷺ إلا مرتين : عند عروجه إلى الحضرة الأحدية ووصوله بمقام الروح فى الترقى ، وعند نزوله عنها ورجوعه إلى المقام الأول عند سدرة المنتهى فى التدلى . انتهى .

وكذا المهايمىّ وافقهما وعبارته :

(فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ) أى صاحبكم عنـــد استواء نفسه ، صار (بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ) الروحانىّ . انتهى .

وكذا الفخر الرازىّ وعبارته :

المشهور أن (هو) ضمير جبريل ، وتقديره : استوى كما خلقـــه الله بالأفق الشرقىّ ، فسدّ المشرق لعظمته . والظاهر أن المراد محمد ﷺ . معناه : استوى بمكان ، وهو بالمــكان العالى رتبة ومنزلة فى رفعة القدر ، لا حقيقة فى الحصول فى المــكان .

(فإن قيل : كيف يجوز هذا والله تعالى يقول[1] (وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ) إشارة إلى أنه رأى جبريل بالأفق المبين ؟ نقول : وفى ذلك الموضع أيضاً نقول كما قلنا ههنا ؛ أنه ﷺ رأى جبريل وهو بالأفق المبين . يقول القائل : رأيت الهلال ، فيقال له : أين رأيته ؟ فيقول : فوق السطح . أى : إن الرأى فوق السطح ، لا المرئىّ . و (المبين) هو الفارق ، من (أبان) أى فرق . أى هو بالأفق الفارق بين درجة الإنسان ، ومنزلة الملك ، فإنه ﷺ انتهى ، وبلغ الغاية ، وصار نبيّاً ، كما صار بعض الأنبياء نبيّاً يأتيه الوحى فى نومه ، وعلى هيأته ، وهو واصل إلى الأفق الأعلى ، والأفق الفارق بين المنزلتين .

فإن قيل : ما بعده يدل على خلاف ما تذهب إليه ، فإن قوله (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ) إلى غير ذلك ، وقوله تعـــالى (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ) كل ذلك يدل على خلاف ما ذكرته ؟ نقول : سنبيّن موافقته لما ذكرنا إن شاء الله تعالى فى مواضعه ، عند ذكر تفسيره .

فإن قيل : الأحاديث تدل على خلاف ما ذكرته ، حيث ورد فى الأخبار أن جبريل عليه السلام أرى النبىّ ﷺ نفسه على صورته ، فسدّ المشرق. فنقول : نحن ما قلنا إنه لم يكن

(١) [٨١ / التكوير / ٢٣] .

وليس فى الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية ، حتى يلزم مخالفة الحديث ، وإنما نقول إن جبريل أرى النبىّ ﷺ نفسه مرتين ، وبسط جناحيه ، وقد ستر الجانب الشرقى وسدّه ، ولكن الآية لم ترد لبيان ذلك . انتهى كلام الرازىّ .

وفى القرطبىّ حكاية أقوال أخر ، وعبارته :

(فَٱسْتَوَىٰ) أى ارتفع جبريل ، وعلا إلى مكانه فى السماء ، بعد أن علّم محمدًا ﷺ ـ قاله سعيد بن المسيّب وابن جبير ـ .

وقيل : (فَٱسْتَوَىٰ) أى قام وظهر فى صورته التى خُلِق عليها .

وقول ثالث : أن معنى (فَٱسْتَوَىٰ) أى استوى القرآن فى صدره . وفيه على هذا وجهان:

أحدهما ـ فى صدر جبريل حين نزل به عليه السلام .

الثانى ـ فى صدر محمد ﷺ حين نزل عليه .

وقول رابع : أن معنى (فَٱسْتَوَىٰ) فاعتدل . يعنى محمدًا فى قوّته ، والثانى فى رسالته ـ ذكره الماوردىّ ـ .

وعلى الأول يكون تمام الكلام (ذُو مِرَّةٍ) ، وعلى الثانى (شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ) .

وقول خامس : أن معناه فارتفع ، وفيه على هذا وجهان :

أحدهما ـ أنه جبريل ارتفع إلى مكانه ، على ما ذكرناه آنفاً .

الثانى ـ أنه النبىّ ﷺ ارتفع بالمعراج .

وقول سادس : (فَٱسْتَوَىٰ) يعنى الله عز وجل . أى استوى على العرش ـ على قول الحسين ـ انتهى .

هذا ما وقفنا عليه الآن من الأقوال فى الآية ، وسيأتى فى أول التنبيهات إيضاح ما اخترناه منها ، وإنما أخرنا ذكره لارتباطه بالآيات الآتية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ)

[٩] (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ)

« ثُمَّ دَنَا » أى ثم بعد استوائه ، اقترب جبريل من محمد ﷺ « فَتَدَلَّىٰ » أى إليه .

قال ابن جرير[1] : هذا من المؤخر الذى معناه التقديم ، وإنما هو ثم تدلى فدنا ، ولكنه حسن تقديم قوله (دَنَا) إذ كان الدنو يدل على التدلى ، والتدلى على الدنو . كما يقال : زارنى فلان فأحسن ، وأحسن إلىّ فزارنى .

وقال الشهاب : التدلى مجاز عن التعلق بالنبيّ بعد الدنو منه ، لا بمعنى التنزل من علوّ ، كما هو المشهور . أو هو دنوّ خاص بحالة التعلق ، فلا قلب ولا تأويل بـ (أراد الدنو) ـ كما فى الإيضاح ـ .

« فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ » أى كأن مسافة مابينهما مقدار قوسين . أى بقدرها إذا مُدَّا أو أقرب . أو الضمير لجبريل . أى كأن قربه قدر ذلك .

قال الشهاب : وقاب القوس وقيبه : مابين الوتر ومقبضه . والمراد به المقدار ، فإنه يقدّر بالقوس ، كالذراع .

وقد قيل : إنه مقلوب ، أى قابىْ قوس ، ولا حاجة إليه . فإن هذا إشارة إلى ما كانت العرب فى الجاهلية تفعله . إذا تحالفوا أخرجوا قوسين . ويلصقون إحداهما بالأخرى ، فيكون القاب ملاصقاً للآخر، حتى كأنهما ذوا قاب واحد ، ثم ينزعانهما معاً ويرميان بهما سهماً واحداً ، فيكون ذلك إشارة إلى أن رضا أحدهما رضا الآخر ، وسخطه سخطه ، لا يمكن خلافه ـ كذا قال مجاهد ، وارتضاه عامة المفسرين ـ انتهى .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

قال السمين : وقوله تعالى (أَوْ أَدْنَىٰ) كقوله(١) : (أَوْ يَزِيدُونَ) لأن المعنى : فكان بأحد هذين المقدارين فى رأى الرائى . أى لتقارب مابينهما ، يشك الرائى فى ذلك . فهو تمثيل لشدة القرب ، وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بأنه فى رأى العين ، ورأى الواقف عليه ، كما مر فى (أَوْ يَزِيدُونَ) فإن المعنى : إذا رآهم الرائى يقول هم مائة ألف أو يزيدون .

وقيل : (أَوْ) بمعنى (بَلْ) أى بل أدنى .

و (أَدْنَىٰ) أفعل تفضيل ، والمفضل عليه محذوف . أى : أو أدنى من قاب قوسين .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ)

« فَأَوْحَىٰٓ » أى جبريل « إِلَىٰ عَبْدِهِۦ » أى عبد الله تعالى ، وهو النبىّ ﷺ . وإنما أضمر اسمه تعالى لعدم اللبس ، وغاية ظهوره . أو : فأوحى الله عز وجل بواسطة جبريل الذى تدلى إليه « مَآ أَوْحَىٰ » أى مما أمره به . وفيه تفخيم للموحى به ، إذ الإبهام يفيد التعظيم ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ)

« مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ » أى ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه من الملك الذى جاءه بالوحى من ربه . يعنى : أنه رآه بعينه ، وتيقنه بقلبه ، ولم يشك فى أن ما رآه حق وصدق. وقرئ (ما كذّب) بالتشديد . أى صدقه ولم يشك أنه ملَك ربانىّ ، لا خيال شيطانىّ ، كما قال(٢) (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ) . وقد ذكر ابن كثير أن هذه الرؤية فى أوائل البعثة ، كما تقدم النقل عنه .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٤٧] . (٢) [٨١ / التكوير / ٢٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ)

« أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ » أى أفتجادلونه وتلاحونه على ما يراه معاينة من رؤية الملك المنزل عليه .

قال القاشانىّ : أى أفتخاصمونه على شىء لا تفهمونه ولا يمكنكم معرفته وتصوره ، فكيف يمكنكم إقامة الحجة عليه ؟ وإنما المخاصمة حيث يمكن تصور الأمر المختلف فيه ، ثم الاحتجاج عليه بالنفى والإثبات ، فحيث لا تصور ، فلا مخاصمة حقيقة . انتهى . وذلك لأن رؤية الملك وتنزله حالة خاصة بالنبىّ ﷺ وإخوانه الأنبياء عليهم السلام ، لا يمكن لغيرهم اكتناهها ، وإنما عليهم الإيمان بها ، والإذعان لها ، لقيام الدليل عليها . وبالجملة ، فالمراد أنه لا يصحّ المجادلة فى المرئىّ ، لأنه لا يجوز الجدال فى المحسوسات ، لاسيما إذا تعددت المشاهدة لها كما قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ)

[١٤] (عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ)

[١٥] (عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ)

[١٦] (إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ)

[١٧] (مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ)

[١٨] (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ)

« وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ » أى مرّة أخرى من النزول ، وتأكيد الخبر عن الرؤية

الثانية هـذه ، لنفى الريبة والشك عنها أيضاً ، وأنه لم يكن فيها التباس واشتباه .

«عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ» أى موضع الانتهاء ، أو الانتهاء . فـ(المنتهى) : اسم مكان ، أو مصدر ميمىّ . وقد جاء فى الصحيح[1] أنها شجرة نبق فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يعرج به من أمر الله من الأرض ، فيقبض منها . وما يهبط به من فوقها ، فيقبض منها .

قال القاضى : ولعلها شبهت بالسدرة ، وهى شجرة النبق ، لأنهم يجتمعون فى ظلها . يعنى أن شجر النبق يجتمع الناس فى ظله ، وهذه يجتمع عندها الملائكة ، فشبهت بها ، وسميت (سدرة) لذلك . فإطلاقها عليها بطريق الاستعارة . لكن ورد فى الحديث[2] أن كل نبقة فيها كقلة من قلال هجر ، فهى على هذا حقيقة ، وهو الأظهر ـ قاله الشهاب ـ .

« عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ » أى التى يأوى إليها أرواح المقرّبين . « إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ » قال القاشانىّ : أى من جلال الله وعظمته . معناه أنه رأى جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى حينما كانت الأرواح والملائكة تغشاها ، وتهبط عليها ، وتحف من حولها .

« مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ » أى ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه . « وَمَا طَغَىٰ » أى ما تجاوز مرئيّه المقصود له ، بل أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً لا شبهة فيه . وفيه وصف لأدبه ﷺ وتمكّنه ، إذ لم يتجاوز ما أمر برؤيته . « لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ » يعنى الملك الذى عاينه وأخبره برسالته . وفيه غاية التفخيم لمقامه ، وأنه من الآيات الكبر .

قال الناصر : ويحتمل أن تكون (ٱلْكُبْرَىٰٓ) صفة لآيات ، ويكون المرئىّ محذوفاً لتفخيم الأمر وتعظيمه ، كأنه قال : لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ أموراً عظاماً لا يحيط بها الوصف . والحذف فى مثل هذا أبلغ وأهول .

---

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٧٩ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ، ٤٢ ـ باب المعراج ، حديث ١٥١٣ ، عن مالك بن صعصعة .

تنبيهات :

الأول ـ قدمنا فى تفسير قوله تعالى (فَٱسْتَوَىٰ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ) ماقاله المفسرون من الأقوال العديدة . ولا يخفى مافى بعضها من التكلف والتعسف ، كتوجيه ابن جرير والرازىّ ومن وافقهما ، وبعض أقوال حكاها القرطبىّ . والأقرب فى معنى الآية ماذكره الإمام ابن كثير ، كما نقلناه عنه ، لكثرة الأحاديث الواردة فيما يفسرها بذلك . ونحن نقول فى تأييده إن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، لتشابه آياته الكريمة وتماثلها . والآية هذه مشابهة لما فى سورة التكوير تمام المشابهة ، فقد قال تعالى[1] ثمة : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ) فترى هذه الآيات مشابهة للآيات هنا ، وإن كان فيما هنا زيادة رؤية ، وبيان دنوّ واقتراب لم يذكر فى (التكوير) . وسر الزيادة هو ارتقاء النبىّ ﷺ فى معارج الكمالات وقتاً فوقتاً . وسورة النجم مما نزل بعد التكوير ، كما حكاه فى (الإتقان) عن ابن عباس وغير واحد من السلف ، فلذلك كان فى (النجم) زيادة هذا التكريم والتفضيل . وحاصل المعنى : أن ماينطق به من هذا القرآن ليس عن هواه ، وإنما هو وحى علمه إياه ملك كريم ، جمّ المناقب ، لأنه شديد القوى ، ذو مرة ، رفيع المكانة بالأفق الأعلى . ثم لما شاء تعالى إنزال وحيه على نبيّه تنزل من الأفق ، ودنا إليه ، وكان فى غاية القرب منه ، والتمكن من رؤيته ، وتلقى الوحى عنه . وذلك كله حق وصدق لامرية فيه . وكيف يمارى من يرى ببصره مايصدقه فؤاده فيه ولا يكذبه ، لاسيما ولم تكن رؤياه له مرة واحدة ، بل رآه نزلة ثانية ، نزل إليه بالوحى فى مكان معين لايشتبه على رائيه ، وهو سدرة المنتهى . وبالجملة ، فتوافق هذه الآيات لآيات (التكوير) وتفسير بعضها بعضاً ، أمر لاخفاء به عند المتدبر ، وكله رد على المشركين المفترين ، وإقسام على حقيقة الوحى والتنزيل ، وصدق مايخبر به ، لاسيما وهو صادق عندهم لا يكذبونه . فما بقى بعد التعنت

(١) [٨١ / التكوير / ١٩ـ٢٣] .

والجحد إلا انتظار سنة الله فى أمثالهم من الأمم الكافرة الجاحدة ، كما أشار له فى آخر السورة.

هذا ملخص معنى الآيات ، وما عداه فتوسع وحمل اللفظ على ما تجوّزه مادته . وكل ما يتسع له اللفظ هو المراد ـ والله الموفق ـ .

الثانى ـ ما قدمناه من رجوع الضمائر فى قوله تعالى (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ... » الخ إلى جبريل عليه السلام ، هو الذى عوّل عليه عامة المفسرين ، وقد أيدناه بما رأيت .

قال الإمام ابن تيمية : الدنوّ والتدلّى فى سورة النجم هو دنوّ جبريل وتدلّيه ـ كما قالت عائشة وابن مسعود ـ والسياق يدل عليه ، فإنه قال (عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ) وهو جبريل ، (ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ) فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوَى ، وهو ذو المرة أى القوة ، وهو الذى استوى بالأفق الأعلى ، وهو الذى دنا فتدلّى ، فكان من محمد ﷺ قدر قوسين أو أدنى ، وهو الذى رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، رآه على صورته مرتين ، مرة فى الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى . انتهى .

وروى البخارىّ (١) فى هذه الآيات عن ابن مسعود قال : رأى جبريل له ستمائة جناح.

وروى الترمذىّ (٢) عن عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ رأى جبريل ، ولم يره فى صورته إلا مرتين ، مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة فى جياد ـ مكان بمكة ـ له ستمائة جناح ، قد سدّ الأفق .

وأما ما وقع فى حديث شريك فى البخارىّ (٣) من قوله (ودنا الجبّار رب العزة فتدلّى ،

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ١ ـ حدثنا يحيي بن وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ٣ ـ حدثنا ابن أبى عمر .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٣٧ ـ باب قوله وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ، حديث رقم ١٦٨٤ ، عن أنس بن مالك .

حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى) ، فإن لم يكن ذلك من زيادة شريك ، على ما ذهب إليه الإمام مسلم وغيره ، فهو دنوّ وتدلّ غير ما فى سورة النجم ، نؤمن به . ونفوّض كيفيته إليه تعالى ، كسائر أخبار الصفات .

قال ابن كثير : قد تكلّم كثير من الناس فى رواية شريك ، فإن صح فهو محمول على وقت آخر ، وقصة أخرى ، لا أنها تفسير لهذه الآية ، فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ فى الأرض ، لا ليلة الإسراء . ولهذا قال بعده (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَىٰ) ، فهذه هى ليلة الإسراء ، والأولى كانت فى الأرض . انتهى .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقىّ : وقع فى حديث شريك فى الإسراء زيادة على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل . وقول عائشة وابن مسعود وأبى هريرة فى حملهم هذه الآيات على رؤية جبريل ، أصح .

قال العماد بن كثير : وهذا الذى قاله البيهقىّ رحمه الله فى هذه المسألة ، هو الحق ، فإن أبا ذرّ قال : يارسول الله ! رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أنّى أراه . وفى رواية : رأيت نورًا ـ أخرجه مسلم (١) ـ .

وقوله (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ) إنما هو جبريل عليه السلام ، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن عائشة (٢) وعن ابن مسعود (٣) . وكذلك هو فى صحيح مسلم (٤) عن أبى هريرة ، ولا يعرف لهم

(١) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٩١ و ٢٩٢ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ١ ـ حدثنا يحيي حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٧ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ١ ـ حدثنا يحيي حدثنا وكيع ، حديث رقم ١٥٢٦ .

وأخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث ٢٨٠ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٨٣ (طبعتنا) .

مخالف من الصحابة فى تفسير هذه بهذا . انتهى .

وقال شمس الدين بن القيّم فى (زاد المعاد) : اختلف الصحابة أن رسول الله ﷺ : هل رأى ربه تلك الليلة أم لا ؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه ، وصحَّ عنه أنه قال : رآه بفؤاده ، وصحَّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك ، وقال : إن قوله تعالى (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ) إنما هو جبريل . وصحَّ عن أبى ذرّ أنه سأله : هل رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أنّى أراه . أى حال بينى وبين رؤيته النور ، كما فى لفظ آخر : رأيت نورًا .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمىّ اتفاق الصحابة على أنه لم يره .

قال الإمام ابن تيمية: وليس قول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا، ولا قوله رآه بفؤاده. وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربى تبارك وتعالى ، لكن لم يكن هذا فى الإسراء ، ولكن كان فى المدينة لما احتبس عنهم فى صلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة فى منامه . وعلى هذا بنى الإمام أحمد وقال: نعم رآه حقاً ، فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد. وأما قول ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين. فإن كان استناده إلى قوله تعالى (مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ) ثم قال: (وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ) والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئىّ جبريل ، رآه مرتين فى صورته التى خلق عليها . انتهى .

وقال ابن كثير : أما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : رأيت ربى عز وجل، فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام ، كما رواه الإمام أحمد[1] أيضاً عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: أتانى ربى الليلة فى أحسن صورة (أحسبه ، يعنى فى النوم) فقال : يا محمد ! أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٦٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٤٨٤ (طبعة المعارف) .

قال قلت : لا . فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها بين ثدييّ (أو قال نحرى) فعلمت ما فى السموات ومافى الأرض . ثم قال: يامحمد! هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال قلت: نعم ! يختصمون فى الكفارات والدرجات . قال : وما الكفارات ؟ قال قلت : المكث فى المساجد بعد الصلوات ، والمشى على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء فى المكاره ! من فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير . وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقال : قل يامحمد إذا صليت : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة ، أن تقبضنى إليك غير مفتون .

قال : والدرجات بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام .

ثم قال ابن كثير: وقوله تعالى[1] (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ) كقوله[2] (لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى) أى الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة، أن الرؤية تلك الليلة لم تقع. لأنه قال (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ) ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس . انتهى .

الثالث ـ ذهب بعضهم إلى أن هـذه السورة أنزلت لإثبات المعراج النبوىّ ، أعنى : عروجه ﷺ ، وصعوده وارتقاءه إلى مافوق السموات السبع ، كما ذكر فى أحاديث المعراج من سدرة المنتهى فوق السموات ، ومشاهدة جبريل على صورته .

قال القليوبىّ : لما كان الإسراء مقدماً فى الوجود على المعراج، لأنه كالوسيلة والبرهان ، إذ يلزم من التصديق بخوارق العادة فيه ، التصديق بالمعراج ومافيه . وكان مافى المعراج من الخوارق أعظم وأكثر ، صدره تعالى بالقسم الدال على تأكيد ثبوته ، والرد على منكريه والطاعنين فيه ، واستطرد مع ذلك الرد على من نسب إليه ﷺ مالا يجوز عليـه ، فقال « وَٱلنَّجْمِ ... » الخ انتهى .

---

(١) [٥٣ / النجم / ١٨] . (٢) [٢٠ / طه / ٢٣] .

ومماقدمنا يظهر أن نزول السورة لتأييد الرسالة النبوية، وتحقيق الوحى، بأنه تعليم ملك كريم ، مرئىّ للحضرة النبوية رؤية تدفع كل لبس ، لا لإثبات المعراج .

ثم من الغرائب أيضاً هنا ، قول بعضهم محاولًا سرّ إفراد الإسراء عن المعراج ، وذكر كلٍّ فى سورةٍ ، ما مثاله : إن الإسراء أنزل أولًا وحده ، حملًا للمشركين على تسليم ما وضح صدقه ﷺ فيه، توصلًا للتصديق بماوراءه فإنه ﷺ أرشدأن يخبر المشركين أولًا بالإسراءإلى المسجد الأقصى ، لأن قريشاً تعرفه، فيسألونه عنه ، فيخبرهم بما يعرفون، مع علمهم بأنه ﷺ لم يدخل بيت المقدس قط ، فتقوم الحجة عليهم . وكذلك وقع ، كما ذكر فى الروايات . وعلى أثر هذا الإخبار أنزل بيان الإسراء، ثم أُلهم ﷺأن يخبرهم بالمعراج إلى ملكوت السموات، ورؤية جبريل عليه السلام ، وأنزل الله تصديقه فى سورة النجم . انتهى . فكل هذا مما لا سند له ، نعم ! روى البيهقىّ وابن أبى حاتم وابن جرير فى حديث مطول ؛ أنه ﷺ أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب . إنى أتيت البارحة بيت المقدس ، وعرج بى إلى السماء ورأيت كذا وكذا . إلا أن يقال ليس هذا من مرويات الصحيحين ، ولا حجة فى الأخبار إلا مرويّهما . وبالجملة ، فالمعوّل عليه هو أن المعراج لم يرد له ذكر فى القرآن مطلقاً ، وما ورد فى هذه السورة وسورة التكوير ، فلا علاقة له بالمعراج ، وإنما هى رؤية النبىّ صلوات الله عليه لجبريل من الأرض على صورته الحقيقية كما تقدم . وأما المعراج فإنما كان رؤيا منامية روحانية. لصريح حديث البخارىّ فى ذلك من طرقه التى عن أنس ومالك بن أبى صعصعة. قال بعضهم ولذلك لم يذكر فى حديث المعراج، بحسب رواية البخارىّ التى هى أصح الروايات بالإجماع ، أن النبىّ ﷺسار أولا إلى بيت المقدس ، بل المذكور فيه أنه سار مباشرة من مكة إلى السماء الأولى، وكذلك لم يذكر فيهأن جبريل فارقه، ثم ظهر لهعند سدرة المنتهى بصورته الحقيقية، بل المذكورأنه كان مصاحباً له من أول المعراج إلى آخره على صورة واحدة ، وذلك يدل على أن ما ذكر فى القرآن مماوقع يقظة، هو غير ماذكر فى الحديث، مما وقع مناماً فى وقت آخر،

وإلا لذكرا معا فى سياق واحد ، إما فى القرآن ، وإما فى أصح الأحاديث ، وهو الأمر الذى لم يحصل إلا فى بعض روايات لا يعوَّل عليها ، وهى من خلط بعض الرواة الحوادثَ بعضها ببعض . انتهى ـ والله أعلم ـ .

ثم قال تعالى منكراً على المشركين عبادتهم الأوثان ، واتخاذهم لهـا البيوت ، مضاهاة للكعبة التى بناها خليل الرحمن لعبادتة تعالى وحده ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٩] ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾

[٢٠] ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾

« أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ » قال ابن كثير : هى صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فِناء معظَّم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش .

قال ابن جرير[1] : وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا (ٱللَّٰتَ) يعنون مؤنثة من لفظه تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرا ، كما قالوا : عمرو وعمرة .

وقال الزمخشرىّ : هى فعلة من (لوى) لأنهم كانوا يلوون عليها ، ويعكفون للعبادة، أو يلتوون عليها ، أى يطوفون .

وحكى عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرأوا (اللاتّ) بتشديد التـاء ، وفسروه بأنه كان رجلا يلتّ للحجيج فى الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره وعبدوه.

« وَٱلْعُزَّىٰ » وهى شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهى بين مكة والطائف .

قال ابن جرير : اشتقوا اسمها من اسمه تعالى (العزيز) وقال الزمخشرىّ : أصلها تأنيث الأعز .

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ » وهى صخرة كانت بالمشلل عند قديد ، بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظّمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة . روى البخاريّ عن عائشة نحوه .

قال ابن جرير[1]: وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول : اللّات والعُزّى ومناة الثالثة ، أصنام من حجارة كانت فى جوف الكعبة يعبدونها . انتهى .

تنبيهات :

الأول ــ قال القاضي : (مناة) فعلة ، من مناه إذا قطعه . فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين . ومنه سميت (منى) لأنه يمنى فيها القرابين ، أى ينحر .

وقال الزمخشريّ : وكأنها سميت (مناة) لأن دماء المناسك كانت تمنى عندها ، أى تراق . وقرئ (مناءة) مفعلة من (النوء) ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها .

فإن قيل : كونها ثالثة وأخرى مغايرة لما تقدمها ، معلوم غير محتاج للبيان .

وأجيب : بأنهما صفتان للتأكيد ، أو (ٱلثَّالِثَةَ) للتأكيد ، و (ٱلْأُخْرَىٰٓ) بيان لها، لأنها مؤخرة رتبة عندهم ، عن اللات والعزى .

قال الناصر : (ٱلْأُخْرَىٰٓ) مايثبت آخراً ، ولا شك أنه فى الأصل مشتق من التأخير الوجوديّ ، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال فى التأخير الوجوديّ ، إلى الاستعمال ، حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير حتى سلبته دلالته على المعنى الأصليّ ، بخلاف (آخر) و (آخرة) ، على وزن فاعل وفاعلة، فإن إشعارها بالتأخير الوجوديّ ، ثابت لم يغير، ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا ربيع الآخر ، على وزن الأفعل ، وجمادى الأخرى ، إلى ربيع الآخر على وزن فاعل ، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة، لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجوديّ ، لأن (الأفعل) و(الفعلى) من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم، فعدلوا عنها إلى الآخر

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

والآخرة والتزموا ذلك فيهما. وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله تعالى قد حرره آخر مدته ، وهو الحق إن شاء الله تعالى ، وحينئذ يكون المراد الإشعار بتقدم مغاير فى الذكر مع ما نعتقده فى الوفاء بفاصلة رأس الآية . انتهى .

الثانى ـ قال ابن كثير : كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التى نص عليها فى كتابه العزيز . وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

قال ابن إسحاق فى السيرة : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ، ويهدى لها كما يهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها ، وتنحر عندها ، وهى تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده . فكانت لقريش ولبنى كنانة (الْعُزَّىٰ) بنخلة ، وكانت سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم . وبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول :

يا عُزَّ كفرانَكِ لا سُبْحانَكِ   إنى رأيتُ اللهَ قد أهَانَكِ

روى النسائىّ عن أبى الطفيل قال : لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العزى ، فأتاها خالد ، وكانت على ثلاث سمرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذى كان عليها ، ثم أتى النبىّ ﷺ فأخبره فقال : ارجع ، فإنك لم تصنع شيئاً . فرجع خالد ، فلما أبصر السدنة وهم حجبتها ، أمعنوا فى الحيل وهم يقولون : ياعزى ! ياعزى ! فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها . تحفن التراب على رأسها ، فغمسها بالسيف حتى قتلها . ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : تلك العزى !

قال ابن إسحاق: وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بنى معتب . وقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها ، وجعلا مكانها مسجداً بالطائف .

قال ابن إسحاق : وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على صاحل البحر ، من ناحية المشلّل بقديد ، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان ، صخر ابن حرب فهدمها . ويقال : عليّ بن أبي طالب . انتهى .

الثالث ـ قال ابن جرير(١) : اختلف أهل العربية في وجه الوقف على (اللات) و(منات) فكان بعض نحويّي البصرة يقول : إذا سكتَ قلت اللات ، وكذلك مناة ، تقول منات . وقال : قال بعضهم : اللاتّ ، فجعله من اللتّ الذى يلت. ولغة العرب يسكتون على مافيه الهاء بالتاء ، يقولون : رأيت طلحت . وكل شيء مكتوب بالهاء فإنها تقف عليه بالتاء ، نحو نعمة ربك ، وشجرة . وكان بعض نحويّي الكوفة يقف على (اللات) بالهاء . وكان غيره منهم يقول : الاختيار في كل مالم يضف ، أن يكون بالهاء(٢) (رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى)(٣) (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ) . وما كان مضافاً فجائز بالهاء والتاء، فالتاء للإضافة، والهاء لأنه يفرد ويوقف عليه دون الثانى، وهذا القول الثالث أفشى اللغات وأكثرها فى العرب، وإن كان للأخرى وجه معروف . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ)

[٢٢] (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ)

« أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ » قال الزمخشريّ : كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى، مع وأدهم البنات، فقيل لهم: (أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ) ؟ ويجوز أن يراد أن اللات والعزى ومنات إناث،

---

(١) انظر الصفحة رقم ٥٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [١٨ / الكهف / ٩٨] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ٢٠] .

وقد جعلتموهن لله شركاء ، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث ، وتستنكفوا من أن يولدن لكم ، وينسبن إليكم ، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله ، وتسمونهنّ آلهة ؟ انتهى.

لطيفة :

قال الشهاب : قد مرّ مراراً الكلام فى (أَرَأَيْتَ) وأنها بمعنى (أخبرنى) وفى كيفية دلالتها على ذلك، واختلاف النحاة فى فعل الرؤية فيه ، هل هو بصرىّ ؟ فتكون الجملة الاستفهامية بعدها مستأنفة لبيان المستخبر عنه . وهو الذى اختاره الرضىّ . أو علمية ، فتكون فى محل المفعول الثانى ، فالرابط حينئذ أنها فى تأويل : أهى بنات الله ؟

قال السمين : وكأنّ أصل التركيب: ألكم الذكر ، وله هن ، أى : تلك الأصنام. وإنما أوثر هذا الاسم الظاهر لوقوعه رأس فاصلة .

وقوله تعالى « تِلْكَ » إشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية « إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ » أى جائرة ، غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم من الولد والندّ ماتكرهون لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضونه .

قال ابن جرير[1] : والعرب تقول (ضِزْتُهُ حقَّه) بكسر الضاد ، و (ضُزته) بضمها، فأنا أضيزه وأضوزه ، وذلك إذا نقصته حقه ومنعته .

تنبيه :

قال السمين : قرأ ابن كثير (ضئْزى) بهمزة ساكنة ، والباقون بياء مكانها . وقرأ زيد بن على (ضَيْزَىٰ) بفتح الضاد والياء الساكنة . فأما قراءة العامة فتحتمل أن تكون من (ضازه يضيزه) إذا ضامه وجار عليه ، فمعنى (ضيزى) جائرة. وعلى هذا فتحتمل وجهين: أحدهما ـ أن تكون صفة على (فُعلى) بضم الفاء ، وإنما كسرت الفاء لتصح الياء، كبيض .

(١) انظر الصفحة رقم ٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

فإن قيل : وأى ضرورة إلى أن يقدر أصلها ضم الفاء، ولم لا قيل (فِعلى) بالكسر؟ .

فالجواب : أن سيبويه حكى أنه لم يرد فى الصفات (فِعلى) بكسر الفاء ، وإنما ورد بضمها ، نحو حبلى وأنثى ورُبَّى وما أشبهه، إلاأن غيره حكى فى الصفات ذلك . حكى ثعلب: مشية حيكى ، ورجل كيسى ، وحكى غيره : امرأة عزهى وامرأة سعلى ، وهذا لاينقض على سيبويه لأنه يقول فى (حيكى وكيسى) كقوله فى (ضيزى) لتصح الياء . وأما عزهى وسعلى فالمشهور فيهما عزهاة وسعلاة .

والوجه الثانى ـ أن تكون مصدراً كذكرى . قال الكسائىّ : يقال ضاز يضيز ضيزى، كذكر يذكر ذكرى . ويحتمل أن يكون من (ضأزه) بالهمز كقراءة ابن كثير ، إلا أنه خفف همزها ، وإن لم يكن من أصول القراء كلهم إبدال مثل هذه الهمزة ياءً ، لكنها لغة التزمت ، فقرأوا بها . ومعنى ضأزه يضأزه بالهمزة ، نقصه ظلماً وجوراً ، وهو قريب من الأول . و (ضيزى) فى قراءة ابن كثير مصدر وصف به ، ولا يكون وصفاً أصليًّا ، لما تقدم عن سيبويه .

فإن قيل : لم لا قيل فى (ضئزى) بالكسر والهمز ، أن أصله ضيزى بالضم فكسرت الفاء ، لما قيل فيها مع الياء ؟ .

فالجواب : أنه لا موجب هنا للتغيير ، إذ الضم مع الهمز لا يستثقل استثقاله مع الياء الساكنة وسمع منهم (ضؤزى) بضم الضاد مع الواو والهمزة .

وأما قراءة زيد فيحتمل أن تكون مصدراً وصف به ، كدعوى ، وأن تكون صفة كسكرى وعطشى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ، وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ)

« إِنْ هِيَ » أى الأصنام المذكورة باعتبار الألوهية التى يدعونها لها « إِلَّآ أَسْمَآءٌ » أى محضة ليس تحتها مما تنبئ هى عنه من معنى الألوهية ، شىء ما أصلًا . أى ليس لها نصيب منها إلا إطلاق تلك الأسماء عليها .

قال الشهاب : والمراد لا نصيب لها أصلًا ، ولا وجه لتسميتها بذلك ، ولو كانت الألوهية متحققة بمجرد التسمية كانت آلهة ، فهو من نفى الشىء بإثباته ، أو هو ادعاء محض لا طائل تحته . « سَمَّيْتُمُوهَآ » أى جعلتموها أسماء مع خلوّها عن المسميات « أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم » أى بمقتضى أهوائكم ، وتقليد التابع للمتبوع « مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ » أى برهان يتعلق به « إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ » أى إلا توهم أن ماهم عليه حق « وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ » أى تشتهيه أنفسهم .

قال ابن جرير (١) : لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحى جاءهم من الله ، ولا عن رسول من الله أخبرهم به ، وإنما هو اختلاق من قبل أنفسهم ، أو أخذوه عن آبائهم الذين كانوا من الكفر بالله على مثل ما هم عليه منه « وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ » أى الدليل الواضح ، والبيان بالوحى ؛ أن عبادتها لا تنبغى وأنه لا تصلح العبادة إلا له تعالى وحده .

قال أبو السعود : والجملة حال من فاعل (يَتَّبِعُونَ) أو اعتراض . وأيًّا ما كان، ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن ، وهوى النفس ، وزيادة تقبيح لحالهم ، فإن اتباعهما من أى شخص كان ، قبيح . وممن هداه الله تعالى بإرسال الرسول ﷺ وإنزال الكتب ، أقبح .

(١) انظر الصفحتين رقم ٦١ و٦٢ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

تنبيه :

قال السيوطيّ فى (الإكليل) : استدل بقوله (إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ . . .) الخ على أن اللغات توقيفية . ووجهه أنه تعالى ذمهم على تسمية بعض الأشياء بما سموها به، ولولا أن تسمية غيرها من الله توقيف ، لما صح هذا الذم ، لكون الكل اصطلاحاً منهم .

واستدل بقوله تعالى (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ . . .) الخ على إبطال التقليد فى العقائد . واستدل به الظاهرية على إبطاله مطلقاً ، أو إبطال القياس .

أخرج ابن أبى حاتم عن عمر قال : احذروا هذا الرأى على الدين ، فإنما كان الرأى من رسول الله ﷺ مصيباً لأن الله كان يريه ، وإنما هو منا تكلف وظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ)

« أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ » أى ليس له ما يشتهيه من الأمور التى منها طمعه الفارغ فى شفاعة الأنداد ، وتعمنته فى دفاع اليقين بالظن ، وتركه نفسه وهواها بلا شرع يقيده ، ولا مهيمن يزعه . فإن ذلك من المحالات فى نظر العقل السليم ، كقوله[1] (لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ)

« فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ » أى فمصير الأمر فيهما له تعالى ، لا للإنسان حسب ماتسول له نفسه الأمارة بالسوء ، كما قال[2] (وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ

(١) [٤ / النساء / ١٢٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٧١]

وَالْأَرْضُ . . .) الخ ، ولذا أرسل له الرسل ، وإنزل الكتب ، قطعاً للمعاذير . ونبهه بالعقل على سبل السعادة التي لا تخفى على بصير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ)

« وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ » هذا توبيخ من الله تعالى لعبدة الأوثان، بإقناطهم عما علقوا به أطماعهم من شفاعة أوثانهم ، بأن ملائكته الكرام لا يتفوهون بالشفاعة إلا من بعد إذنه ورضاه . فأنّى لهذه الطواغيت أن تفتات على هذا المقام ، ولها من الذلة والصغار ما يبعدها عنه بألف منزل .

ثم أشار إلى طغيان آخر للمشركين ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ » أي تسمية الإناث ، وذلك أنهم كانوا يقولون : هم بنات الله . فالأنثى بمعنى الإناث ، لأنهم اسم جنس يتناول الكثير والقليل . وقيل : بمعنى الطائفة الأنثى . وقيل : منصوب بنزع الخافض على التشبيه ، فلا تمس الحاجة إلى الجمعية . وقيل : أفرد لرعاية الفاصلة . وقيل : الملائكة في معنى استغراق المفرد ، أي ليسمون كل واحد منهم بنتاً ، وهي تسمية الأنثى ، على وزان (كسانا الأمير حلة) أي كسا كل واحد منا حلة ، والإفراد لعدم اللبس .

قال أبو السعود : وفي تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة ، إشعار بأنها في الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة في الآخرة ، بحيث لا يجترئ عليها إلا من لا يؤمن بها رأساً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ، وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾

[٢٩] ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾

« وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا » أى لا يفيد فائدته ، ولا يقوم مقامه ، وذلك لأن حقيقة الشيء وما هو عليه ، إنما تدرك إدراكاً معتدًّا به ، إذا كان عن يقين ، لا عن ظن وتوهم « فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا » أى من هؤلاء الكفرة الذين يرون غاية سعادتهم التنعم بلذائذها ، لقصر نظرهم على المحسوسات . والمراد من (الإعراض) هجرهم هجراً جميلًا ، وترك إيذائهم . وقولُ الزمخشريّ : أى أعرض عن دعوة من رأيته معرضاً عن ذكر الله ... الخ ـ لا يصح . لأن الصدع بالحق لا تسامح فيه ، لاسيما والدعوة للمعرضين، وهى تستلزم أن يحاجوا به بمنتهى الطاقة لقوله[1] تعالى (وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا) وإنما معنى الآية : فاصفح عنهم ودع أذاهم ؛ فى مقابلة ما يجهلون به عليك ، كما بين ذلك فى مواضع من التنزيل ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾

« ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ » يعنى أمر الدنيا منتهى علمهم، لا علم لهم فوقه . ومن كان هذا أقصى معارفه ، فما على داعيه إلا الصفح عنه ، والصبر على جهله .

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٢] .

و (مبلغ) اسم مكان مجازاً ، كأنه محل وقف فيه علمهم ادعاء ـ كما حققه الشهاب ـ والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا ، ثم علل الأمر بالإعراض بقوله سبحانه « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ » أى : ولا بد أن يعاملهم بموجب علمه فيهم ، فيجزى كلًّا بما يقتضيه عمله ، وتقديم العلم بمن ضل ، لأنهم المقصودون من الخطاب ، والسياق فيهم . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى)

« وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ » تنبيه على سعة ملكه ، وعظمة قدرته ، وأن ما فيهما من قبضته ، فلا يعجزه جزاء هؤلاء الفجرة ، كما قال « لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى » أى بالمثوبة الحسنى ، وهى الجنة .

ثم بيّن صفات هؤلاء المحسنين ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ)

« ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ » يعنى ما كبر الوعيد عليه من المناهى « وَٱلْفَوَٰحِشَ » يعنى ما فحش منها . والعطف إما من عطف أحد المترادفين أو الخاص على العام . « إِلَّا ٱللَّمَمَ » أى الصغائر من الذنوب . ومثّله أبو هريرة بالقبلة والغمزة والنظرة ـ فيما رواه ابن جرير[1] ـ

(١) انظر الصفحة رقم ٦٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

وأصل معناه : ماقل قدره. ومنه : لمة الشَّعر، لأنها دون الوفرة. وقيل: معناه الدنو من الشيء دون ارتكاب له . والاستثناء منقطع على ماذكر. أي إلا اللمم بما دون الكبائر والفواحش، فإنه عفو . وقيل : متصل ، والمراد مطلق الذنوب . وقيل : إنه لا استثناء فيه أصلًا، و(إلا) صفة بمعنى غير ـ وتفصيله في (العناية) ـ .

وحكى ابن جرير[١] عن ابن عباس وغيره؛ أن معنى (اللمم) ماقدسلف لهم مما ألموا به من الفواحش والكبائر في الجاهلية قبل الإسلام ، وغفرها لهم حين أسلموا .

وعن ابن عباس أيضاً قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب ولا يعود. قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأيّ عبد لك لا ألمّا

وقال الحسن : (اللمم) أن يقع الوقعة ثم ينتهي . وكل هذا مما يتناوله اللفظ الكريم والأقوى في معناه هو الأول ، ولذا استدل بالآية على تكفير الصغائر باجتناب الكبائر ، كما قال تعالى[٢] (إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) .

« إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ » قال ابن جرير[٣] : أي واسع عفوه للمذنبين الذين لم تبلغ ذنوبهم الفواحش وكبائر الإثم « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ » قال[٤] ابن جرير: أي أحدثكم منها بخلق أبيكم آدم منها «وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ» أي حينما يصوركم في الأرحام « فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ » أي تشهدوا لها بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي . والمراد به الثناء تمدحاً أو رياء «هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ» أي بمن اتقاه

(١) انظر الصفحة رقم ٦٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٤ / النساء / ٣١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٤) انظر الصفحة رقم ٦٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فعمل بطاعته ، واجتنب معاصيه وأصلح. وهذا كقوله تعالى[١] (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) .

وفى الصحيحين[٢] عن أبى بكرة قال: مدح رجل رجلًا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله ﷺ : ويلك ! قطعت عنق صاحبك (مراراً) إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لامحالة ، فليقل : أحسب فلاناً ، والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ)

[٣٤] (وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ)

[٣٥] (أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ)

« أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ » أى عن الذكر بعد إذ جاءه ، كما قال تعالى[٣] (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) « وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ » أى قطع العطاء بخلًا وشحًّا « أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ » أى يراه حتى يحكم على نفسه بالتزكية والنجاة والفوز ؟ .

---

(١) [٤ / النساء / ٤٩] .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب، ٩٥ ـ باب ما جاء فى قول الرجل ويلك ، حديث رقم ١٢٩٣
وأخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٥و٦٦ (طبعتنا) .

(٣) [٧٥ / القيامة / ٣١و٣٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ)

[٣٧] (وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ)

« أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ » أى بالغ فى الوفاء بما عاهد الله عليه ، كما قال(١) (وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ)

« أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » أى لا تؤاخذ نفس بذنب غيرها . بل كل آثمة ، فإن إثمها عليها .

قال القاشانىّ : لأن العقاب يترتب على هيآت مظلمة رسخت فى النفس بتكرار الأفاعيل والأقاويل السيئة التى هى الذنوب ، وكذلك الذنوب . وكذلك الثواب ، إنما يترتب على أضدادها من هيآت الفضائل ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ)

« وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ » أى : إلا سعيه وكسبه .

تنبيهات :

الأول ـ قال(٢) ابن جرير : إنما عنى بقوله (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) الذى

---

(١) [٢ / البقرة / ١٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٧٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

ضمن للوليد بن المغيرة أن يتحمل عنه عذاب الله يوم القيامة ! يقول: ألم يخبر قائل هذا القول، وضامن هذا الضمان ، بالذى فى صحف موسى وإبراهيم مكتوب : أن لا تأثم آثمة إثم أخرى غيرها ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أى: وأنه لا يجازى عامل إلا بعمله ، خيراً كان أو شراً . انتهى .

وظاهر السياق يشعر بنزول الآيات ردًّا على ما كانوا يتخرصونه ويتمنونه ، ويتحكمون فيه على الغيب لجاجاً وجهلًا . ومع ذلك فمفهومها الشمولىّ جلىّ .

الثانى ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل به على عدم دخول النيابة فى العبادات عن الحىّ والميت . واستدل به الشافعىّ على أن ثواب القراءة لا يلحق الأموات . انتهى.

وقال ابن كثير : ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعىّ رحمه الله ومن تبعه؛ أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء . ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه. وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ، ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ . إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم يُنتفع به ـ فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكدّه وعمله، كما جاء فى الحديث(٢): إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه . والصدقةُ الجارية ـ كالوقف

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٢٥ ـ كتاب الوصية ، حديث رقم ١٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه النسائى فى : ٤٤ ـ كتاب البيوع ، ١ ـ باب الحث على الكسب ، عن عائشة .

ونحوه ـ هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال [١] تعالى (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ . . .) الآية . والعلم الذي نشره في الناس ، فاقتدى به الناس بعده ، هو أيضاً من سعيه وعمله .

وثبت في الصحيح [٢] : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . انتهى .

الثالث ـ قال الرازيّ : المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة ، أو بيان كل عمل . نقول : المشهور أنها لكل عمل ، فالخير مثاب عليه ، والشر معاقب به ، والظاهر أنه لبيان الخيرات ، يدل عليه اللام في قوله تعالى (لِلْإِنسَانِ) فإن اللام لعود المنافع ، و(على) لعود المضار . تقول : هذا له ، وهذا عليه ؛ ويشهد له ، ويشهد عليه ، في المنافع والمضارّ . وللقائل الأول أن يقول بأن الأمرين إذا اجتمعا غلب الأفضل ، كجموع السلامة تذكّر ، إذا اجتمعت الإناث مع الذكور . وأيضاً يدل عليه قوله تعالى (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ) و (الأوفى) لا يكون إلا في مقابلة الحسنة ، وأما في السيئة فالمثل أو دونه ، أو العفو بالكلية . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ)

[٤١] (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ)

« وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ » أي يراه ، ويعرض عليه ، ويكشف له . من (أريت الشيء) أو يرى للخلق وللملائكة . ففيه بشارة للمؤمن ، وإفراح له ، ونذارة للكافر ، وإرهاب له ، أو هو من (رأى) المجرد . أي يراه ، كقوله تعالى [٣] (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى

(١) [٣٦ / يس / ١٢] .
(٢) أخرجه مسلم في : ٤٧ ـ كتاب العلم ، حديث رقم ١٦ (طبعتنا) .
(٣) [٩ / التوبة / ١٠٥] .

ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ) « ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ » أى يجزى سعيه جزاء وافراً لا يبخس منه شيئاً .

قال الشهاب : أصله يجزى الله الإنسان سعيه ، فـ (الجزاء منصوب بنزع الخافض ، و (سعيه) هو المفعول الثانى ، وهو يتعدى له بنفسه . نحو : جزاك الله خيراً . وجزاؤه سعيه بمعنى جزائه بمثله . أو هو مجاز . وقيل : المنصوب بنزع الخافض الضمير ، والتقدير : بسعيه أو على سعيه ـ كما فى (الكشاف) ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ)

[٤٣] (وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ)

[٤٤] (وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)

[٤٥] (وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ)

[٤٦] (مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ)

[٤٧] (وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ)

[٤٨] (وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ)

[٤٩] (وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ)

« وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ » أى انتهاء الخلق ، ورجوعهم لمجازاتهم . والمخاطب إما عامّ ، أى أيها السامع أو العاقل ، ففيه وعد ووعيد ؛ أو خاصّ بالنبىّ صلوات الله عليه ، ففيه تسلية عما كان يلاقيه من جفاء قومه وجهلهم .

ثم أشار إلى بعض آياته الدالة على انفراده بالألوهية ، بقوله تعالى « وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ

وَأَبْكَىٰ » أى خلق قوتى الضحك والبكاء ، أو أضحك أهل الجنة فى الجنة ، وأبكى أهل النار فى النار ، أو من شاء من أهل الدنيا ، أو أعمّ .

قال الرازىّ : اختار هذين الوصفين لأنهما أمران لا يعللان، فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدى فى اختصاص الإنسان بهما سبباً ، وإذا لم يعلل بأمر ، فلابد له من موجد ، وهو الله تعالى . وأطال فى ذلك وأطاب ، رحمه الله تعالى .

« وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا » أى أمات من شاء من خلقه ، وأحيي من شاء . قال ابن جرير[١] : وعنى بقوله (أَحْيَا) نفخ الروح فى النطفة الميتة ، فجعلها حية بتصييره الروح فيها « وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ » أى ابتدع إنشاءهما من نطفة إذا تدفق فى الرحم . « وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ » أى إعادة الخلق بعد مماتهم فى نشأة أخرى لا تعلم، كما قال[٢] (وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ) وذلك للحساب والجزاء ، المرتب على أعمال الخير والشر ، بالمصير إلى الجنة أو النار « وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ » أى أغنى من شاء بالمال . و (أقناه) أى جعل له قنية ، وهو ما يدخره من أشرف أمواله . « وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ » وهو نجم مضىء خاف الجوزاء ، وكان بعض أهل الجاهلية يعبده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ)

[٥١] (وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ)

[٥٢] (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ)

(١) انظر الصفحة رقم ٧٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

(٢) [٥٦ / الواقعة / ٦١] .

[٥٣] ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾

[٥٤] ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾

[٥٥] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾

[٥٦] ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾

« وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ » يعنى قوم هود. وسميت (ٱلْأُولَىٰ) لتقدمها فى الزمان. « وَثَمُودَاْ » أى قوم صالح « فَمَآ أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ » أى إشد فى كفرهم « وَأَطْغَىٰ » أى أشد طغياناً وعصياناً من الذين أهلكوا بعدهم ، لتمردهم على الكفر ، وردّ دعوته ، فى طول مدته بينهم ، وهى أطول مدد الأنبياء عليهم السلام . « وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ » أى قرى قوم لوط التى ائتفكت بأهلها ، أى انقلبت . « أَهْوَىٰ » أى أهواها على أهلها ودمّرها . « فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ » أى من العذاب السماوىّ الذى صب عليها. « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ » أى نعمائه . « تَتَمَارَىٰ » أى ترتاب وتشكّ وتجادل فى أنها ليست من عنده ، وهو الذى أنعم بالإغناء والإقناء وإرسال الرسل ، وقهر أعدائهم. « هَٰذَا » أى القرآن « نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ » أى إنذار من جنس الإنذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم . أو هذا الرسول نذير من جنس من تقدمه ، ليس بدعاً من الرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴾

[٥٨] ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾

« أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ » أى قربت القيامة الموصوفة بالقرب. فاللام فى (ٱلْأَزِفَةُ) للعهد. وقيل : الآزفة علم بالغلبة للساعة هنا، لئلا يلزم وصف القريب بالقريب .

قال الشهاب : وفيه نظر ، لأن وصف القريب بالقرب يفيد المبالغة في قربه، كما يدل عليه الافتعال في (اقتربت) .

« لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ » أي ليس لقيامها غير الله مبيّن لوقته ، كقوله[1] (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ) و (كَاشِفَةٌ) صفة محذوف، أي نفس كاشفة، أو حال كاشفة. أو التاء للمبالغة . أو هو مصدر بني على التأنيث و (مِن دُونِ ٱللَّهِ) بمعنى غير الله، أو إلا الله. وقيل : الكشف بمعنى الإزلة . أي ليس لها نفس كاشفة إذا وقعت ، إلا هو تعالى ، من (كشف الغماء) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ)

[٦٠] (وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ)

[٦١] (وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ)

[٦٢] (فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟) (سجدة) (لغير مالك)

« أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ » يعني القرآن الذي قص ما تقدم ، وأنذر بما أخبر «تَعْجَبُونَ» أي : تعجب إنكار مع أن ما حواه مما يلجيء إلى الإذعان والإقرار ، بل مما يفيض لحقيته الدمع المدرار ، كما قال « وَتَضْحَكُونَ » أي استهزاء « وَلَا تَبْكُونَ » أي مما فيه من وعيد للعصاة ، ومما فرط منكم قبل سماع ذكراه كما يفعله الموقنون به ، المحدث عنهم في آية[2] (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) «وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ» أي لاهون عما فيه من العبر ، معرضون عن آياته كبراً .

قال مجاهد : كانوا يمرّون على النبيّ ﷺ غضاباً مبرطمين ، أي : شامخين .

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٨٧] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٠٩] .

وعن ابن عباس : هو الغناء : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا، وهى لغة أهل اليمن. يقولون : اسمد لنا : تغنّ لنا . والمآل واحد ، وإن اختلفت العبارة عنه . ولا ريب أن كل ذلك مما كان يصدر عن المشركين .

قال فى (الإكليل) : فيه استحباب البكاء عند القراءة ، وذم الضحك والغناء ، واللهو واللعب والغفلة ، كما فسر بالأربعة قوله (سَٰمِدُونَ) وفسره السدّىّ بالاستكبار .

« فَاسْجُدُواْ لِلَّهِ وَاعْبُدُواْ » أى واعبدوه دون من سواه من الأوثان، فإنه لا ينبغى أن تكون العبادة إلا له ، فلا تجعلوا له شريكاً فى عبادته .

وعن عبد الله بن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (وَالنَّجْمِ) فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسجد من خلفه . . . الحديث . وتقدم فى أول السورة .

وروى الإمام أحمد[1] عن المطّلب بن وداعة قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم ، فسجد ، وسجد من عنده ، فرفعت رأسى فأبيت أن أسجد ـ ولم يكن أسلم يومئذ المطّلب ـ فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً قرأها إلا سجد معه ـ ورواه النسائىّ ـ .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ الثانية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٤ - سورة القمر

وتسمى سورة (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) وهى مكية . وآيها خمس وخمسون .

قال ابن كثير : ورد فى حديث أبى واقد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ (قاف) و (وَاقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) فى الأضحى والفطر. وكان يقرأ بهما فى المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد ، وبدء الخلق وإعادته ، والتوحيد ، وإثبات النبوات ، وغير ذلك من المقاصد العظيمة .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ)

« ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ » أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة. كما قال[١] (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) وقال[٢] (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ).

قال ابن جرير[٣] : وهذا من الله تعالى إنذار لعباده بدنوّ القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمرٌ لهم بالاستعداد لأهوال القيامة ، قبل هجومها عليهم ، وهم عنها فى غفلة ساهون.

« وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ)

« وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ » قال ابن جرير[٣] : كان ذلك ، فيما ذكر ، على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة ، قبل هجرته إلى المدينة . وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية ، فأراهم ﷺ انشقاق القمر حجة على صدق قوله ، وحقيقة نبوته . فلما أراهم ، أعرضوا وكذبوا ، وقالوا هذا سحر مستمر ، سَحَرَنَا محمد. ثم روى ذلك عن أنس وابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من التابعين .

وقال القاضي عياض فى (الشفا) أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى ، وإعراض الكفرة عن آياته . وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه ، ثم سرد الآثار فى ذلك .

---

(١) [١٦ / النحل / ١] .　　(٢) [٢١ / الأنبياء / ١] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

obeikandl.com

وزعم ابن كثير أن أحاديثه متواترة ، إلا أن الشهاب نقل عن الإمام الخطابيّ أن معجزاته ﷺ ، غير القرآن ، لم تتواتر . والحكمة فيه أنها لو تواترت كانت عامة ، والمعجزة إذا عمت أهلك الله من كذّبها ، كما جرت به العادة الإلهية ، والنبيّ ﷺ بعث رحمة ، وأمّن الله أمته من عذاب الاستئصال .

ثم قال : وسبب تعرضهم للتواتر طعن بعض الملاحدة بأن القمر يشاهده كل أحد، فلو انقسم قطعتين تواتر وشاع في جميع الناس ، ولم يخف على أحـــد . والطبائع حريصة على إشاعة مالم يعهد مثله، ولا أغرب من هذا . مع أن الملازمة غير لازمة، لأنه في الليل ، وزمان الغفلة ، ولا يلزم امتداده ، ولا أن يُرى إذ ذاك في جميع الآفاق ، لاختلاف المطالع . انتهى.

وقد ذكر ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث) أن الذي طعن في تلك الآثار المروية عن ابن مسعود هو النظّام ، إلا أنه لم ينقل تأويله للآية على رأيه ، ولعله هو القول الثاني الذي حكاه الزمخشريّ والبيضاويّ ، ورواه أبو السعود عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن المعنى : وسينشق القمر ، يعني يوم القيامة إذا انـكدرت النجوم وانتثرت . والمراد بالآية إما القرآن أو ما يقترحونه لو أجيبوا إلى طلبه .

ومعنى (مُسْتَمِرٌّ) دائم مطرد ، أو محكم قويّ ، من (مررت الحبل) إذا أحكمت فتله. أو مارّ ذاهب لا يبقى ، تعليلاً لأنفسهم بالأمانيّ الفارغة . أو منفور عنه لشدة مرارته مجازاً.

وجملة (وإن يروا) مستأنفة أو حالية .

قال الشهاب : ولو كانت هذه الجملة حالية ، والمعنى . أن الساعة اقتربت ، وانشقاق القمر فيها دنا زمانه ، وظهرت آثاره ، والحال أنهم مصرون على العناد ـ كان منتظماً أتم انتظام، ولا ضير فيه سوى مخالفته للمنقول عن السلف في تفسيرها ، فتأمل . انتهى .

أقول : ولي ههنا كلمة لا بد من التنبيه عليها ، وهي أن الرمي بالإلحاد لمنكرٍ حديثٍ غير مجمع على تواتره ، جنـــاية كبرى ، وزلة عظمى . فإن باب التفـكير والتضليل ، ليس بالأمر

القليل . ولأجله صنف حجة الإسلام الغزالىّ كتابه (فيصل التفرقة) ودمغ بحججه أولئك المتعصبين الذين سهل عليهم الرمى لمن خالفهم بالزندقة . ولعمر الحق إن هذا مما فرّق الكلمة، ونفّر حملة العلم عن تعرف المشارب والآراء ، حتى أصبح باب التوسع فى العلم مرتجاً، ومحيطه بعد مده منحسراً ، إذ هجرت كتب الفرق الأخرى بل أحرقت ، وأهين من يتأثلها ، ورمى بالابتداع أو التزندق ، كما يمر كثير من مثل هذا بمطالع كتب التاريخ وطبقات الرجال، فلا جرم نسيت الأقوال الباقية ، وعدت من الشاذ غير المقبول . وإذا ألصق اسم الإلحاد بقائلها ، فماذا يكون حالها ؟ وهذا ، كما لا يخفاك ، حيف على قواعد العلم ، وغل للأفكار . نعم ! تفلت منهم علم الأصول ، فلم تزل الأقوال الغريبة تتراءى على صفحاته ، وإن كان مما يغمز كثير منها ، إلا أنها سارت تلج آذانهم، ويحتج بها عليهم . وقد تنبه كثير من المحققين لما ذكرناه، وأشاروا له فى مواضع ، فقرروا فى كتب العقائد أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة .

وقال العلامة الفنارىّ فى (فصول البدائع): ولا يضلل جاحد الآحاد .

وقال الإمام ابن تيمية : الصواب أن من رد الخبر الصحيح، كما كانت الصحابه ترده، لاعتقاد غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الرادّ أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا، فإن هذا لا يكفر ولا يفسق ، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً . فقد رد غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التى هى صحيحة عند أهل الحديث . انتهى .

وذكر الغزالىّ فى (الإحياء) فى كتاب آداب تلاوة القرآن فى الباب الثالث فى أعمال الباطن فى التلاوة ؛ أن من أركانها التخلى عن موانع الفهم . قال : فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معانى القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . وحجب الفهم أربعة . إلى أن قال :

وثانيها ـ أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد ، وجمد عليه، وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده

عن أن يجاوزه ، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعانى التى تباين مسموعه ، حمل عليه شيطان التقليد حملة ، وقال : كيف يخطر هـذا ببالك ، وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور الشيطان فيتباعد منه ، ويحترز عن مثله . ثم قال :

رابعها ـ أن يكون قرأ تفسيراً ظاهراً ، واعتقد أنه لا معنى لـكلمات القرآن إلا ماتناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأى، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار ، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة . ثم قال :

وسنبين معنى التفسير بالرأى ، وأن ذلك لا يناقض قول على رضى الله عنه: إلا أن يؤتى الله عبداً فهماً فى القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول ، لما اختلف الناس فيه .

ثم ذكر بعد ، عليه الرحمة ، أن النهى عن التفسير بالرأى ينزل على أحد وجهين :

أحدهما ـ أن يكون له فى الشيء رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج على تصحيح غرضه ، كالمحتج على تصحيح بدعة بتأويل يخترعه تلبيساً على خصمه ، وكالجاهل المتقحّم يتأول ما شاء هواه .

وثانيهما ـ أن يتسارع إلى التأويل بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب التنزيل . انتهى .

ويأتى مثل البحث فى كثير من المواضع التى فسرها بعض السلف بشيء ، أو روى فيها ما أنـكره غيره لما قام لديه . ولا ملام فى معترك الأفهام ـ وبالله التوفيق ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾

« وَكَذَّبُوا » أى بآيات الله بعد ما أتتهم حقيقتها « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » أى مازين لهم من دفع الحق مما وجدوا عليه آباءهم « وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ » أى كل أمر لابد أن يصير

إلى غاية يستقر عليها . تعريض بأن أمر الرسول لابد أن يستقر إلى غايةٍ، هي الظهور والنصرة؛ وأمر مكذبيه إلى الخذلان والشقاوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾

[٥] ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾

« وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ » أى عن القرون الخالية ، والحقائق الكونية ، مما يستحيل أن يأتى به أمىّ غيره صلوات الله عليه « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » أى مرتدع عماهم مقيمون عليه من التكذيب والغفلة واللهو « حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ » أى بلغت غايتها من الإحكام والتنزه عن الخلل ، ومن الاشتمال على البراهين القاطعة والحجج الساطعة . وهو بدل من (ما) أوخبر محذوف ، أى هو حكمة بالغة « فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ » جمع نذير . و (ما) نافية ، أو استفهامية . أى : أىّ غناء تغنى عن قوم آثروا الضلالة على الهدى ، فأعرضوا عنه ، وكذبوا به . وجوز أن تكون (حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ) جملة مستأنفة للتعجب من حالهم ، مع ما جاءهم مما يقود إلى الإيمان بادئ بدء . وهو ما يفهم من تأويل ابن كثير . وعبارته : (حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ) أى فى هدايته تعالى لمن هداه ، وإضلاله لمن أضله (فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ) يعنى أى شىء تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه . فمن ذا الذى يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى[١] (وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) وكذا قوله تعالى[٢] (وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) .

---

(١) [١٦ / النحل / ٩] . (٢) [١٠ / يونس / ١٠١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾

[٧] ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾

[٨] ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ، يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى اصفح عن أذاهم ، وانتظر ما يأتيهم من الوعيد الشديد ، كما قال : « يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ » أى داعى الله إلى موقف القيامة ، وهو ملك . أو الدعاء تمثيل للإعادة كالأمر فى قوله (كُن فَيَكُونُ) تمثيل للإبداء ، والداعى هو الله تعالى « إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ » أى فظيع تنكره النفوس ، وهو موقف الحساب والجزاء والبلاء « خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ » أى من الذل والصغار « يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ » أى قبورهم « كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ » أى فى الكثرة والتموج والانتشار . والجرادُ مثل فى الكثرة « مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ » أى مسرعين . مادّى أعناقهم إليه . « يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ » أى لشدة أهواله و (يَوْمَ يَدْعُ) ظرف لـ (يَقُولُ) وقيل : بمضمر ، وقيل : بـ (يَخْرُجُونَ) والأول أظهر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ » أى زجر عن الإنذار والتبليغ بشدة وقساوة ، كما يدل عليه صيغة (افتعل) .

قال الناصر : وليس قوله (فَكَذَّبُوا۟) الثانى تكراراً ، لأن الأول مطلق ، والثانى مقيد . وهو كقوله فى السورة[1] (فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ) فإن تعاطيه هو نفس عقره ، ولكن ذكره من جهة عمومه ، ثم من ناحية خصوصه إسهاباً ، وهو بمثابة ذكره مرتين . وجواب آخر هنا ،

(١) [٥٤ / القمر / ٢٩] .

وهو أن المكذب أولاً محذوف ، دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحاً ، ثم جاء بتكذيبهم ثانياً مضافاً إلى قوله (عَبْدَنَا) فوصف نوحاً بخصوص العبودية . وأضافه إليه إضافة تشريف . فالتكذيب المخبر عنه ثانياً ، أبشع عليهم من المذكور أولاً ، لتلك اللمحة . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ)

« فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ » أى غلبنى قومى تمرداً وعتوًّا ، فلم يسمعوا منى . واستحكم اليأس منهم ، فانتقم منهم بعذاب ترسله عليهم .

ثم أشار إلى استجابته تعالى دعاءه : بالطوفان الذى هلكوا فيه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ)

[١٢] (وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)

[١٣] (وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ)

[١٤] (تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ)

[١٥] (وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

[١٦] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ)

« فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ » أى مندفق . وفيه استعارة تمثيلية ، بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت لها أبواب السماء ، وشق لها أديم الخضراء . « وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا » أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر . « فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ »

أى ماء السماء وماء الأرض « عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ » أى على حال قدّره الله وقضاه، وهو هلاك قوم نوح . « وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ » يعنى السفينة . أقيمت صفاتها مقامها ، لتأديتها مؤداها . وهو من بديع الكلام ـ كما بسطه فى (الكشاف) ـ .

(ودُسُرٍ) جمع دِسار بكسر الدال ، أو دَسْر كسقف وسقف ،وهى أضلاعها ، أو حبالها التى تشد فيها ، أو مساميرها .

« تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى منا . كناية عن حفظها بحفظه تعالى وعنايته . « جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ » أى كفر به ، وهو الله تعالى ، أو نوح وما جاء به ، فهو من (الكفر) ضد الإيمان . أو هو نوح عليه السلام لأنه نعمة كفروها ، فهو متعد بنفسه ، استعير لنوح النعمة بطريق الكناية ، ونسب الكفران تخييلاً أو حقيقة . « وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ » أى قصة نوح « ءَايَةً » أى جعلناها عِبْرَة يُعتبر بها . « فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » ؟ أى معتبر ومتعظ . وأصله (مذتكر) . «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ» أى عذابى لهؤلاء الكفرة، قوم نوح، وإنذاراتى بما أحلت بهم ، ليحذر أمثالهم وينتهوا عما يقترفونه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ » أى سهلناه للادّكار والاتعاظ ، لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال الكافية الشافية « فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ؟ » أى فيعتبر بما فيه ، ويثوب إلى رشده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ)

[١٩] (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ)

[٢٠] (تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ)

[٢١] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ)

[٢٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« كَذَّبَتْ عَادٌ » أى نبيّهم هوداً عليه السلام ، بمثل ما كذّبت به قوم نوح « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا » أى شديدة الهبوب، لها صرير ، أو باردة ، « فِى يَوْمِ نَحْسٍ » أى شر وشؤم عليهم « مُّسْتَمِرٍّ » أى استمر عليهم ودام حتى أهلكهم ، أو شديد المرارة لعظم بلائه . « تَنزِعُ ٱلنَّاسَ » أى تقلعهم عن أماكنهم . « كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ » أى أصول نخل منقلع عن مغارسه . وأصل (مُّنقَعِرٍ) ما أخرج من القعر . « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ » كرّره للتهويل والتنبيه على فرط عتوّهم . أى فكيف كان عذابى لقومه ، وإنذارى لهم على لسانه ؟ « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » ؟ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ)

[٢٤] (فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ)

[٢٥] (أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)

[٢٦] (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ)

[٢٧] (إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ)

[٢٨] (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ)

[٢٩] (فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ)

[٣٠] (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ)

[٣١] (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ)

[٣٢] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ » أى بما أنذرهم به نبيهم صالح عليه السلام . « فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ » أى جنون، أو عناء. فهو اسم مفرد. وقيل: جمع سعير ، كأنهم عكسوا عليه ، فرتبوا على اتباعهم إياه ما رتبه على اتباعهم له .

قال الزمخشريّ قالوا : (أَبَشَرًا) إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم فى الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة . وقالوا (مِّنَّا) لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى . وقالوا (وَٰحِدًا) إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلًا واحداً ، أو أرادوا واحداً من أفنائهم ليس بأشرفهم وأفضلهم . ويدل عليه قولهم « أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا » يعنون : الوحى والنبوة . أى وفينا من هو أحق بها على زعمهم ، لكونه أعز مالًا ونفراً « بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ » أى متكبر ، حمله كبره على استتباعنا له . « سَيَعْلَمُونَ غَدًا » أى عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة « مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ » أى المتكبر عن الحق، البطر له « إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ » أى آية وحجة لصالح على قومه امتحاناً لهم وابتلاء « فَٱرْتَقِبْهُمْ » أى انتظرهم وتبصر ما هم صانعوه بها « وَٱصْطَبِرْ » أى على دعوتهم « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ » أى الذى يردونه لشرب مواشيهم « قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ » أى مقسوم بينهم، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم « كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ » أى يحضره صاحبه فى نوبته و (الشرب) النصيب من الماء .

ثم أشار تعالى إلى عتوهم عن أمر ربهم بقوله « فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ » فتناول الناقة بيده « فَعَقَرَ » أى فعقرها وقتلها « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ » أى كالشجر اليابس المتكسر ، الذى يتخذه

من يعمل الحظيرة للغنم ونحوها. أو كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء . وقرئ بفتح الظاء ، اسم مكان . أى كهشيم الحظيرة ، أو الشجر المتخذ لها . وهو تشبيه لإهلاكهم وإفنائهم ، وأنهم بادوا عن آخرهم ، لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا ، كما يهمد وييبس الزرع والنبات بعد خضرة ورقه ، وحسن نباته .

قال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حظاراً على الإبل والمواشى من يبس الشوك .

وعن سفيان: الهشيم ، إذا ضربت الحظيرة بالعصا، تهشم ذاك الورق فيسقط ، والعرب تسمى كل شىء كان رطباً فيبس ، هشيماً « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ)

[٣٤] (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ، نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ)

[٣٥] (نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ)

[٣٦] (وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ)

[٣٧] (وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ)

[٣٨] (وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ)

[٣٩] (فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ)

[٤٠] (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ* إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا» أى ملكاً يرميهم بالحصباء والحجارة. أو ريحاً تحصبهم بالحجارة، أى ترميهم « إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ » أى

في سحر . أو (الباء) للملابسة ، أو المصاحبة . وذلك أنه تعالى أوحى إليهم أن يخرجوا من آخر الليل ، فنجوا مما أصاب قومهم . ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، وقد أصابها ما أصابهم . وخرج نبيّ الله لوط عليه السلام وبنات له ، من بين أظهرهم سالمين لم يمسسهم سوء « نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا » أى إنعاماً منا، وهو علة لـ(نجينا) « كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ » أى فأطاع ربه ، وانتهى إلى أمره ونهيه . و (الشكر) صرف العبد جميع ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله « وَلَقَدْ أَنذَرَهُم » أى لوط « بَطْشَتَنَا » أى أخذتنا بالعذاب « فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ » أى بإنذاراته ، تكذيباً له « وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ » أى طالبوه بإتيان الفاحشة معهم، وهم الملائكة الذين وردوا عليه في صورة شباب مُرْدٍ حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها تعلمهم بأضيافه عليه السلام ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فتلقاهم يناشدهم الله أن لا يخزوه في ضيفه ، فأبوا عليه ، وجاءوا ليدخلوا عليه ، فأعمى الله أبصارهم ، فلم يروهم، كما قال « فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ » أى يدوم بهم إلى النار . « فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » قال الزمخشريّ : فإن قلت : مافائدة تكرير قوله (فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ) (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ...) الخ ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادّكاراً واتعاظاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن تارات، لئلا يغلبهم السهو، ولا تستولى عليهم الغفلة . وهكذا حكم التكرير كقوله[1] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) عند كل نعمة عدها في سورة (الرحمن) . وقوله[2] (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) عند كل آية أوردها في

---

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٣] . (٢) [٧٧ / المرسلات / ١٥] .

سورة (والمرسلات) . وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها ، لتكون العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية فى كل أوان . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ)

[٤٢] (كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ)

« وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ » يعنى موسى وهرون ، وجمعهما للتعظيم ، أو هو جمع نذير بمعنى الإنذار « كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا » يعنى الآيات التسع ، أو الأدلة والحجج التى أتتهم ناطقة بوحدانيته تعالى . « فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ » أى عاقبناهم عقوبة شديد لا يغالَب « مُّقْتَدِرٍ » أى عظيم القدرة لا يعجزه شىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ)

[٤٤] (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ)

« أَكُفَّارُكُمْ » يا معشر قريش « خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ » أى الكفار المعدودين الذين حلت النقمة حتى يأمنوا جانبها « أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ » أى براءة من عقابه تعالى ، وأمان منه ، مع أنكم على شاكلة من مضى نبؤهم « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ » أى ممتنع لا يرام . أو منتصر ممن أراد حربنا ، وتفريق كلمتنا . أو متناصر ، ينصر بعضنا بعضاً ، فالافتعال بمعنى التفاعل ، كالاختصام بمعنى التخاصم . وإفراد (مُّنتَصِرٌ) مراعاة للفظ (جَمِيعٌ) لخفة الإفراد ، ولرعاية الفاصلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ)

[٤٦] (بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ)

« سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ » يعنى جمع كفار قريش « وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ » أى يولّون أدبارهم المؤمنين بالله ، عند انهزامهم. وإفراد (الدبر) لإرادة الجنس، أو رعاية الفواصل، ومشاكلة قرائنه . وقد وقع ذلك يوم بدر . وهو من دلائل النبوّة ، لأن الآية مكية ، ففيها إخبار عن الغيب، وهو من معجزات القرآن . « بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » قال ابن جرير[1]: ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لا يُبعثون بعد مماتهم، بل الساعة موعدهم للبعث والعقاب. « وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ » أى أعظم داهية ، وهى الأمر المنكر الذى لا يهتدى لدوائه . وأمرّ مذاقاً ، أو أشد عليهم من الهزيمة التى سيهزمونها ، إذا التقوا مع المؤمنين للقتال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ)

[٤٨] (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ)

« إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ » أى عن الحق فى الدنيا « وَسُعُرٍ » أى نيران فى الآخرة. وقال القاشانىّ : أى فى ضلال عن طريق الحق ، لعمى قلوبهم بظلمة صفات نفوسهم . و (سُعُرٍ) أى جنون ووله ، لاحتجاب عقولهم عن نور الحق بشوائب الوهم ، وحيرتها فى الباطل .

« يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ » أى يجرّون عليها . « ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ » أى حرّها وألمها . والاستعارة فى المس تحقيقية . أو فى (سقر) مكنية، وفى (المسّ) تخييلية.

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أو المس مجاز مرسل بعلاقة السببيّة للألم . واستعارة الذوق مشهورة ، واستعمال الذوق في المصائب بمنزلة الحقيقة . و (سَقَرَ) من أسماء جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

« إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » أى بمقدار استوفى فيه مقتضى الحكمة ، وترتب الأسباب على مسبّباتها. ومنه خلق دار العذاب، لما كسبت الأيدى، وإذاقة ألمها جزاء الزيغ عن الهدى . وهذه الآية كآية[1] (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)، وآية[2] (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ) أى قدّر قدرًا ، وهدى الخلائق إليه . ولا مانع أن تكون هذه الآية وما بعدها إلفاتاً لعظمته تعالى ، وكبير قدرته، وأن من كانت له تلك النعوت المثلى لجدير أن يُعبد وحده ، ويُرهب بأسه ، ويُتّقى بطشه ، لاسيما وقد صدع الداعى بإنذاره ، ومن أنذر فقد أعذر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)

« وَمَا أَمْرُنَا » أى الذى به الإيجاد «إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » أى كلمة واحدة يكون بها كل شىء ، بمقتضى استعداده ، كلمح بالبصر في السرعة .

قال القاشانىّ : (إِلَّا وَاحِدَةٌ) أى تعلّق المشيئة الأزلية الموجبة لوجود كل شىء في زمان معيّن ، على وجه معلوم ، ثابت في لوح القدرة ، المسمّى في الشرع بـ (كُن) ، فيجب وجوده في ذلك الزمان، على ذلك الوجه دفعة . انتهى .

وقيل : معنى الآية ، معنى قوله تعالى[3] (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ) .

---

(١) [٢٥/ الفرقان/ ٢] . (٢) [٨٧/ الأعلى/ ١ـ٣] . (٣) [١٦/ النحل/ ٧٧].

obeikandi.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ » أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة .

قال الشهاب : أصل معنى (الأشياع) جمع شيعة ، وهم من يتقوّى بهم المرء من الأتباع. ولما كانوا فى الغالب من جنس واحد ، أريد به ما ذكر ، إما باستعماله فى لازمه ، أو بطريق الاستعارة .

« فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ » أى متعظ بذلك ينزجر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ)

« وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ » أى الكتب التى أحصتها الحفظة عليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ)

« وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ » أى من الأعمال « مُّسْتَطَرٌ » أى مسطور لا يمحى ولا ينسى ، كما قال تعالى(١) (وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ، وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) وقوله سبحانه(٢) (وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) .

وروى الإمام أحمد(٣) عن عائشة رضى الله عنها ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول :

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] .   (٢) [١٧ / الإسراء / ١٣و١٤] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٧٠ من الجزء السادس (طبعة الحلبى) .

يا عائشة ! إيَّاكِ ومحقَّرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً .

قال ابن كثير : ورواه النسائيّ وابن ماجة من طريق سعيد بن مسلم بن ماهك المدنيّ ، وثّقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم هذا ، من وجه آخر . ثم قال سعيد : فحدَّثت بهـذا الحديث عامر بن هشام فقال لي: ويحك ياسعيد ! لقد حدَّثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره ، فأتاه آتٍ في منامه ، فقال له : يا سليمان !

لاتحقِرَنَّ من الذُّنوبِ صَغيرَا ... إنَّ الصغيرَ غَـدًا يعودُ كَبيرَا

إنَّ الصغيرَ ، وَلَوْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ، ... عنـد الإله مُسَطَّرٌ تسطيرَا

فازجُرْ هواكَ عَنِ البِطالَةِ ، لاتـكن ... صعبَ القِيادِ وشَمِّرَنْ تَشْمِيرَا

إنَّ المُحِبَّ إذا أحَبَّ إلٰهَهُ ... طارَ الفؤادُ وأُلْهِمَ التفـكيرَا

فاسْأَل هِدايتك الإله ، فَتَتَّئِدْ ... فَـكَفَىٰ بِرَبِّـكَ هَادِياً وَنَصيرَا

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ)

[٥٥] (فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ)

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ » أي الذين اتقوا عقاب الله بطاعته، وأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، « فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ » أي أنهـار . واكتفى باسم الجنس المفرد لرعاية الفواصل . وقرئ بسكون الهاء ، وضم النون ، وقرئ بضمهما . « فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ » قال ابن جرير[1] : أي في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم .

وقال الزمخشريّ : في مكان مرضيّ . قال شرّاحه : فالصدق مجـاز مرسل في لازمه ،

(١) انظر الصفحة رقم ١١٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

أو استعارة . وقيل : المراد صدق المبشِّر به ، وهو الله ورسوله . أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسل ، فالإضافة لأدنى ملابسة .

« عِندَ مَلِيكٍ » بمعنى ملك . قال الشهاب : وليس إشباعاً ، بل هي صيغة مبالغة كالمقتدر « مُّقْتَدِرٍ » قال القاشانيّ : أي يقدر على تصريف جميع ما في ملكه على حكم مشيئته ، وتسخيره على مقتضى إرادته لا يمتنع عليه شيء .

وقال الشهاب : في تنكير الاسمين الكريمين إشارة إلى أن ملكه وقدرته لا تدرى الأفهام كنههما ، وأن قربهم منه بمنزلة من السعادة والكرامة ، بحيث لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، مما يجل عن البيان ، وتكلّ دُونه الأذهان .

بسم الله الرحمن الرحيم

٥٥ — سورة الرحمن

قال المهايمي : سميت به لأنها مملوءة بذكر الآلاء الجليلة ، وهي راجعة إلى هذا الاسم .

وهي مكية ، على قول ابن عباس . وآيها ثمان وسبعون .

وقد روى الإمام أحمد أن أول مفصل ابن مسعود ، كان الرحمن .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى:

[١] ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾

[٢] ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾

« ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ » أي بصّر به ما فيه رضاه، وما فيه سَخطه، برحمته ليطاع باتباع ما يرضيه ، وعمل ما أمر به ، وباجتناب ما نهى عنه، وأوعد عليه، فينال جزيل ثوابه، وينجى من أليم عقابه .

قال القاضي : لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية ، صدّرها بـ (الرحمٰن) وقدم ماهو أصل النعم الدينية وأجلّها ، وهو إنعامه بالقرآن ، وتنزيله وتعليمه، فإنه أساس الدين ، ومنشأ الشرع ، وأعظم الوحي ، وأعز الكتب ، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها ، مصدق لنفسه ، ومصداق لها .

ثم أتبعه بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٣] ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾

[٤] ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾

« خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ » إيماء بأن خلق البشر ، وما تميز به عن سائر الحيوان من البيان ـ وهو التعبير عما في الضمير ، وإفهام الغير ـ لما أدركه لتلقي الوحي ، وتعرف الحق ، وتعلم الشرع . أي فإذا كان خلقهم إنما هو في الحقيقة لذلك ، اقتضى اتصاله بالقرآن ، وتنزيله الذي هو منبعه ، وأساس بنيانه .

قال الزمخشريّ : وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ؟ وهذا ـ كما قال الشهاب ـ مصحح . والمرجح الإشارة إلى أن كلًّا منها نعمة مستقلة تقتضى الشكر . ففيه إيماء إلى تقصيرهم فى أدائه . ولو عطفت مع شدة اتصالها وتناسبها ، ربما توهم أنها كلها نعمة واحدة .

وقال الأصفهانىّ فى (الذريعة) : لما كان للنطق أشرف ماخص به الإنسان ، فإن صورته المعقولة التى بها باين سائر الحيوان . قال عز وجل (خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ . عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ) ولم يقل (وعلمه) إذ جعل قوله (عَلَّمَهُ) تفسيراً لقوله (خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ) تنبيهاً أن خلقه إياه هو تخصيصه بالبيان الذى لو توهم مرتفعاً لكانت الإنسانية مرتفعة ، ولذلك قيل : ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة . وقيل : المرء مخبوء تحت لسانه .

قال الشاعر[1] :

لسان الفتى نصفٌ ، ونصفٌ فؤادُهُ　　فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدّمِ

أى إذا توهم ارتفاع النطق الذى هو باللسان ، والقوة الناطقة التى هى بالفؤاد ، لم يبق إلاصورة اللحم والدم . فإذا كان الإنسان هو اللسان فلا شك أن من كان أكثر منه حظًّا كان أكثر منه إنسانية . والصمت من حيث ما هو صمت مذموم ؛ فذلك من صفات الجمادات ، فضلًا عن الحيوانات . وقد جعل الله تعالى بعض الحيوانات بلا صوت ، وجعل لبعضها صوتاً بلا تركيب . ومن مدح الصمت ، فاعتباراً بمن يسىء فى الكلام ، فيقع منه جنايات عظيمة فى أمور الدين والدنيا . فإذا ما اعتبرا بأنفسهما ، فمحال أن يقال فى الصمت فضل ، فضلًا أن يخاير بينه وبين النطق . وسئل حكيم عن فضلهما فقال : الصمت أفضل حتى يحتاج إلى النطق

---

(١) هو زهير بن أبى سُلْمى ، من معلقته التى مطلعها :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لمْ تَكَلَّمِ　　بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

وسئل آخر عن فضلهما فقال : الصمت عن الخنا ، أفضل من الكلام بالخطا . وعنه أخذ الشاعر :

الصَّمْتُ أَلْيَقُ بالفَتَى ... من منطقٍ فى غَيْرِ حِينِهْ

انتهى . وقد جوّز ـ كما حكاه الشهاب ـ أن يكون (ٱلرَّحْمَٰنُ) خبر محذوف ، أى الله الرحمن ، وما بعده مستأنف لتعديد نعمه . ثم قال : و (عَلَّمَ) من التعليم ، ومفعوله مقدر . أى علّم الإنسان ، لا جبريل أو محمداً عليهما الصلاة والسلام . وليس (من العلامة من غير تقدير) كما قيل . أى جعله علامة وآية لمن اعتبر ـ لبُعْدِهِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ)

[٦] (وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)

[٧] (وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ)

« ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » أى يجريان بحساب معلوم مقدّر فى بروجهما ومنازلهما، به تتسق أمور الكائنات السفلية ، وتختلف الفصول والأوقات ، ويعلم السنون والحساب . « وَٱلنَّجْمُ » أى النبات الذى ينجم ، أى يطلع من الأرض ولا ساق له . « وَٱلشَّجَرُ » أى الذى له ساق « يَسْجُدَانِ » أى ينقادان لله فيما يريد بهما طبعاً، انقياد الساجد من المكلّفين طوعاً . فهو استعارة مصرّحة تبعيّة. شبّه جريهما على مقتضى طبيعته، بانقياد الساجد لخالقه والجملة ـ إن كانت خبراً عن الرحمن لعطفها على الخبر ـ فالرابط محذوف لوضوحه ، أى بحسبانه ويسجدان له . أو مستأنفة ، فالقطع لأنها مسوقة لغرض آخر . وإدخال العاطف بينهما ، لما أن الشمس والقمر سماويّان ، والنجم والشجر أرضيّان ، فبينهما مناسبة بالتقابل ، وبانقياد الكل لإرادته . « وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا » أى خلقها مرفوعة . « وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ » أى العدل بين خلقه فى الأرض .

قال القاشانيّ : أى خفض ميزان العدل إلى أرض النفس والبدن ، فإن العدالة هيئة نفسانية ، لولاها لما حصلت الفضيلة الإنسانية . ومنه الاعتدال فى البدن الذى لو لم يكن ، لما وجد ، ولم يبق . ولمّا استقام أمر الدين والدنيا بالعدل ، واستتبّ كمال النفس والبدن به ، بحيث لولاه لفسد ـ أمر بمراعاته ومحافظته قبل تعديد الأصول بتمامها ، لشدّة العناية به ، وفرط الاهتمام بأمره . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ)

[٩] (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ)

« أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ » أى بالإفراط عن حدّ الفضيلة والاعتدال ، فيلزم الجور الموجب للفساد . و (أَنْ) مصدرية على تقدير الجارّ . أى لئلا تطغوا فيه ، أو مفسرة لما فى وضع الميزان من معنى القول ، لأنه بالوحى ، وإعلام الرسل . « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » أى بالاستقامة فى الطريقة ، وملازمة حدّ الفضيلة ، ونقطة الاعتدال فى جميع الأمور ، وكل القوى . « وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ » قال القاشانيّ : أى بالتفريط عن حدّ الفضيلة .

قال بعض الحكماء : العدل ميزان الله تعالى ، وضعه للخلق ، ونصبه للحق . انتهى .

وممن فسّر (الْمِيزانَ) فى الآية بالعدل ، مجاهد ، وتبعه ابن جرير ، وكذا ابن كثير ، ونظر لذلك بآية[1] (لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) . وجوّز أن يراد بالميزان ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوها . ومنه قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فيه وجوب العدل فى الوزن ، وتحريم البخس فيه . وعليه ، فوجه اتصال قوله (وَوَضَعَ الْمِيزانَ) بما قبله ، هو أنه لما وصف السماء

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥]

بالرفعة التي هي مصدر القضايا والأقدار ، أراد وصف الأرض بما فيها ، مما يظهر به التفاوت ، ويعرف به المقدار ، ويسوّى به الحقوق والمواجب ـ كذا ارتآه القاضي ـ والله أعلم .

وفي الحقيقة ، الثاني من أفراد الأول ، وأخذ اللفظ عامًّا أولى وأفيد .

ومن اللطائف التي يتسع لها نظم الآية الكريمة قول الرازيّ : (ٱلْمِيزَانَ) ذكر ثلاث مرات ، كل مرة بمعنى . فالأول : هو الآلة . والثاني : بمعنى المصدر . والثالث : للمفعول . قال : وهو كالقرآن ، ذكر بمعنى المصدر في قوله تعالى[1] (فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ) ؛ وبمعنى المقروء في قوله[2] (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ) ؛ وبمعنى الكتاب الذي فيه المقروء في قوله تعالى[3] (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ) ، فكأنه آلة ومحل له ؛ وفي قوله تعالى[4] (ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ) . ثم قال : وبين القرآن والميزان مناسبة ، فإن القرآن فيه من العلم ما لا يوجد في غيره من الكتب . والميزان فيه من العدل ما لا يوجد في غيره من الآلات . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ)

[١١] (فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ)

[١٢] (وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ)

[١٣] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » أي مهدها للخلق « فِيهَا فَٰكِهَةٌ » أي صنوف مما يتفكّه به « وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ » أي أوعية الطلع ، وهو الذي يطلع فيه العنقود ،

---

(١) [٧٥ / القيامة / ١٨] . (٢) [٧٥ / القيامة ١٧] .

(٣) [١٣ / الرعد / ٣١] . (٤) [١٥ / الحجر / ٨٧] .

ثم ينشقّ عن العقود فيكون بُسراً ، ثم رطبا . ثم ينضج ويتناهى نفعه واستواؤه . وإنما أفردها بالذكر ، لما فيها من الفوائد العظيمة، على ماعرف من اتخاذ الظروف منها، والانتفاع بجمّارها وبالطلع والبسر والرطب وغيرذلك . فثمرتها فى أوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة، فهى أتم نعمة بالنسبة إلى غيرها من الأشجار ، فلذا ذكر النخل باسمه ، وذكر الفاكهة دون أشجارها ، فإن فوائد أشجارها فى عين ثمارها . « وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ » أى وفيها الحَبّ . وهو حَبّ البرّ والشعير ونحوهما (ذُوٱلْعَصْفِ) أى الورق اليابس كالتبن . « وَٱلرَّيْحَانُ » أىالورق الأخضر . تذكير بالنعمةبه وبورقه فى حالتيه . هذا على (قراءة) (الريحانِ) بالجرّ . وقرئ بالرفع ، وهو الزرع الأخضر مطلقاً ، سمى به تشبيهاً له بما فيه الروح ، لأن حياته النباتية فى نضرة خضرته .

قال ابن عباس : الريحان خضر الزرع .

وقال القرطبيّ : الريحان ، إمافيعلان، من (روح) ،فقلبت الواو ياء، وأدغم ثم خفف، أو فعلان ، قلبت واوه ياء للتخفيف ، أو للفرق بينه وبين الروحان ، وهو ماله روح . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال أبو السعود : الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى (١) (لِلْأَنَامِ) ، وسينطق به قوله تعالى(٢) (أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ) . والفاء لترتيب الإنكار، والتوبيخ على ما فصل من فنون النعماء ، وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان والشكر حتما . والتعرُّض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ . ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى ، كفرهم بها، إما بإنكار كونه نعمة فى نفسه ، كتعليم القرآن ، وما يستند إليه من النعم الدينية ، وإما بإنكار كونه من الله تعالى ، مع الاعتراف بكونه نعمة فى نفسه ، كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالا ، أو اشتراكاً صريحاً، أو دلالة، فإن إشراكهم لآلهتهم به تعالى فى العبادة

(١) [٥٥ / الرحمن / ١٠] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٣١] .

من دواعى إشراكهم لها به تعالى فيما يوجبها . والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب، لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر، شهادة منها بذلك. فكفرهم تكذيب بها لامحالة . أى فإذا كان الأمر كما فصل ، فبأى فرد من أفراد آلاء مالككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان ، مع أن كلًّا منها ناطق بالحق ، شاهد بالصدق . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ)

[١٥] (وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ)

[١٦] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ » قال أبو السعود: تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلقة بذاتى كل واحد من الثقلين . و (الصلصال) الطين اليابس الذى له صلصلة . و (الفخار) الخزف . وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام من تراب جعله طيناً ، ثم حمأً مسنوناً ، ثم صلصالاً . فلا تنافى بين الآية الناطقة بأحدها ، وبين ما نطق به بأحد الآخرين. « وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ » أى الجن، أو أبا الجن، « مِن مَّارِجٍ » أى لهب صاف « مِّن نَّارٍ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما أفاض عليكما فى تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم . ومما أظهره لكما بالقرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ)

[١٨] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ » أى مشرقى الشتاء والصيف ومغربيهما. أو مشرق الشمس والقمر ومغربيهما « فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى مما فيهما من النعم

obeikandi.com

والفوائد التى لا تحصى ، كاختلاف الفصول ، وحدوث ماينأسب كل فصل فيه من الخيرات والبركات التى بها قوام العالم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ)

[٢٠] (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ)

[٢١] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ » أى أرسلهما ، من (مَرَجَ فلان دابته) إذا خلّاها وتركها . والمعنى : أرسل وأجرى البحر الملح ، والبحر العذب « يَلْتَقِيَانِ » أى يتجاوران « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ » أى حاجز من قدرة الله تعالى وبديع صنعه « لَّا يَبْغِيَانِ » أى لا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة، وإبطال الخاصية .

قال الشهاب : يعنى أنهما إذا دخل أحدهما فى الآخر، قد يجرى فيه فراسخ، ولا يتلاشى ويضمحل ، حتى يغير أحدهما طعم الآخر ولونه ، كما نشاهده .

وقيل : المراد بحرى فارس والروم ، فإنهما يلتقيان فى البحر المحيط ، وبينهما برزخ من الأرض ، لا يتجاوزان حديهما بإغراق مابينهما ـ وهو مروى عن قتادة والحسن ـ قال الشهاب : لكنه أورد عليه أنه لا يوافق قوله تعالى (مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ...) الآية[١] . والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

واختار ابن جرير[٢] ماروى عن ابن عباس وغيره؛ أنه عنى به بحر السماء وبحر الأرض. وذلك أن الله قال[٣] (يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ) واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أصداف بحر الأرض عن قطر ماء السماء . فمعلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء . انتهى.

(١) [٢٥ / الفرقان / ٥٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٣) [٥٥ / الرحمن / ٢٢] .

وفيه ما في الذي قبله من عدم موافقته لتلك الآية . والأصل في الآي التشابه . زاد ابن كثير : أن ما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً ، وحجراً محجوراً . فالأولى هو الأول . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي مما في البحرين وخلقهما من الفوائد ، وقد أشار إلى بعضها بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ)

[٢٣] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ » أي كبار الدر وصغاره . أو (المرجان) الخرز الأحمر المعروف . وإنما قيل (مِنْهُمَا) مع أنه يخرج من أحدهما ، وهو الملح ، لأنه لامتزاجهما يكون خارجاً منهما حقيقة ، أو أنه نسب لهما ما هو لأحدهما ، كما يسند إلى الجماعة ما صدر من واحد منهم . قال الناصر : وهذا هو الصواب . ومثله[١] (لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) وإنما أريد إحدى القريتين . وكما يقال : هو من أهل مصر ، وإنما هو من محلة منها . انتهى .

قال الشهاب : ولا يخفى أن هذا ، وإن اشتهر ، خلاف الظاهر . فإما أن يكون ضمير (مِنْهُمَا) لبحري فارس والروم ، أو يقال معنى خروجه منهما ليس أنه متكون فيهما ، بل أنهما يحصلان في جانب من البحار انصبت إليها المياه العذبة . انتهى . والخطب سهل .

ولما كان خروج هذين الصنفين نعمة على الناس ، لتحليهم بهما ، كما تشير له آية[٢] (وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) قال سبحانه « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » وقوله تعالى :

---

(١) [٤٣ / الزخرف / ٣١] . (٢) [٣٥ / فاطر / ١٢] .

obeikandi.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾

[٢٥] ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

« وَلَهُ ٱلْجَوَارِ » يعنى السفن ، جمع جارية « ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ » قرئ بكسر الشين ، بمعنى الظاهرات السير اللاتى تقبلن وتدبرن . وبفتحها بمعنى المرفوعات القلاع اللاتى تقبل بهن وتدبر . و (الأعلام) جمع علم ، وهو الجبل الطويل . ولما كانت من أعظم الأسباب للمتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، مما فيه صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، قال تعالى « فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى نعمه التى أنعم بها فى هذه الجوارى .

قال القاضى : أى من خلق موادها ، والإرشاد إلى أخذها ، وكيفية تركيبها وإجرائها فى البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾

[٢٧] ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾

[٢٨] ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » أى : مَن على ظهر الأرض هالك « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ » أى ذاته الكريمة « ذُو ٱلْجَلَـٰلِ » أى العظمة والعلوّ والكبرياء « وَٱلْإِكْرَامِ » أى التفضل العام ، وهذه الآية كآية[١] ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ .

---

(١) [٢٨ / القصص / ٨٨] .

ولما كان فناء الخلق سبباً لبعثهم للنشأة الأخرى التي يظهر بها الحق من المبطل، وينقلب الأول بالثواب ، ويبوء الآخر بالعقاب ، وذلك من أعظم النعم التي يشمل فيها العدل الإلهىٰ المكلفين ـ قال سبحانه « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

وقد أشار الرازىّ إلى ما فى قوله تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) من الفوائد ، بقوله : فيه فوائد :

منها ـ الحث على العبادة ، وصرف الزمان اليسير إلى الطاعة .

ومنها ـ المنع من الوثوق بما يكون للمرء . فلا يقول ـ إذا كان فى نعمة ـ إنها لن تذهب فيترك الرجوع إلى الله ، معتمداً على ماله وملكه .

ومنها ـ الأمر بالصبر إن كان فى ضر ، فلا يكفر بالله معتمداً على أن الأمر ذاهب ، والضر زائل .

ومنها ـ ترك اتخاذ الغير معبوداً، والزجر عن الاغترار بالقرب من الملوك ، وترك التقرب إلى الله تعالى . فإن أمرهم إلى الزوال قريب .

ومنها ـ حسن التوحيد، وترك الشرك الظاهر والخفىّ جميعاً، لأن الفانى لا يصلح لأن يعبد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يَسْأَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

[٣٠] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَسْأَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى يدعونه ويرغبون إليه ، ويرجون رحمته لفقرهم الذاتىّ ، وغناه المطلق . « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » أى كل وقت يحدث أموراً ، ويجدّد أحوالًا .

قال مجاهد : يعطى سائلًا ، ويفك عانياً ، ويجيب داعياً ، ويشفى سقيماً .

وروى ابن جرير[1] أن النبي ﷺ تلا هذه الآية . فقيل : يارسول الله ! وماذاك الشأن قال : يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين .

وقال القاشاني : المراد يسأله كلُّ شيء ، فغلب العقلاء ، وأتى بلفظ (مَنْ) أي كل شيء يسأله بلسان الاستعداد والافتقار دائماً (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) بإفاضة ما يناسب كل استعداد ويستحقه ، فله كل وقت في كل خلق شأن ، بإفاضة مايستحقه ويستأهله باستعداده . فمن استعدّ بالتصفية والتزكية للكمالات الخيرية والأنوار ، يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . ومن استعد بتكدير جوهر نفسه بالهيئات المظلمة والرذائل ، ولوث العقائد الفاسدة ، والخبائث ، للشرور والمكاره ، وأنواع الآلام والمصائب والعذاب والوبال : يفيضها عليه مع حصول الاستعداد . انتهى .

وقد أخذ الآية عامة من حيث السائلون خاصة بلسان الاستعداد وغيره ـ كابن كثير والقاضي ـ رآها خاصة بمن يعقل ، عامة بلسان الحال أو المقال . والأقرب هو مايتبادر بادئ بدء إلى الفهم ، وهو ما ذكرناه أولا « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي مما يسعف به سؤالكما ، ويخرج لكما من مخبأ قدره وخلقه آناً فآناً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ)

[٣٢] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ » قال القرطبي : يقال : فرغت من الشغل أفرغ فراغاً وفروغا. وتفرغت لكذا واستفرغت مجهودي في كذا أي بذلته. والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه. وإنما المعنى : سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم ، فهو وعيد لهم وتهديد، كقول القائل لمن يريد تهديده : إذاً أتفرغ لك ، أي أقصدك .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وقال الزجّاج : الفراغ فى اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من الشغل ، والآخر القصد للشيء والإقبال عليه ، كما هنا . وهو تهديد ووعيد . تقول : قد فرغت مما كنت فيه ، أى قد زال شغلى به . وتقول : سأفرغ لفلان ، أى سأجعله قصدى . فهو على سبيل التمثيل . شبه تدبيره تعالى أمر الآخرة ، من الأخذ فى الجزاء ، وإيصال الثواب والعقاب إلى المكلفين ، بعد تدبيره تعالى لأمر الدنيا بالأمر والنهى ، والإماتة والإحياء ، والمنع والإعطاء ، وأنه لا يشغله شأن عن شأن ـ بحال مَن إذا كان فى شغل يشغله عن شغل آخر ، إذا فرغ من ذلك الشغل ، شرع فى آخر . وجازت الاستعارة التصريحية أيضاً . وقد ألم به صاحب (المفتاح) حيث قال : الفراغ الخلاص عن المهام . والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، وقع مستعاراً للأخذ فى الجزاء وحده .

لطيفة :

ترسم (أَيُّهَ) بغير ألف . وأما فى النطق فقرأ أبو عمرو والكسائىّ (أيها) بالألف فى الوقف ، ووقف الباقون على الرسم (أيه) بتسكين الهاء ، وفى الوصل قرأ ابن عامر (أيهُ) برفع الهاء ، والباقون بنصبها .

و (الثقلان) تثنية (ثَقَل) بفتحتين ، فَعَل بمعنى مفعل ، لأنهما أثقلا الأرض ، أو بمعنى مفعول ، لأنهما أثقلا بالتكاليف . وقال الحسن : لثقلهما بالذنوب .

والخطاب فى (لكم) قيل للمجرمين ، لكن يأباه قوله (أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ) نعم ! المقصود بالتهديد هم . ولا مانع من تهديد الجميع ـ كما أفاده الشهاب ـ ولا يفهم من هذا أن اللفظ الكريم وعيد بحت ، بل هو حامل للوعد أيضاً ، لأن المعنى : سنفرغ لحسابكم ، فنثيب أهل الطاعة ، ونعاقب العصاة ، وهو جلىّ . ولذا اعتد ذلك نعمة عليهم بقوله « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من ثوابه أهلَ طاعته ، وعقابه أهلَ معصيته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ)

[٣٤] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم ، أى بخروجكم عن قهره ومحل سلطانه ومملكته حتى لا يقدر عليكم « فَٱنفُذُوا۟ » أى فجوزوا واخرجوا (لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ) أى بقوة وقهر وغلبة ، وأنّى لكم ذلك ؟ ونحوه[١] (وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ) ويقال : معنى الآية : إن استطعتم أن تعلموا ما فى السموات والأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان ، يعنى : البينة من الله تعالى . والأول أظهر ، لأنه لما ذكر فى الآية الأولى أنه لا محالة مُجاز للعباد ، عقبه بقوله (إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ . . .) الخ ، لبيان أنهم لا يقدرون على الخلاص من جزائه وعقابه ، إذا أراده . « فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير[٢] : أى من التسوية بين جميعكم ، بأن جميعكم لا يقدرون على خلاف أمر أراده بكم .

وقال القاضى : أى من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ)

[٣٦] (فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ » أى من لهب « مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ » أى صُفر مذاب يصبّ

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٢] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

obeikandi.com

على رؤوسهم « فَلَا تَنتَصِرَانِ » أى تمتنعان وتنقذان منه . يعنى : إذا أصررتما على الكفر والطغيان وعصيان الرسول ، فما أمامكم فى الآخرة إلا هذا العذاب الأليم .

وقد ذهب ابن كثير إلى أن هذه الآية وما قبلها ، مما يخاطب به الكفرة فى الآخرة ، وعبارته :

هذا فى مقام الحشر ، والملائكة محدقة بالخلائق ، فلا يقدر أحد على الذهاب إلا بسلطان ، أى بأمر الله[1] (يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ) وقال تعالى[2] (وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ، أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) ولهذا قال تعالى (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ) والمعنى لو ذهبتم هاربين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا . انتهى .

ثم رأيت قد سبقه إلى ذلك ، الإمامُ ابن القيّم رحمه الله ، فقد قال رحمه الله فى أواخر كتابه (طريق الهجرتين) فى تفسير هذه الآية ، بعد أن ذكر نحو ما قدمنا من الوجهين فى تأويل قوله تعالى (إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟) ما مثاله :

وفى الآية تقرير آخر ، وهو أن يكون هذا الخطاب فى الآخرة ، إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض ، وأحاط سرادق النار بالآفاق ، فهرب الخلائق ، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً ، كما قال تعالى[3] (وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ) قال مجاهد : فارّين غير معجزين . وقال الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندّوا هرباً ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المكان الذى كانوا فيه ، فذلك

(١) [٧٥ / القيامة / ١٠ـ١٢] . (٢) [١٠ / يونس / ٢٧] .

(٣) [٤٠ / غافر / ٣٢و٣٣] .

قوله[(١)] (وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا) وقوله[(٢)] (يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ..) الآية. وهذا القول أظهر ـ والله أعلم ـ فإذا بدهه الخلائق ولوا مدبرين ، يقال لهم : (إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) أى إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لايقدر على عذابكم ، فافعلوا. وكأن ماقبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول ، فإن قبلها (سَنَفْرُغُ لَكُمْ ...) الآية ، وهذا فى الآخرة ، وبعدها[(٣)] (فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ...) الآية، وهذا فى الآخرة. وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس. والجن فإنه أتى فيه بصيغة العموم ، وهى قوله (يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ) فلابد أن يشترك الكل فى سماع هذا الخطاب ومضمونه ، وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر . وقال تعالى (إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ) ولم يقل: إن استطعتما، لإرادة الجماعة، كما فى آية أخرى[(٤)] (يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ) وقال[(٥)] (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا) ولم يقل : يرسل عليكم ، لإرادة الصنفين، أى لا يختص به صنف عن صنف، بل يرسل ذلك على الصنفين معاً . وهذا ، وإن كان مراداً بقوله[(٦)] (إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ) فخطاب الجماعة فى ذلك بلفظ الجمع أحسن . أى من استطاع منكم . وحسّن الخطاب بالتثنية فى قوله (عَلَيْكُمَا) أمر آخر ، وهو موافقة رؤوس الآى ، فاتصلت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين فى العذاب بالتنصيص عليهما ، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما ـ والله أعلم ـ انتهى كلام ابن القيّم .

وأنت ترى أن لاقرينة تخصص الآية بالقيامة ، وما استشهد به من الآيات لايؤيده، لأنه ليس من نظائره . فالوجه ماذكرناه .

---

(١) [٦٩ / الحاقة / ١٧] .
(٢) [٥٥ / الرحمن / ٣٣].
(٣) [٥٥ / الرحمن / ٣٧].
(٤) [٦ / الأنعام / ١٣٠].
(٥) [٥٥ / الرحمن / ٣٥].
(٦) [٥٥ / الرحمن / ٣٣].

« فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال القاضي : فإن التهديد لطف ، والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار ، من عداد الآلاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)

[٣٨] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ » أي انفطرت فاختل نظامها العلويّ « فَكَانَتْ وَرْدَةً » أي كلون الورد الأحمر « كَالدِّهَانِ » أي كالدهن الذي هو الزيت ، كما قال[١] (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ) وهو درديّ الزيت ، يعني في لونه الكدر وذوبانه ، لصيرورتها إلى الفناء والزوال . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي مما يحله بكم بعد ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ)

[٤٠] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ » أي لا يفتح له باب المعذرة ، كقوله[٢] (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فنفي السؤال مجاز عن نفي سماع الاعتذار . فهو من باب نفي السبب لانتفاء المسبب . وأخذ كثيرٌ السؤالَ على حقيقته ، وحاولوا الجمع بينه وبين ما قد ينافيه .

قال القاشاني : وأما الوقف والسؤال المشار إليه في قوله[٣] (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ) ونظائره ، ففي مواطن أخر من اليوم الطويل الذي كان مقداره خمسين ألف سنة ، وقد يكون هذا الموطن قبل الموطن الأول في ذلك اليوم ، وقد يكون بعده .

(١) [٧٠/ المعارج/ ٨] . (٢) [٧٧/ المرسلات/ ٣٦] . (٣) [٣٧/ الصافات/ ٢٤] .

وكذا قال ابن كثير : إن هذه الآية كقوله[1] تعالى ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ فهذا فى حال . وثمّ حال يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم ، قال تعالى[2] ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وفى الآية تأويل آخر . قال مجاهد : لا يسأل الملائكة عن المجرم ، يعرفون بسيماهم .

وقال الإمام ابن القيّم فى (طريق الهجرتين) اختلف فى هـذا السؤال المنفىّ ، فقيل : هو وقت البعث والمصير إلى الموقف ، لا يسألون حينئذ ، ويسألون بعـد إطالة الوقوف ، واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ، ويريحهم من مقامهم ذلك . وقيل المنفىّ سؤال الاستعلام والاستخبار ، لا سؤال المحاسبة والمجازاة . أى قد علم الله ذنوبهم ، فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها ، وإنما يحاسبهم عليها . انتهى .

« فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير[3] : أى من عدله فيكم أنه لم يعاقب منكم إلا مجرماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾

[٤٢] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

[٤٣] ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾

[٤٤] ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾

[٤٥] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

« يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ » أى بما يعلوهم من الكآبة والحزن والذلة . وقيل :

(١) [٧٧ / المرسلات / ٣٥و٣٦] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩٢و٩٣] .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

obeikandl.com

بسواد الوجوه ، وزرقة العيون « فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ » أى فتأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم، فتسحبهم إلى جهنم ، وتقذفهم فيها . والباء للآلة ، كأخذت بالخطام، أو للتعدية . و (الناصية) مقدم الرأس . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » قال ابن جرير[1] : أى من تعريفه ملائكته ، أهلَ الإجرام من أهل الطاعة منكم ، حتى خصوا بالإذلال والإهانة ، المجرمين دون غيرهم « هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ » أى ماء حار « ءَانٍ » أى انتهى حره ، واشتد غليانه . وكل شيء قد أدرك وبلغ فقد أنَىٰ . ومنه قوله[2] (غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ) يعنى إدراكه وبلوغه « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى من عقوبته أهل الكفر به ، وتكريمه أهل الإيمان به .

ثم تأثر ما عدد عليهم من الآلاء الدينية ، والدنيوية بتعداد ما أفاض عليهم فى الآخرة، بقوله:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ)

[٤٧] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٤٨] (ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ)

[٤٩] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٥٠] (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ)

[٥١] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٥٢] (فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ)

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [٣٣ / الأحزاب / ٥٣] .

[٥٣] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[٥٤] (مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ)
[٥٥] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[٥٦] (فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ)
[٥٧] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)
[٥٨] (كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ)
[٥٩] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

« وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ » أى قيامه عند ربه للحساب ، فأطاعه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه . فإضافته للرب لأنه عنده ، فهو كقول العرب : ناقة رقود الحلب ، أى رقود عند الحلب. أو موقفه الذى يقف فيه العباد للحساب، فإضافته للرب لامية لاختصاص الملك يومئذ به تعالى . أو هو كناية عن خوف الرب ، وإثبات خوفه له بطريق برهانىّ بليغ، لأن من حصل له الخوف من مكان أحد ، يهابه وإن لم يكن فيه ، فخوفه منه بالطريق الأولى . وهذا كما يقول المترسلون : المقام العالى ، والمجلس السامى « جَنَّتَانِ » أى جنة لمن أطاع من الإنس ، وجنة لمن أطاع من الجن . أو هو كناية عن مضاعفة الثواب ، وإيثار التثنية للفاصلة « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أى بإثابته المحسن ما وصف « ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ » أى أنواع من الأشجار والثمار . جمع (فن) بمعنى النوع ، أو أغصان لينة ، جمع (فَنَن) وهو ما دقّ ولان من الغصن « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وهو ما غلظ من الديباج. نبه على شرف الظهارة ، بشرف البطانة ، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى .

قال ابن مسعود : هذه البطائن ، فكيف لو رأيتم الظواهر ؟!

« وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ » أى وثمرها المجنىّ دانى القطوف « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ » أى منكسرات الجفن ، خافضات النظر ، غير متطلعات لما بعد ، ولا ناظرات لغير زوجها . أو معناه : إن طرف النظر لايتجاوزها ، كقول المتنبّي :

وخصرٍ تثبتُ الأبصارُ فيهِ كأنَّ عليه من حَدَقٍ نِطَاقَا

فالمراد: قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز لغيرهن. أو المعنى: شديدات بياض الطرف، كما يقال : أحور الطرف وحوراؤه ، من قولهم : ثوب مقصور وحوّارى .

وجلىّ أن المعانى ههنا لاتتزاحم لتحقق مصداقها كلها . « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ » أى لم يمسهن . وأصله خروج الدم، ولذلك يقال للحيض (طمث) ثم أطلق على جماع الأبكار ، لما فيه من خروج الدم . ثم عمّ كل جماع . وقد يقال: إن التعبير به للإشارة إلى أنها توجد بكراً كلما جومعت . ويستدل بالآية على أن الجن يطمث ويدخلن الجنة . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ » أى فى الحسن والبهجة، أوفى حمرة الوجنة والوجه ، أدبا وحياء « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ)

[٦١] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٢] (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ)

[٦٣] (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

[٦٤] (مُدْهَآمَّتَانِ)

[٦٥] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

[٦٦] ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾

[٦٧] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

[٦٨] ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾

[٦٩] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

[٧٠] ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾

[٧١] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

[٧٢] ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾

[٧٣] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

[٧٤] ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾

[٧٥] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

[٧٦] ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾

[٧٧] ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

[٧٨] ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾

« هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ » أى فى العمل « إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ » أى فى الثواب ، وهو الجنة « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهِمَا » أى دون تينك الجنتين المنوه بهما « جَنَّتَانِ » أى بستانان آخران . إشارة إلى وفرة الجنان واتصالها وسعة امتداد الطرف فى مناظرها « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ » أى خضراوان من الرى ،

تضربان إلى السواد من شدة الخضرة . أو من كثرة أشجارها الممتدة لا إلى نهاية (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » أي فوّارتان بالماء « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » وإنما أفردهما بالذكر بياناً لفضلهما، كأنهما، لما لهما من المزية ، جنسان آخران « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ » جمع (خيّرة) بالتشديد، إلا أنه خفف . وقد قرئ على الأصل. أي فاضلات الأخلاق. وإيثار ضمير المؤنث على التثنية مراعاة للفظ المسند إليه بعده « حِسَانٌ » أي حسان الوجوه « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ » الحور : جمع (حوراء) وهي البيضاء النقية . ومعنى (مَّقْصُورَٰتٌ) قصرن أنفسهنّ على منازلهنّ ، لا يهمهنّ إلا زينتهنّ ولهوهنّ . وفيه المعاني المتقدمة أيضاً . و (ٱلْخِيَامِ) قال ابن جرير[1] : يعني بها البيوت . وقد يسمّي العرب هوادج النساء خياماً ، ثم أنشد له . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ » يعني بهن حور الجنتين اللتين من دون الأوليين . أو تكرير لما سبق ، للتنويه بهذا الوصف ، وكونه في مقدمة المشتهيات ، وطليعة الملذات : « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ » أي سرر أو مساند أو وسائد « خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ » أي طنافس وبُسُط « حِسَانٍ » أي جياد . والصفة كاشفة ، ولذا قال ابن جبير : (العبقريّ) عتاق الزرابيّ ، أي جيادها . « فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي من إكرامه أهل طاعته منكما هذا الإكرام . « تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ » أي ذي العظمة والكبرياء ، والتفضل بالآلاء و (الاسم) هنا كناية عن الذات العليّة ، لأنه كثر اقتران الفعل المذكور معها ، كآية[2] (تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا) ، وآية (تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ) ونحوهما . وسر إيثار الاسم

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٦٠ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبيّ الثانية) .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٦١] . (٣) [٦٧ / الملك / ١] .

التنبيه على أنه لا يُعرف منه تعالى إلا أسماؤه الحسنى ، لاستحالة اكتناه الذات المقدسة . فما عرف اللهَ إلا اللهُ . هذا هو التحقيق .

وقيل : لفظ (اسم) مقحم ، كقوله[1] :

* إلى الحولِ ، ثم اسمُ السلام عليكُما *

وذهب ابن حزم إلى بقاء الاسم على حقيقته . وردّ من استدلّ بأن الاسم هو المسمى بما مثاله :

لا حجة فيما احتجوا به . أما قول الله عز وجل (تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ) فحقّ . ومعنى (تَبَٰرَكَ) تفاعل من البركة ، والبركة واجبة لاسم الله عز وجل الذى هو كلمة مؤلّفة من حروف الهجاء . ونحن نتبرّك بالذكر له وبتعظيمه ونجلّه ونكرّمه ، فله التبارك وله الإجلال منا ومن الله تعالى ، وله الإكرام من الله تعالى ومنا ، حيثما كان من قرطاس ، أو فى شىء منقوش فيه ، أو مذكور بالألسنة . ومَنْ لم يجلّ اسم الله عز وجل

---

(١) وعجزه: * ومَنْ يَبْكِ حَوْلاً كامِلاً فقدِ اعْتَذَرْ *

وقائله لبيد بن ربيعة .

والشعر يقوله لبنتيه ، إذ قال :

تمنّى ابنتاىَ أنْ يعيشَ أبوهما وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضَرْ

ثم أمرهما بأمره ، فقال قبل بيت الشاهد :

فقوما فقولَا بالذى قد علمتما ولا تَخْمِشاَ وَجْهاً ولا تَحْلِقاَ شَعَرْ

وقولا : هو المرء الذى لا خليلَهُ أضاعَ، ولا خان الصديقَ ، ولا غَدَرْ

فقوله (إلى الحول) أى افعلا ذلك إلى أن يحول الحول. والحول: السنة كاملة بأسرها .

وقوله(اعتذر) هنا بمعنى أعذر . أى بلغ أقصى الغاية فى العذر .

(تفسير الطبرىّ ، طبعة المعارف ، ج ١ ص ١١٩) (فى الحاشية) .

كذلك ولا أكرمه ، فهو كافر بلا شك . فالآية على ظاهرها دون تأويل ، فبطل تعلقهم بها. انتهى كلامه رحمه الله .

فائدة

فيما قاله الأئمة فى سر تكرير (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (١) .

قال السيوطى فى (الإتقان) فى بحث التكرير :

قد يكون التكرير غيرَ تأكيد صناعة ، وإن كان مفيداً للتأكيد معنى . ومنه ما وقع فيه الفصل بين المكررين ، فإن التأكيد لا يفصل بينه وبين مؤكده .

ثم قال : وجعل منه قوله (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فإنها ، وإن تكررت نيفاً وثلاثين مرة ، فكل واحدة تتعلق بما قبلها ، ولذلك زادت على ثلاثة ، ولو كان الجميع عائدا إلى شىء واحد لما زاد على ثلاثة ، لأن التأكيد لا يزيد عليها ـ قاله ابن عبد السلام وغيره ـ انتهى .

وفى (عروس الأفراح) : فإن قلت : إذا كان المراد بكل ما قبله فليس ذلك بإطناب ، بل هى ألفاظ كلٌ أريد به غير ما أريد به الآخر .

قلت : إذا قلنا : العبرة بعموم اللفظ ، فكل واحد أريد به ماأريد بالآخر، ولكن كرر ليكون نصًّا فيما يليه ، ظاهراً فى غيره .

فإن قلت : يلزم التأكيد ؟

قلت : والأمر كذلك ، ولا يرد عليه أن التأكيد لا يزاد به عن ثلاثة ، لأن ذاك فى التأكيد الذى هو تابع . أما ذكر الشىء فى مقامات متعددة أكثر من ثلاثة ، فلا يمتنع. انتهى .

وقال العز بن عبد السلام فى آخر كتابه (الإشارة إلى الإيجاز) وأما قوله (فَبِأَيِّ

---

(١) راجع الجزء الأول صفحة ٢٥٧ من هذا الكتاب .

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فيجوز أن تكون مكررة على جميع أنعمه ، ويجوز أن يراد بكل واحدة منهن ما وقع بينها وبين التى قبلها من نعمة ويجوز أن يراد بالأولى ما تقدمها من النعم ، وبالثانية ما تقدمها ، وبالثالثة ماتقدم على الأولى والثانية وبالرابعة ماتقدم على الأولى والثانية والثالثة ، وهكذا إلى آخر السورة .

فإن قيل : كيف يكون قوله (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ) نعمة ، وقوله (يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ) نعمة، وكذلك قوله (هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ وقوله (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ) وقوله (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ) .

قلنا : هذه كلها نعم جسام ، لأن الله هدد العباد بها استصلاحاً لهم ، ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان إلى حيز الطاعة والإيمان ، والانقياد والإذعان . فإن من حذر من طريق الردى ، وبين مافيها من الأذى ، وحث على طريق السلامة، الموصلة إلى المثوبة والكرامة ، كان منعماً غاية الإنعام ، ومحسناً غاية الإحسان . ومثل ذلك قوله(١) هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ) وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط ، بذكر صفة الرحمة فى ذلك المقام . وأما قوله (٢) (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) فإنه تذكير بالموت والفناء ، للترغيب فى الإقبال على العمل لدار البقاء ، وفى الإعراض عن دار الفناء . انتهى .

وقال البغوىّ : كررت هذه الآية فى أحـد وثلاثين موضعا تقريراً للنعمة ، وتأكيداً للتذكير بها . ثم عدد على الخلق آلاءه ، وفصل بين كل نعمتين بما نبههم عليه ، ليفهمهم النعم ويقررهم بها . كقول الرجل لمن أحسن إليه، وتابع إليه بالأيادى، وهو ينكرها ويكفرها: ألم تكن فقيراً فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن خاملا فعززتك ، أفتنكر هذا ؟ ومثل هذا الكلام شائع فى كلام العرب . انتهى .

---

(١) [٣٦ / يس / ٥٢] . (٢) [٥٥ / الرحمن / ٢٦] .

وقال السيد مرتضى فى (الدرر والغرر) : التكرار فى سورة الرحمن، إنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعدّدة ، فكلما ذكر نعمة أنعم بها ، وبّخ على التكذيب ، كما يقول الرجل لغيره: ألم أحسن إليك بأن خولتك فى الأموال؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا؟ فيحسن فيه التكرير ، لاختلاف ما يقرر به ، وهو كثير فى كلام العرب وأشعارهم ، كقول مهلهل يرثى كليباً[1] :

على أنْ ليس عدلًا من كُلَيْبٍ ... إذا ما ضِيمَ جيرانُ المُجِيرِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا رجف العِضاهُ من الدَّبُورِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا خَرَجَتْ مُخَبَّأَةُ الخُدُورِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا ما أُعْلِنَتْ نَجْوَى الأمُورِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا خِيفَ المَخُوفُ من الثُّغُورِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... غداة تَلاتِلِ الأمرِ الكبيرِ
على أن ليس عدلًا من كليبٍ ... إذا ما خَارَ جارُ المستجيرِ

ثم أنشد قصائد أخرى على هذا النمط ، وهو من لطائف العرب ، فاعرفه .

وقال شيخ الإسلام فى (متشابه القرآن) : ذكرت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله ، وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم . ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، بعدد أبواب جهنم ، وحسن ذكر الآلاء عقبها ، لأن من جملة الآلاء ، رفع البلاء ، وتأخير العقاب . وبعد هذه السبعة ثمانية فى وصف الجنتين وأهلهما ، بعدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها فى الجنتين اللتين هما دون الجنتين الأوليين ، أخذاً من قوله (وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) . فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق هاتين الثمانيتين من الله ، ووقاه السبعة السابقة . انتهى .

اللهم زدنا اطّلاعاً على لطائف قرآنك الكريم ، وغوصاً على لآلئ فرقانك العظيم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٤ من الجزء الأول من أمالى المرتضى (طبعتنا) .

تمّ الجزء الخامس عشر . ويليه ، إن شاء الله ، الجزء السادس عشر ، وفيه تفسير :
٥٦ ـ سورة الواقعة ، ٥٧ ـ سورة الحديد ، ٥٨ ـ سورة المجادلة ، ٥٩ ـ سورة الحشر ، ٦٠ ـ سورة الممتحنة ، ٦١ ـ سورة الصف ، ٦٢ ـ سورة الجمعة ، ٦٣ ـ سورة المنافقين ، ٦٤ ـ سورة التغابن ، ٦٥ ـ سورة الطلاق ، ٦٦ ـ سورة التحريم ، ٦٧ ـ سورة الملك ، ٦٨ ـ سورة القلم ، ٦٩ ـ سورة الحاقة ، ٧٠ ـ سورة المعارج ، ٧١ ـ سورة نوح ، ٧٢ ـ سورة الجن ، ٧٣ ـ سورة المزمل ، ٧٤ ـ سورة المدثر ، ٧٥ ـ سورة القيامة .

فهرس السور المفسرة فى هذا الجزء

رقم الصفحة	رقم السورة واسمها
٥٣٢٦	٤٦ ـ سورة الأحقاف
٥٣٧١	٤٧ ـ سورة محمد ﷺ
٥٣٩٤	٤٨ ـ سورة الفتح
٥٤٣٧	٤٩ ـ سورة الحجرات
٥٤٨٠	٥٠ ـ سورة ق
٥٥١٩	٥١ ـ سورة الذاريات
٥٥٤٠	٥٢ ـ سورة الطور
٥٥٥٣	٥٣ ـ سورة النجم
٥٥٩١	٥٥ ـ سورة القمر
٥٦١٠	٥٥ ـ سورة الرحمن

رقم الإيداع بدار الكتب رقم ٤٢٤٠/١٩٧٠

obeikandi.com

obeikandl.com